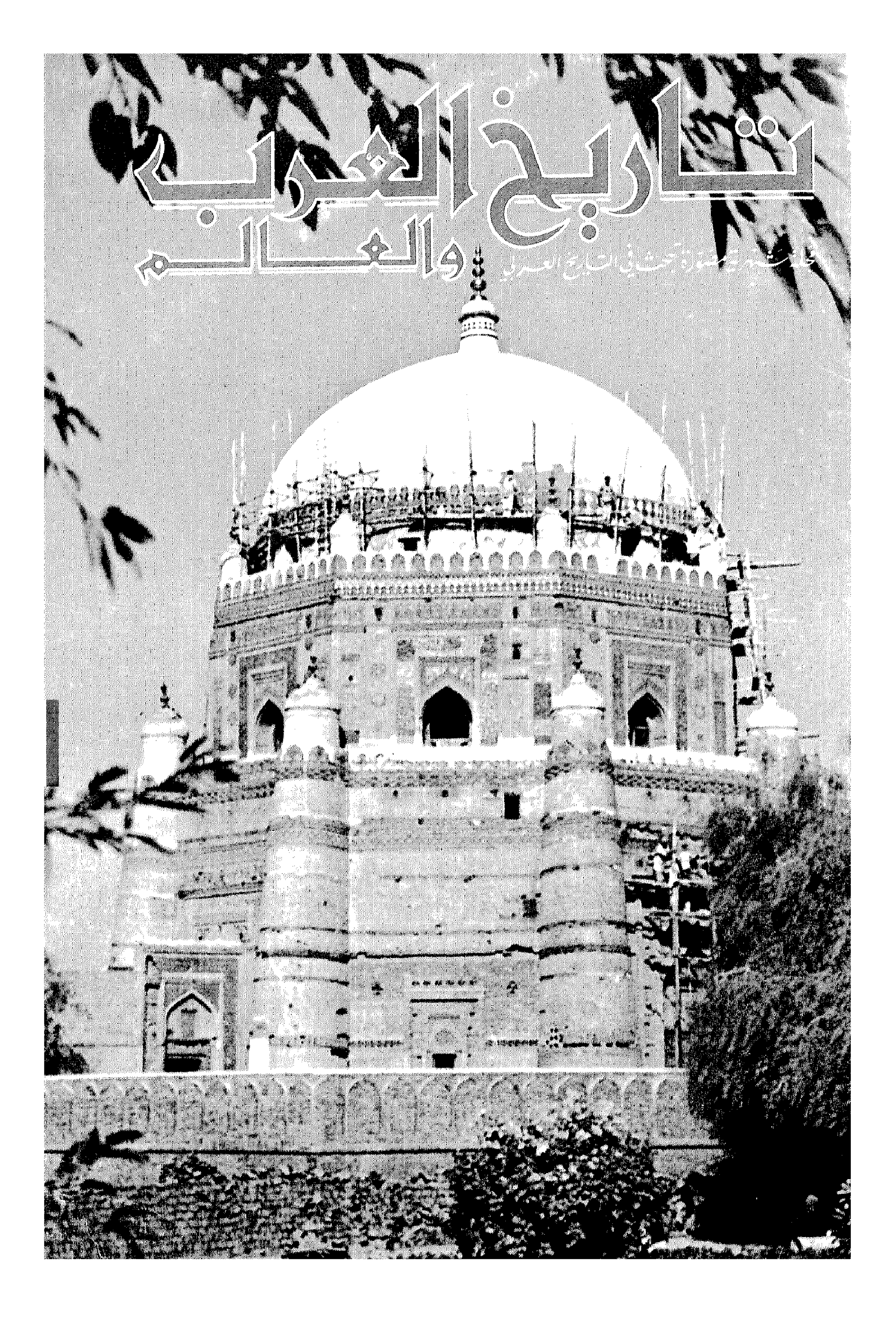
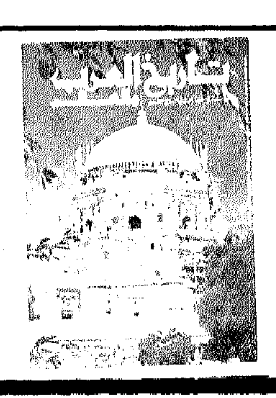

تاريخ العرب
والعالم
مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

□ فن إيراني يعود لعهد أسرة قاجار (القرن الثالث عشر هجري ـ التاسع عشر ميلادي) ويمثل عائلة إيرانية تتناول المرطبات على شرفة المنزل.



الغلاف الأول

□ قبر الشيخ ركن الدين الملطاني في مدينة ملطان في الهند. وهذا البناء يعتبر من روائع الفن الاسلامي في القارة الهندية.

من كتاب: The World of Islam; Edited by Bernard Lewis.

- المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.
- المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.
- المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

تاريخ العرب والعالم

العددان ١٠١/١٠٢ ● آذار ـ نيسان ١٩٨٧

تصدر عن دار النشر العربية للدراسات والتوثيق في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والابحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط ش.م.م.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٢٠ ل.ل.	سوريا	٢٠ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات

(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ٢٥٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٥٠٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً.
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً.
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب: ٥٩٠٥ ـ بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل

شقة ١١ ● شارع السادات ـ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

Vol. 9. No. 101/102 • Mars-April 1987

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■

الإمام الغزالي في كتابه: المنقذ من الضلال

د. نقولا زيادة

ولد الإمام الغزالي في طوس سنة ٤٥٠ للهجرة (١٠٥٨ للميلاد) وتوفي فيها سنة ٥٠٥ (١١١١). وبين هذين التاريخين عاش الإمام الغزالي حياة مليئة بطلب العلم والتأمل فيه والمشاركة العقلية ودرس الفلسفة والعناية بالفقه واتباع التصوف. وهذه التجارب الروحية والعقلية والفكرية التي مرت به من أغنى ما عرف الفكر الإسلامي قاطبة. وقد كانت نتيجتها عدداً كبيراً من المؤلفات يتفاوت في الحجم بين المنقذ من الضلال وأيها الولد في الجهة الواحدة وإحياء علوم الدين في الجهة الأخرى.

والسنون التي عاشها الغزالي تتوسط تماماً فترة تمتد من أول القرن الرابع للهجرة (العاشر للميلاد) إلى أواسط القرن السابع (الثالث عشر). وهي فترة عرفت فيها الخلافة العباسية وسلطات بغداد تقلباً في السياسة وتنوعاً في الحكم وارتفاعاً وانخفاضاً في السلطة المركزية. بدأت الفترة بتغلب الجنود الأتراك على عاصمة الخلافة وتلى ذلك (أواسط القرن الرابع) قيام البويهيين وتسلطهم على الخلفاء. وجاء السلاجقة قبيل مولد الغزالي إلى بغداد، حيث تولوا الحكم إذ لقب الخليفة القائم زعيمهم طغرل بك «السلطان» ومنحه سلطات معينة. ومع أن السلاجقة ظلوا أصحاب الحل والربط في أجزاء مختلفة من الامبراطورية، فإن الخلافات دبت بينهم منذ أواسط القرن السادس (الثاني عشر).

تتفق حياة الغزالي مع ثلاثة من مشاهير السلاجقة وهم السلاطين طغرل بك ٤٢٩ ـ ٤٥٥هـ (١٠٣٨ ـ ١٠٦٣م) والب ارسلان ٤٥٥ ـ ٤٦٥هـ (١٠٦٣ ـ ١٠٧٢م) وملكشاه ٤٦٥ ـ ٤٨٥هـ (١٠٧٢ ـ ١٠٩٢). إلا أن السنوات الأخيرة من عمره اتفقت مع عهد بركيارق ٤٨٧ ـ ٤٩٨هـ (١٠٩٤ ـ ١١٠٥م) ومحمد ٤٩٨ ـ ٥١١هـ (١١٠٥ ـ ١١١٨م)، اللذين لم يكونا في مستوى الأولين. ومعنى كل ذلك أن القسم الأكبر من حياة الغزالي مر في عهد منظم نسبياً. ولا شك أن للوزير السلجوقي نظام الملك، الذي وزر لكل من الب ارسلان وملكشاه، فضلاً كبيراً على سير أمور الدين والدنيا في ذلك الوقت.

على أنه جدير بنا أن نذكر أموراً أخرى كان لها أثر في حياة الغزالي بالإضافة إلى الوضع السياسي. في أيامه كانت آثار الاتصال بين الفكر الإسلامي والفكر الفلسفي اليوناني قد بدت واضحة، والتأثر والتأثير كانا قد عرفا تماماً. والعصر الذي عاش فيه الغزالي كان عصر ازدهار التصوف، بعد أن انتظمته طرق وفلسفات وأنظمة بينة. إلى هذا يجب أن نضيف نضج علم الكلام وقيام التقليد في أمور الفقه والشريعة. كل هذه الأمور عاشها الغزالي بعقله وقلبه وكان لها في تجاربه الروحية والفكرية أثر كبير، ولذلك كانت منزلة الغزالي في توضيح معالم التفكير الإسلامي كبيرة. وليس بالغريب أن يسمى حجة الإسلام.

ولد الغزالي بطوس سنة ٤٥٠ (١٠٥٨) وتلقى علومه الأولى هناك ثم انتقل إلى نيسابور حيث لازم الإمام الجويني إمام الحرمين، حتى وفاة هذا الأخير سنة ٤٧٨ (١٠٨٥). وعندها انتقل إلى صحبة الوزير نظام الملك حيث انضم إلى نصحائه ومستشاريه. وعهد إليه الوزير أن يقوم بالتدريس في المدرسة النظامية التي كان قد انشأها نظام الملك ببغداد، فقام بذلك بدءاً من سنة ٤٨٤ (١٠٩١) واستمر في عمله إلى سنة ٤٨٨ (١٠٩٥)، مع أن نظام الملك قتله الإسماعيلية سنة ٤٨٥ (١٠٩٢). وقد ظهرت له في التدريس شهرة، فاقبل الطلاب عليه من كل حدب وصوب، حتى بلغ عددهم نحو ثلاثمئة طالب.

إلا أن الغزالي كانت تعتوره أزمات نفسية اشتدت عليه في ذلك الوقت حتى انه اعتزل التدريس في النظامية وخرج من بغداد فأقام سنتين متنقلاً بين دمشق وبيت المقدس وأدى فريضة الحج ٤٨٩ ـ ٤٩٠ (١٠٩٦ ـ ١٠٩٧) وعاد إلى بلاده لكنه لم يشتغل بالحياة العامة حتى سنة ٤٩٩ (١١٠٦) حيث التحق بنظامية نيسابور بناء على إلحاح فخرالملك بن نظام الملك، ولكنه لم يلبث في عمله سوى سنة وبعض السنة. ذلك بأنه بعد أن اغتال الإسماعيلية فخرالملك سنة ٥٠٠ (١١٠٦)، ترك الإمام الغزالي نيسابور وعاد إلى مسقط رأسه طوس حيث عاش حياة تأمل وتعليم إلى الإشراف على خانقاه (زاوية) للصوفية، حتى تغمده الله برحمته ٥٠٥ (١١١١).

لسنا نقصد في هذا المقال إلى التحدث عن الإمام الغزالي ومنزلته في عالم الفكر الإسلامي، فذلك أمر يحتاج إلى أكثر من مقال واحد. ولسنا ننوي حتى التحدث عن مؤلفاته الكثيرة ولو عرضاً. ولكننا نود أن نقف عند هذا الكتاب الصغير من كتبه الذي سماه **«المنقذ من الضلال»**، وتتمة الاسم هي: **«والموصل إلى ذي العزة والجلال»**.

فما هو هذا الكتاب؟

يقرر الإمام الغزالي في فاتحة كتابه أن أخاً في الدين سأله أن يبث إليه «غاية العلوم وأسرارها وغائلة المذاهب وأغوارها» وأن يحكي له ما قاساه «في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق». والسائل المجهول، على ما يبدو من فاتحة المنقذ، كان يعرف أن الإمام الغزالي قد مرت به أزمات نفسية حادة، فقد طلب إليه أن يوضحها. أو لعلّ الغزالي نفسه وجد أنه لا يستطيع أن يوضح غاية العلوم وأسرارها ومقاساته في استخلاص الحق دون أن يبين، ولو بشكل مختصر، ما مر به من أزمات فتحدث عنها. ومع أن الغزالي لم يفصل الدقائق، فالواقع أن في الذي كتبه الكثير الكثير من النظرة العميقة الثاقبة بحيث أن

قراءة هذا الكتاب الصغير بعناية يضع بين أيدينا سيرة ذاتية عقلية روحية لهذا العقل النفاذ. ولنقرر قبل كل شيء بضعة أمور توضح لنا مراحل تفكير الغزالي على ما تبدو في المنقذ.

١ ــ ارتفع الغزالي عن حضيض التقليد إلى يفاع الاستبصار، وكان هذا في وقت مبكر في حياته.

٢ ــ انصرف عن نشر العلم ببغداد مع كثرة الطلبة ثم عاوده بنيسابور بعد عشر سنوات ونيف.

٣ ــ لم يزل منذ عنفوان شبابه وريعان عمره قبل بلوغ العشرين وهو يقتحم لجة هذا البحر (أي اختلاف الخلق في الأديان والملل ثم اختلاف الأئمة والمذاهب، على كثرة الفرق وتباين الطرق) ويخوض غمرته خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور.

٤ ــ إن هذا استمر إلى أن نيف على الخمسين من عمره أي لما وضع كتاب المنقذ من الضلال وهو يدرس في نيسابور. ولعله في ذلك الوقت كان قد توصل إلى حقائق الإيمان، واطمأن نفسياً إلى ذلك.

٥ ــ إن التعطش إلى درك حقائق الأمور كان دأبه وديدنه غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلته لا باختياره وحيلته.

٦ ــ إنه تفكر في نيته في التدريس (في بغداد) فوجدها انها غير صالحة لوجه الله تعالى بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت.

٧ ــ هنا تردد ستة شهور في ترك التدريس والانقطاع عن الدنيا. وفي ذلك يقول:

«فلم أزل أتفكر فيه مدة، وأنا بعد على مقام الاختيار، أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوماً، وأحل العزم يوماً، وأقدم فيه رجلاً وأوخر عنه أخرى. لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة، إلا ويحمل عليها جند الشهوة حملة فيفترها عشية. فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام، ومنادي الإيمان ينادي: الرحيل! الرحيل! فلم يبق من العمر إلا قليل، وبين يديك السفر الطويل، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل! فإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد؟ وإن لم تقطع الآن [هذه العلائق] فمتى تقطع؟ فعند ذلك تنبعث الداعية، وينجزم العزم على الهرب والفرار.

ثم يعود الشيطان ويقول: «هذه حال عارضة، إياك أن تطاوعها، فإنها سريعة الزوال؛ فإن اذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض، والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص، والأمر المسلم الصافي عن منازعة الخصوم، ربما التفتت إليه نفسك، ولا يتيسر لك المعاودة».

فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا، ودواعي الآخرة، قريباً من ستة أشهر أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربع مائة. وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار، إذ أقفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطيباً لقلوب المختلفة [إلي]، فكان لا ينطق لساني بكلمة [واحدة] ولا أستطيعها البتة، حتى أورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب، بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشراب: فكان لا ينساغ لي ثريد، ولا تنهضم (لي) لقمة؛ وتعدى إلى ضعف القوى، حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج وقالوا: «هذا أمر نزل بالقلب، ومنه سرى إلى المزاج، فلا سبيل إليه بالعلاج، إلا بأن يتروح السر عن الهم الملم».

٨ ــ فلما استقر رأيه وصدق عزمه فارق بغداد وفرق ما معه من المال، ولم يدخر إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال.

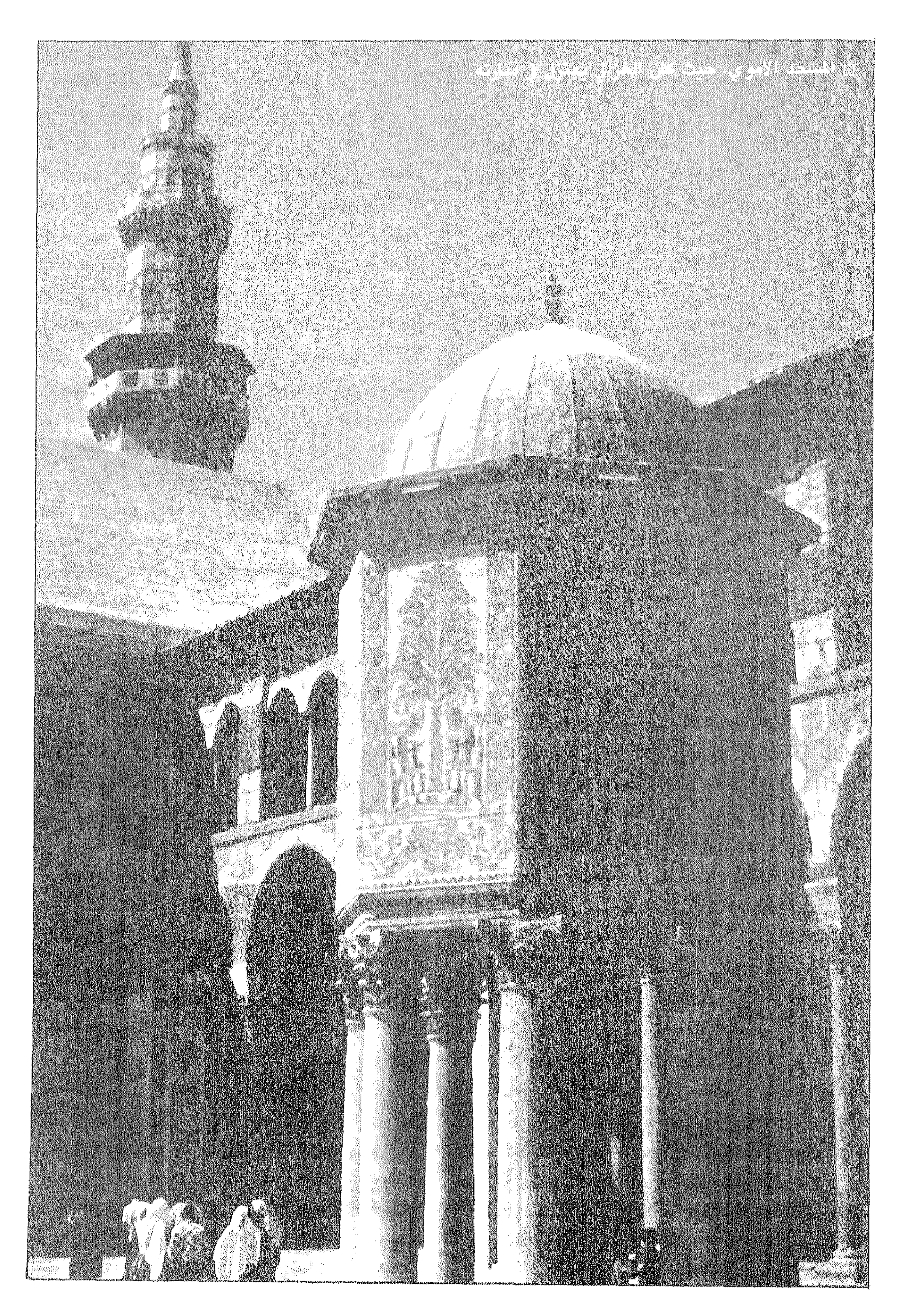
٩ ــ عندها دخل الشام وأقام قريباً من سنتين لا شغل له إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة. فكان يعتكف مدة في مسجد دمشق، يصعد منارة المسجد طول النهار ويغلق بابها على نفسه.

١٠ ــ وتحركت فيه داعية فريضة الحج، والاستمداد من بركات مكة والمدينة وزيارة رسول الله بعد الفراغ من زيارة الخليل فسار إلى الحجاز.

١١ ــ ثم جذبته الهمم ودعوات الأطفال إلى الوطن فعاوده بعد أن كان أبعد الخلق عن الرجوع إليه، فآثر العزلة به ايضاً حرصاً على الخلوة وتصفية القلب للذكر.

١٢ ــ دام على ذلك عشر سنين ويزيد.

١٣ ــ ثم رأى أصناف الخلق قد ضعف



□ المسجد الأموي، حيث ظل الغزالي يعتكف في منارته

إيمانهم، وجاء طلب داعية سلطان الوقت، أي فخرالملك، بالذهاب إلى نيسابور، فشاور في ذلك جماعة فاتفقوا على الإشارة بترك العزلة فخرج من بغداد سنة ٤٩٩ (١١٠٦)، بعد عزلة استمرت إحدى عشرة سنة، إلى نيسابور. وهناك اخذ يدعو «إلى العلم الذي به يترك الجاه، ويعرف به سقوط رتبة الجاه». ويقول الغزالي عن فترة التعليم بنيسابور «هذا هو الآن نيتي وقصدي وامنيتي... وأنا أبغي أن أصلح نفسي وغيري. ولست أدري أأصل إلى مرادي أم أخترم دون غرضي؟ ولكني أؤمن إيمان يقين ومشاهدة أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وإني لم أتحرك لكنه حركني، وإني لم أعمل لكنه استعملني، فاسأله أن يصلحني أولاً ثم يصلح بي، ويهديني ثم يهدي بي، وأن يريني الحق حقاً ويرزقني اتباعه، ويريني الباطل باطلاً ويرزقني اجتنابه».

والسؤال الذي يدور في خلد كل منا الآن ـــ ما الذي انتهى إليه الغزالي بعد هذه الرحلة الروحية الطويلة التي دامت نيفاً وثلاثين سنة؟

وقبل الإجابة عن هذا السؤال يتحتم علينا أن نسير مع الغزالي في المنقذ متابعين تفاصيل رحلته في مجالات العلم والمعرفة كما جربها واختبرها حتى خلص منها إلى النتيجة الحقيقة ـــ الإيمان.

يلخص الغزالي أصناف الطالبين للمعرفة عنده في أربع فرق وهم:

١ ـــ المتكلمون الذين يدعون أنهم اهل الراي والنظر.

٢ ـــ الباطنية الذين يزعمون بأنهم أصحاب التعليم والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم.

٣ ـــ الفلاسفة الذين يزعمون أنهم اهل المنطق والبرهان.

٤ ـــ الصوفية الذين يدعون أنهم خواص الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة. وأخذ الغزالي نفسه بسلوك هذه الطرق ليتعرف إلى أصولها وأسسها ونظرتها ووجهتها. فما الذي وجده عند كل منها؟

وهذا الترتيب هو الترتيب الذي سار عليه الغزالي في محاولاته الفكرية. فقد كان من الطبيعي أن يبدأ بعلم الكلام، وهو أول ما عني بتناوله على أيدي إمام الحرمين ومن إليه. وعلم الكلام بما فيه من فقه وتقليد كان أول ما استخدمه الغزالي في السنوات التي اتصل فيها بنظام الملك قبل ذهابه للتدريس في نظامية بغداد. وقد وصف الغزالي علم الكلام بقوله:

ثم إني ابتدأت بعلم الكلام فحصلته وعقلته وطالعت كتب المحققين منهم، وصنفت فيه ما أردت أن أصنف، فصادفته علماً وافياً بمقصوده غير واف بمقصودي... لما نشأت صنعة الكلام، وكثر الخوض فيه وطالت المدة، تشوق المتكلمون إلى محاولة الذب عن السنة بالبحث عن حقائق الأمور (لا بقبول التقليد أو الإجماع فحسب)، وخاضوا في البحث عن الجواهر والأعراض وأحكامها. ولكن لما لم يكن ذلك (أي البحث عن الحقائق والجواهر) ذلك مقصود علمهم، لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى، فلم يحصل منه ما يمحق بالكلية ظلمات الحيرة في اختلاف الخلق.

في الوقت الذي كان فيه الغزالي يدرس العلوم الشرعية ويصنف فيها كان يختلس الأوقات في تحصيل الفلسفة من الكتب بدون استاذ، وصرف في ذلك ثلاث سنوات وقف خلالها على ما في الفلسفة من ضعف. ولسنا نزعم، ولا نحسب أن هناك من يزعم، أن الغزالي طوى صفحة الفلسفة بعد ذلك إلى لا رجعة. فما كان لرجل له عقل الغزالي الديناميكي اليقظ الفعال أن يقفل على ناحية من نواحي الحياة الفكرية الباب نهائياً.

والغزالي يعدد في المنقذ أصناف الفلاسفة وأقسام علومهم. ويرى أن الفلاسفة «على كثرة أصنافهم يلزمهم وصفة الكفر والإلحاد، وإن كان بين القدماء منهم والأقدمين، وبين الأواخر منهم والأوائل، تفاوت عظيم في البعد عن الحق والقرب منه».

فما هي الزاوية التي نظر منها الغزالي إلى الفلاسفة والفلسفة حتى قال عنهم ما قال؟ الغزالي كان يجتاز ازمة فكرية روحية. لذلك كان يبحث عما يبعد الشك والتشكيك عن نفسه، ويزيل غشاوته عن عينيه وينير قلبه. وقد نظر إلى الفلاسفة من زاوية مطابقتها للعقيدة والإيمان. قد وجد:

١ ـــ ان الفلاسفة (او بعضهم على الأقل)

قد آمنوا بالله وصفاته ولكنهم جحدوا اليوم الآخر.

٢ ــ وإنهم لم يقبلوا (في الأمور الإلهية) بحشر الأجساد وقالوا بأن المثاب والمعاقب هي الأرواح المجردة، والمثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية.

٣ ــ وإنهم قالوا إن الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات.

٤ ــ وقالوا بقدم العالم وأزليته هذا تسوية بين الخالق والمخلوق.

وهذه الأمور المجملة هنا فصلها الغزالي في كتابه: «تهافت الفلاسفة».

والذي وصل إليه الغزالي من درس الفلسفة هو «أن العقل ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات».

بعد الفراغ من علم الفلسفة عنّ له أن يبحث عن مقالات التعليمية أي الجماعة الباطنية وخاصة الإسماعيلية. وقد اتفقت هذه الرغبة مع ورود «أمر جازم من الخلافة بتصنيف كتاب يكشف عن حقيقة مذهبهم... فصار ذلك مستحثاً من خارج وضميمة للباعث الأصلي من الباطن». ويبدو أن الغزالي شغل الباطنية زمناً. فهم لم يكونوا كالفلاسفة اصحاب راي فحسب، بل كانوا كثرة من الناس لهم تعاليم وعقائد ومنظمات وكان لهم أيام البويهيين والحمدانيين شأن، كما انه في الوقت الذي كان فيه الغزالي يقارعهم الحجة كانت لهم في القاهرة خلافة قائمة. وقد صنف الغزالي في الرد على الباطنية ومقارعتهم الحجة خمسة كتب على الأقل هي: «المستظهري» و «حجة الحق» و «مفصل الخلاف» و «الدرج المرقوم بالجداول» و «القسطاس المستقيم». وإذا نحن أخذنا بما جاء في المنقذ، وهو الآن موضع اهتمامنا، فالنقطة الرئيسية التي حاجّ فيها الغزالي أهل التعليم هي موقفهم من نظرية الإمام المعصوم. وهو لا يقبل إلا بمعلم معصوم واحد هو محمد رسول الله. وانتهى الأمر بالغزالي، على حد تعبيره، إلى أن نفض اليد عنهم.

في كتبه المتعددة، سواء اكان يبني نظرية او يقيم هيكلاً او يحاج فئة من الناس، كان الغزالي يضع بين ايدي قرائه المخطط والبينات ويعرض التفاصيل ويبني ويشعر القارىء بذلك كله فيتعلم منه القارىء. لكن في المنقذ لم يكن الغزالي معلماً للتفاصيل، لذلك فإنه كان يتناول القضايا الأساسية لآرائه والقواعد التي تنبني عليها نظريات الآخرين التي نُقضها. ونلاحظ أن موقفه من علم الكلام والفلسفة والباطنية كان موقفاً سلبياً.

فماذا كان موقفه من الصوفية، كما عرضه في المنقذ؟

يختلف الأمر مع الصوفية بالنسبة للغزالي. فهو لم يتعرف إليهم ليبين أخطاءهم أو يرفض أمورهم. ذلك بأن الغزالي، على ما يقرر في المنقذ، لما هم بالتعرف إلى طرق الصوفية، وقرأ ما كتبوا، راى أن الامر الاهم بالنسبة لهم هو العمل الذي يكتسب بالذوق والسلوك. واتجه إلى هذا يتعرف إليه واقعاً. ثانياً انه كان قد حصل معه من العلوم التي مارسها والمسالك التي سلكها في التفتيش عن صنفي العلوم الشرعية والعقلية «إيمان يقيني بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر». ويؤكد الغزالي أن هذه الأصول الثلاثة من الإيمان كانت قد رسخت في نفسه لا بدليل معين محرر، بل بأسباب وقرائن وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها. ثالثاً: أنه كان يجتاز ازمته النفسية العنيفة التي مر بنا ذكرها.

وقد دخل التجربة الصوفية وهو في هذه الحالة. وأفاد من التجربة كثيراً. فقد صفت تجاربه واختباراته، وصفت معها حياته، واتضحت أهدافه وغاياته. ويذكر، توضيحاً لموقفه بعد الخلوة التي دامت نيفاً وعشر سنين، اموراً عن الصوفية يمكن تلخيصها في ما يلي:

١ ــ إن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى، «فإن جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به».

٢ ــ «إن طريقتهم هي استغراق القلب بالكلية بذكر الله وآخرها الفناء بالكلية في الله».

٣ ــ الخطأ في بعض الصوفية أنهم قد ينتهي بهم الأمر بحيث يكادون يتخيلون الحلول والاتحاد والوصول. وهذه الطوائف على خطأ، وقد أبان الغزالي أخطاءها في كتاب «المقصد الأسنى».

٤ ــ بان للغزالي بالضرورة من ممارسة طرق الصوفية حقيقة النبوة وخاصيتها. وحرى بالذكر أن الغزالي، بعد أن عرف هذه الصوفية الصحيحة ثابر على التمسك بها حتى آخر حياته. وكان أثره في رد التصوف إلى حظيرة النبوة كبيراً.

ونعود الآن إلى السؤال الذي سألناه قبلاً وهو «ما الذي انتهى إليه الغزالي بعد هذه الرحلة الروحية الطويلة التي دامت نيفاً وثلاثين سنة؟

والغزالي يجيب على هذا في المنقذ:

١ ــ «إن جوهر الإنسان في أصل الفطرة، خلق خالياً ساذجاً لا خبر معه من عوالم الله (تعالى)، والعوالم كثيرة لا يحصيها إلا الله تعالى، كما قال: (وما يعلم جنود ربك إلا هو) وإنما خبره من العوالم بواسطة الإدراك، وكان إدراك من الإدراكات خلق ليطلع الإنسان به على عالم من الموجودات، ونعني بالعوالم، أجناس الموجودات».

٢ ــ «وراء العقل طور آخر تنفتح فيه عين اخرى يبصر بها الغيب وما سيكون في المستقبل، وأموراً أخرى، العقل معزول عنها كعزل قوة التمييز عن إدراك المعقولات وكعزل قوة الحس عن مدركات التمييز».

٣ ــ إن الناس ضلوا السبيل واختلطت عليهم الأمور، وحتى جماعة من المتصوفة جرفهم التيار.

٤ ــ بانتهاء الأزمة النفسية وعودة الغزالي إلى الهدوء النسبي بسبب الإيمان الذي ملأ قلبه ونفسه، أخذ يفكر بالخروج من العزلة للتعليم والإصلاح. وفي ذلك يقول:

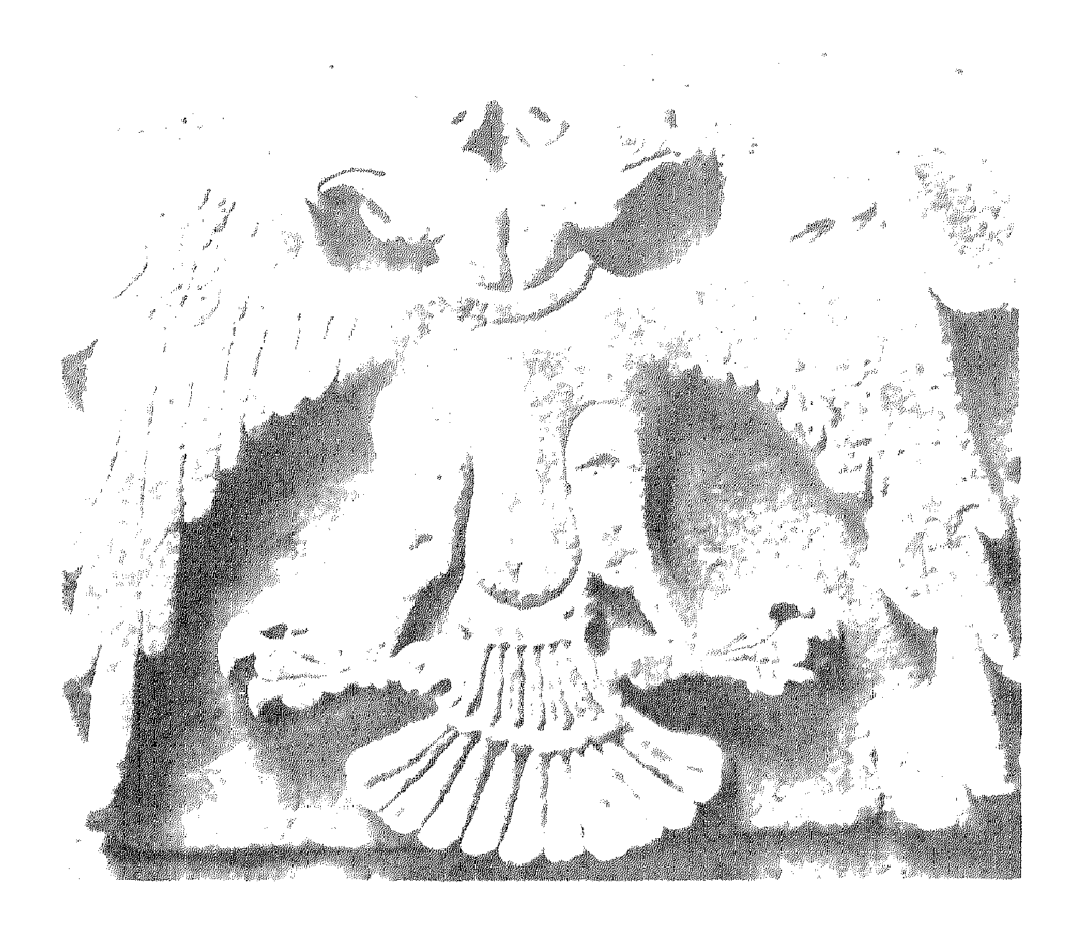
«فلما رأيت أصناف الخلق قد ضعف إيمانهم إلى هذا الحد بهذه الأسباب، ورأيت نفسي ملية بكشف هذه الشبهة، حتى كان إفضاح هؤلاء أيسر عندي من شربة ماء، لكثرة خوضي في علومهم وطرقهم ــ أعني طرق الصوفية والفلاسفة والتعليمية والمتوسمين من العلماء ــ انقدح في نفسي أن ذلك متعين في هذا الوقت، محتوم. فماذا تغنيك الخلوة والعزلة، وقد عم الداء، ومرض الأطباء، وأشرف الخلق على الهلاك، ثم قلت في نفسي: «متى تشتغل أنت بكشف هذه الغمة ومصادفة هذه الظلمة، والزمان زمان الفترة، والدور دور الباطل، لو اشتغلت بدعوة الخلق، عن طرقهم إلى الحق، لعاداك أهل الزمان بأجمعهم، وأنى تقاومهم فكيف تعايشهم، ولا يتم ذلك إلا بزمان مساعد، وسلطان متدين قاهر؟».

«فترخصت بيني وبين الله تعالى بالاستمرار على العزلة تعللاً بالعجز عن إظهار الحق بالحجة. فقدر الله تعالى أن حرك داعية سلطان الوقت من نفسه، لا بتحريك من خارج. فأمر آمر إلزام بالنهوض إلى نيسابور، لتدارك هذه الفترة. وبلغ الإلزام حدا كان ينتهي، لو أصررت على الخلاف، إلى حد الوحشة. فخطر لي أن سبب الرخصة قد ضعف، فلا ينبغي أن يكون باعثك على ملازمة العزلة الكسل والاستراحة، وطلب عز النفس وصونها عن أذى الخلق، ولم ترخص لنفسك عسر معاناة الخلق، والله سبحانه وتعالى يقول: (بسم الله الرحمن الرحيم: الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم) الآية. ويقول عز وجل لرسوله وهو أعز خلقه: (ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا، حتى أتاهم نصرنا، ولا مبدل لكلمات الله، ولقد جاءك من نبأ المرسلين) ويقول عز وجل: (بسم الله الرحمن الرحيم، يس. والقرآن الكريم) إلى قوله: (إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب). فشاورت في ذلك جماعة من أرباب القلوب والمشاهدات، فاتفقوا على الإشارة بترك العزلة، والخروج من الزاوية».

٥ ــ يصف الغزالي العالم الحقيقي، وكأنه يصف نفسه، بالعبارات التالية:

«إن العالم الحقيقي، لا يقارف معصية إلا على سبيل الهفوة، ولا يكون مصراً على المعاصي أصلاً. إذ العلم الحقيقي ما يعرف أن المعصية سم مهلك، وأن الآخرة خير من الدنيا. ومن عرف ذلك، لا يبيع الخير بما هو أدنى منه.

وهذا العلم لا يحصل بأنواع العلوم التي يشتغل بها أكثر الناس. فلذلك لا يزيدهم ذلك العلم إلا جراة على معصية الله تعالى. وأما العلم الحقيقي، فيزيد صاحبه خشية وخوفاً ورجاء، وذلك يحول بينه وبين المعاصي إلا الهفوات التي لا ينفك عنها البشر في الفترات. وذلك لا يدل على



□ بعض آثارات السلاجقة، الذي حكموا اجزاء مختلفة من الامبراطورية الإسلامية (أواخر القرن الحادي عشر اواسط القرن الثاني عشر ميلادي).



ضعف الإيمان. فالمؤمن مفتن تواب، وهو بعيد عن الإصرار والإكباب.

نسأل الله العظيم أن يجعلنا ممن آثره واجتباه، وأرشده إلى الحق وهداه، وألهمه ذكره حتى لا ينساه، وعصمه عن شر نفسه حتى لم يؤثر عليه سواه، واستخلصه لنفسه حتى لا يعبد إلا إياه».

للإمام الغزالي عدد كبير من الكتب، بعضها لا يزال مخطوطاً لا يعرفه الناس، والمنشور منها كثير. وهذا وحده ضخم. وكتب الغزالي ترمي في اكثرها اما إلى بناء نظرية أو توضيح خطأ. لكن كتاب «إحياء علوم الدين» هو كتاب الغزالي الذي يمكن اعتباره نظاماً فكرياً تاماً. والباحثون على أن نواة هذا الكتاب وضعت أثناء اعتكاف الإمام الغزالي في دمشق وبيت المقدس. إلا أن الكتاب يمثل عملاً ضخماً متواصلاً استمر سنوات طويلة.

أما «المنقذ من الضلال» فهو فريد في نوعه بين كتب الغزالي. إنه سيرة ذاتية عقلية روحية وسياحة داخلية في أعماق نفس الرجل أراد منها أن يبين كيف انتهى إليه بعد معاناة شاقة في آفاق التفكير والإيمان. وصفة الكتاب الأصلية في نظرنا هي الإخلاص. فالرجل لبى دعوة وجهت إليه وأجاب عن سؤال طرح عليه. ولما كتب المنقذ كان يضع نفسه وفكره وقلبه وعقله على المشرحة ويصف خلجات نفسه وخطرات فكره وصفاً صادقاً أميناً. على هذا يجب أن يقرأ المنقذ، وبمثل هذا يجب أن يفهم، وإلا فقد الكتاب قيمته الأصيلة الأصلية.

* * *

ونود أن ننقل، في خاتمة هذه العجالة، فقرة من مقال للدكتور إحسان عباس عن رحلة ابن العربي إلى المشرق والتقائه بالغزالي في بغداد سنة ٤٨٩ (١٠٩٦) لارتباط ذلك بما كان الغزالي يحس به في ذلك الوقت:

«وأما صلته [ابن العربي] بأبي حامد الغزالي فتمثل فرحة شاب بلغ الغاية التي كان يرجوها لنفسه، إذ أن ابن العربي على تقديره لجميع شيوخه الذين درس عليهم في مختلف الأقطار كان يرى للغزالي مكانة تسمو به فوقهم جميعاً، وعن هذه الفرحة يعبر بقوله: «فلما طلع لي ذلك النور، وتجلى لي ما كان يغشاني من الديجور، قلت: هذا مطلوبي حقاً، هذا بأمانة الله منتهى السالكين وغاية الطالبين للعلم المبين».

وقد عرض الغزالي ما درسه على غيره من الشيوخ، واهتدى برأيه في مسائل مختلفة، وكانت نفسه تجيش بالأسئلة جيشان القدر، فلم يجد ما يشفي غليله إلا عند أستاذه، وخاصة في الأمور الخلافية وفي مسائل عويصة مما يتحدث عنه المتكلمون والمتفلسفة. وفي الخزانة العامة بالرباط مخطوطة صغيرة تقع في ٢٧ ورقة كتب في أولها: «هذه أجوبة أسولة ابن العربي رضي الله عنه إذ سأل شيخه الإمام حجة الإسلام أبا حامد الغزالي نفعنا الله بهما، حذفت الأسولة وأثبتت الأجوبة لعذر مانع إلا سؤاله عن الروح وبه أبتدىء فأقول: «... وتعد هذه الرسالة نموذجاً لما كان يساور نفس ابن العربي من المشكلات. ومن أمثلة تلك الأسئلة: «الروح هل هو أجزاء نورانية بعدد المخلوقات أو جوهر روحاني يلقي إلى كل جسد من شعاعه كما تلقيه الشمس إلى من لم يحجب عنها؟.. السؤال الثاني: في الفرق بين الطيرة والفأل؟... السؤال الثامن: في حقيقة تمثل جبريل عليه السلام»... ما معنى قوله عليه السلام: إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم؟... الخ.

وفي معرض بعض الأجوبة قدم الغزالي لتلميذه ولمن كان على شاكلته شديد الظمأ إلى المعرفة هذه الوصايا:

١ — أن لا يطمع في الإجابة على كل ما يعترض في نفسه لأن ذلك طمع في غير مطمع وإن يتلو قوله تعالى: (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا).

٢ — أن لا يكذب برهان العقل فإن العقل لا يكذب إذ به عرفنا الشرع.

٣ — أن يكف عن تعيين التأويل عند تعرض الاحتمال فإن الحكم على مراد الله تعالى ومراد رسوله بالظن والتخمين خطر.

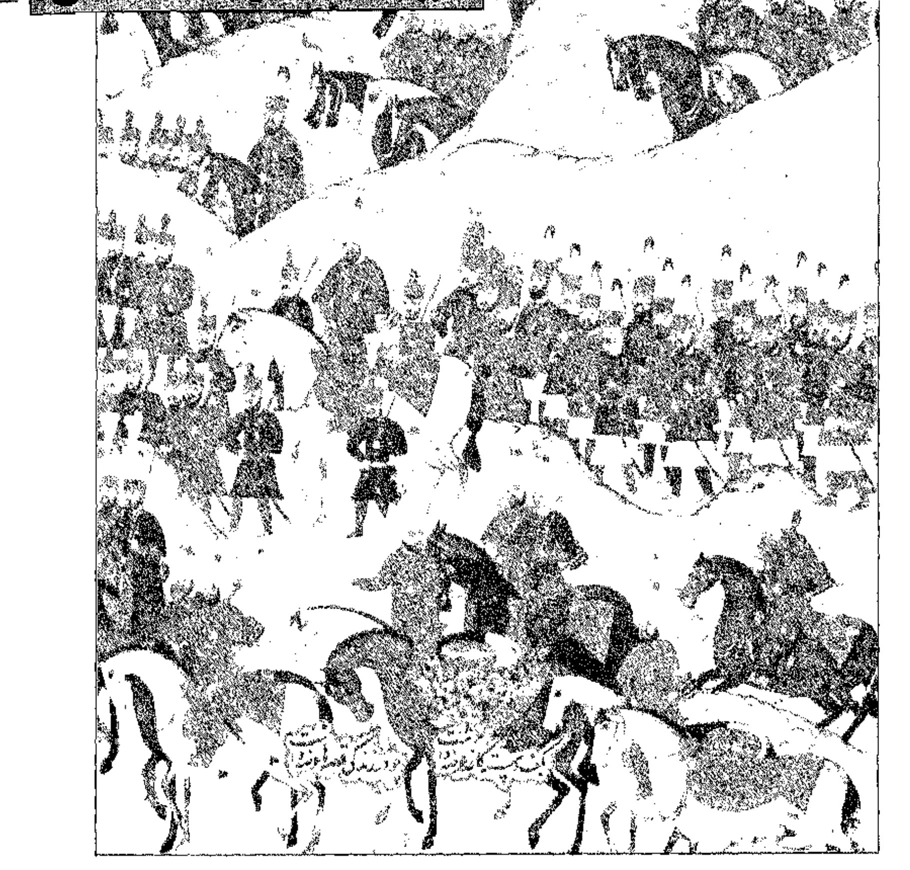
وكان أبو بكر ابن العربي يأخذ نفسه في معاملته لأستاذه الأكبر ببعض الشروط التي وضعها من بعد وسماها «شروط التعليم»، وهي سبعة: الإخلاص والتواضع للمعلم حتى لو تحقق خطؤه وعدم مخالفة المعلم فيما يشير به وعدم



□ كان عصر الغزالي عصر ازدهار التصوف.

الخوض في العلوم دفعة بل الانتقال من علم أهم إلى علم مهم والتذكر لما حفظ والعمل بما تعلمه، وقد أشار عليه الغزالي ذات مرة بالإعراض عن بعض مؤلفاته، ولكنه خالف هذه الوصية فنظر في كتاب «معيار العلم» ثم أدركه خجل شديد عندما اطلع استاذه على هذه المخالفة، قال حاكياً قصته: «ثم نظرت في كتاب المعيار فأعجبني فاستحسنته، وجئت إليه وعلى كمي كراسة منه فقال لي: ما معك؟ فاستحييت ودفعته إليه، فقرأه ملياً، وأنا أسارقه النظر، وأرفض عرقاً، ثم دفعه إلي وقال: كتاب حسن ولكن لا تغتر بمخالفتنا فيه».

وأتاحت له صلته بالغزالي أن يدرس الفلسفة وعلوم الأوائل جملة، وهو يشعرنا بأنه شديد الاعتزاز إذ تلقى تلك الدراسة على أستاذ حجة فيها فيقول: «يعلم الله وتشهد لي كتبي ومسائلي وكلامي مع الفرق بأني جد بصير بأغراض القوم ومقاصدهم، فإن معلمي كان فحلاً من فحولهم عظيماً من عظمائهم»، غير أن هذا لا يعني أنه قبل كل رأي لأستاذه، ولكن شرط التواضع مع المعلم جعله يلزم جانب الاحتشام معه: «وتا لله إني كنت محتشماً له غير راض عنه وقد رددت عليه فيما أمكن واحتشمت جانبه في ما تيسر»●



▲ الجيش العثماني في إحدى حملاته العسكرية

قراءة في التاريخ السياسي للأمارة الشهابية في جبل لبنان من ١٦٩٧ - ١٨٤١

إعداد د. حسين سلمان سليمان

يبدو أن مطالبتنا من على صفحات الصحف بضرورة إعادة كتابة تاريخ لبنان الحديث، خلال القرون الثلاثة الأولى من الحكم العثماني لبلاد الشام، لكي نتمكن من إعطاء صورة واضحة عن تاريخ بلادنا خلال هذه القرون الثلاثة، التي شهدت حكم الامارتين المعنية والشهابية، هذه الدعوة بدأت تعطي ثمارها الفعلية نتيجة الجهد الذي بذله السفير الدكتور عادل إسماعيل وشقيقه الدكتور منير إسماعيل، بنشرهما الجانب الأكبر من الوثائق الفرنسية. وتجاوباً مع هذه الحاجة، أصدر زميلنا د. مسعود ضاهر دراسة بعنوان «الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية»، كما صدرت أخيراً دراسة للزميل د. عباس أبو صالح بعنوان «التاريخ السياسي للامارة الشهابية في جبل لبنان من ١٦٩٧ ــ ١٨٤٢». ويبدو جلياً دور «الوثائق الدبلوماسية»، من خلال مراجعة هوامش الدراستين المذكورتين، وسوف نستعرض بإيجاز لأهم الموضوعات التي تعرض لها د. عباس أبو صالح، ثم نقدم بعدها بعض الملاحظات.

بعد الفتح العثماني لبلاد الشام، وجدت السلطات العثمانية أن مصلحتها تقضي بعدم التعرض للزعامات المحلية في تلك البلاد، فاقرت هؤلاء الزعماء حكاماً في مقاطعاتهم، لكي تضمن تأديتهم الضرائب المفروضة على بلادهم للخزينة، وقد طبق هذا النظام على بعض المقاطعات اللبنانية التي كان يحكمها الأمراء المعنيون مباشرة، لا سيما بلاد الشوف، وتوابعها التي أصبحت تدعى منذ القرن السابع عشر، بلاد الدروز أو إمارة جبل الدروز أو جبل ابن معن.

ولقد اتخذ منصب الإمارة في المقاطعات اللبنانية في ظل الحكم المعني، شكلاً من أشكال السلطة السياسية وفق تقاليد معينة ذات صلة بنظام إقطاع الأرض والالتزام الذي كان سائداً في بلاد الشام خلال العهد العثماني، ولم يتغير هذا النظام عندما ورث الشهابيون حكم الإمارة المعنية في أواخر القرن السابع عشر. فقد شملت الإمارة الشهابية معظم المقاطعات التي كان يحكمها الأمراء المعنيون لا سيما منطقة جبل الدروز، وقد عرف الأمير الشهابي الحاكم في مختلف المصادر المحلية والأجنبية بأمير الدروز.

أما من حيث نظام الحكم فقد كان يوجد منصبان رئيسيان في الامارة الشهابية، الأمير الحاكم والمقاطعجي، فالأمير الشهابي الحاكم الذي يتولى السلطة السياسية العليا في الإمارة يسمى الحاكم، وكان الباب العالي العثماني يصدر فرمان تعيينه في هذه المرحلة باسم حاكم

جبل الدروز وكسروان، وكان يتم تنصيبه عادة باسم السلطان العثماني عن طريق والي صيدا، وكانت مدة ولايته سنة واحدة قابلة للتجديد. ويدير الأمير الحاكم شؤون التزامه بحسب العرف والتقاليد وليس بحسب أنظمة وقوانين، ولم يكن هناك تميز رسمي بين المقاطعجيين من حيث الحقوق والامتيازات، بل كان هنالك تميز من حيث اللقب والبروتوكول ومقدار النفوذ.

وشكلت العائلات المقاطعجية الهيكل الأساسي للإمارة الشهابية، فالمقاطعجي يمثل عادة عائلة كلها مقاطعجيون يسيطرون على الأرض باسم السلطان، ويتلقون كل أشكال الدعم من الوالي او السلطة المركزية. فهم يجبون الضرائب وعلى الفلاحين العمل بالأرض وتقديم الضرائب المفروضة عليهم.

وكان السلطان يعتبر المالك الشرعي الوحيد للأرض، أما الباقون من أصحاب السلطة فقد كانوا يمارسون عليها حق التصرف، ولقد احتفظ المقاطعجيون بحق الاستمرار في جباية الضرائب على مقاطعاتهم طالما ظل باستطاعتهم تأدية الضرائب عنها لخزينة السلطنة، وقد ساعد هذا الإجراء المقاطعجيين في مرحلة تفكك السلطنة على تملك القسم الأكبر من تلك الأراضي. وإذا ما تذكرنا بأن المقاطعجي كان ينتمي إلى أسرة جميع أفرادها مقاطعجيون بالوراثة، عرفنا كيف أن عائلة معينة استطاعت أن تفرض سلطتها على منطقة معينة لقرون عدة أحياناً.

وكانت الطبقية عرفاً سائداً في الإمارة الشهابية، فالناس غير متساوين، فهم إما من طبقة المقاطعجية على مختلف درجاتها أو من العامة. وهذا الترتيب الاجتماعي ينطبق على مختلف الطوائف الدينية في الإمارة، فكان هناك مقاطعجيون من مختلف الطوائف كما أن طبقة العامة شملت مختلف الطوائف أيضاً. ولم يكن الولاء السياسي قائماً على أساس مذهبي طائفي، بل بحسب الفئات السياسية، فالولاء السياسي للمقاطعجي أولاً سواء كان من هذا المذهب أو ذاك، والذي كان يتبع المقاطعجي كان يتمتع بحق رعاية الأخير وحمايته. ثم أن ولاء الفرد لم يقتصر في مرحلة لاحقة على المقاطعجي وأسرته، بل تجاوزه في ما بعد إلى الحزب، الغرضية بتعبير ذلك العصر — الذي ينتمي إليه الاثنان، أي أن يكون الفرد يزبكياً أو جنبلاطياً أو نكدياً، وهذه الفرضية كانت تشمل جميع الطوائف.

وينفرد د. أبو صالح عن جميع الذين أرّخوا هذه المرحلة التاريخية، بأن الانقسام اليزبكي — الجنبلاطي له جذوره في العهد المعني، ولكنه ظهر إلى العلن بعيد موقعة عين داره عام ١٧١١ في عهد الأمير حيدر الشهابي بالذات، وبأن الأمير ملحم عمل على إذكاء هذا الانقسام بين المقاطعجيين الدروز بالدرجة الأولى، وذلك من أجل تثبيت أركان الحكم الشهابي في الإمارة. ومما ينبغي الإشارة إليه أن هذا الانقسام السياسي لم يقتصر على المقاطعجيين الدروز فيما بعد، بل امتد ليشمل سائر الطوائف في الإمارة ومنهم الموارنة. وبأن الانقسام إلى يزبكي وجنبلاطي أضعف بشكل عام موقف هؤلاء المقاطعجيين تجاه الأمير الحاكم. وقضت التقاليد والأعراف الاقطاعية على أفراد الأسرة الشهابية الحاكمة أن لا يتحزبوا لأي من الحزبين لأنهم أمراء، بل يجب أن تميل إليهم إحدى الفئتين أو الاثنان معاً. أما مشايخ النكدية فقد كانوا يقفون على الحياد، ولكنهم كانوا أحياناً — يميلون إلى أحد الحزبين فيرجحون كفة على أخرى.

وكان على الأمير الشهابي الحاكم إزاء هذا الوضع أن يعتمد في بعض الأحيان على إحدى الفئتين لدعم سياسته في الداخل، وعلى الإثنتين معاً للوقوف في وجه الخطر الخارجي. وكثيراً ما استغل أمراء آل شهاب هذا الانقسام السياسي (يزبكي — جنبلاطي)، لتأليب بعض المقاطعجيين ضد البعض الآخر وأحياناً ضد الأمير الحاكم نفسه. وإذا استتب السلم في الداخل تدخل ولاة صيدا وطرابلس ودمشق من الخارج وايقظوا الفتن من جديد، فكانت تلك المؤامرات والفتن تصرف الأمير الحاكم عن الاهتمام بشؤون البلاد الملزمة له وعمرانها، وتشغله بكيفية إخضاع العصاة والتخلص من المناوئين والمعارضين له في السلطة.

فقد شهد عهد الأمير يوسف ملحم الشهابي صراعاً عنيفاً بين الأمير وأخويه سيد أحمد

وأفندي، ثم بينه وبين كبار المقاطعجيين الدروز وقام مدبر[1] الأمير يوسف الشيخ سعد الخوري بدور أساسي في تأجيج ذلك الصراع، معززاً بذلك سلطة المدبر وما أخذ يمثله على الصعيد الماروني في الحكم، وبتأثير من الشيخ سعد الخوري دشن الأمير يوسف سياسة تعزيز دور الموارنة الاقتصادي والسياسي في الإمارة على حساب المقاطعجيين الدروز، ويمكن اعتبار ضريبة الشاشية[2] التي فرضها الأمير على عقال الدروز، رمزاً لسياسة التحيز والتحدي الطائفيين، التي اتبعها الأمير يوسف بوحي من مدبره الشيخ سعد، لقد أثارت تلك الضريبة نقمة عارمة بين الدروز كافة من الحزبين اليزبكي والجنبلاطي ضد سياسة الأمير يوسف الضرائبية، كما أدت سياسة البطش والتنكيل التي اتبعها الأمير تجاه خصومه من الأمراء الشهابيين وتجاه بعض المقاطعجيين الدروز إلى إضعاف موقع الأمير السياسي وزوال سلطانه.

ولم يكن القضاء على الأمير يوسف الشهابي نهاية الصراع على السلطة داخل الإمارة الشهابية، بل إن ذلك الصراع ما لبث أن احتدم من جديد بين الأمير بشير قاسم والأميرين حيدر ملحم وقعدان محمد الشهابيين، ثم بعد أن عجز الأخيران عن الإمساك بزمام السلطة، تسلم الحكم بعدهما ولدا الأمير يوسف حسين وسعد الدين. وانقسم أعيان الإمارة بين مؤيد للأمير بشير ومعارض له. لكن هذا الانقسام السياسي بين أعيان الإمارة لم يكن مصدره الوحيد الصراع على السلطة بين الأمراء الشهابيين، أو بين هؤلاء وباقي أعيان الإمارة وجلهم من كبار الاقطاعيين الدروز، بل كان أيضاً نتيجة لتدخل الوالي العثماني المشهور أحمد باشا الجزار في شؤون الامارة الداخلية، وإذكاء الأخير لهذا الصراع بغية الابتزاز المالي والسياسي. إلا أنه لا بد من الاعتراف بأن تدخل الجزار هذا، لم يكن ليبلغ درجة الخطورة لولا طغيان شهوة السلطة والحكم لدى بعض الأمراء الشهابيين من جهة، ولولا انسياق كبار المقاطعجيين الدروز إلى حلبة الصراع بغية إحراز بعض المكاسب السياسية من جهة ثانية.

ومنذ بداية عهد الأمير بشير وقف مشايخ النكدية إلى جانب خصومه، كما تحالف مشايخ آل عماد مع النكدية، أما مشايخ الجنبلاطية فقد كانوا من مؤيدي الأمير بشير، وتحالف معهم بعض الأمراء اللمعيين. وقد أظهر النكديون عام ١٧٩١ مقاومة عنيفة للقوات التي أرسلها أحمد باشا الجزار، لقمع حركة التمرد الشعبية التي قامت في مختلف أنحاء الإمارة احتجاجاً على سياسة الأمير بشير التعسفية لجمع الأموال التي فرضها الجزار. ولا شك أن إجماع أعيان الإمارة على مقاومة الجزار وأعوانه هو أمر بعيد الدلالة في تلك الفترة الحرجة من تاريخ الإمارة، إذ كانت بمثابة تمرد على الظلم والطغيان وتحد سافر لأحد أقوى الولاة العثمانيين آنذاك، إلا أن هذا التمرد لم يبلغ درجة المطالبة بالاستقلال عن الدولة العثمانية، بل كان عبارة عن مطلب داخلي يقضي أولاً برفض الأمير بشير الشهابي حاكماً على بلاد الدروز.

وكانت خطة الجزار في تعامله مع الإمارة الشهابية ترمي إلى نصرة فريق ضد الآخر، فإذا ما خسر أحد الفرقاء المعركة يلجأ لطلب مساعدة الجزار، وكثيراً ما ينجده مقابل مبلغ كبير من المال، وبعد أن يستنفد أموال الفريق الحاكم، يلجأ إلى دعم فريق آخر لابتزاز أموال جديدة. ولعل هذه السياسة تفسر ظاهرة استمرار الصراع داخل الإمارة الشهابية طيلة حكم الجزار في ولاية صيدا (١٧٧٦ ــ ١٨٠٤). وقلما نجح حكام الشهابيون طيلة هذه المدة في توحيد كلمتهم، ليقفوا صفاً واحداً في وجه طغيان الجزار، أو في وجه تدخله في شؤون الإمارة، بل كثيراً ما عمد الحاكم الشهابي للاقتصاص من أعيان خصومه في الداخل بدل أن يوجه جهوده للتصدي لمظالم الجزار. وما أن يصل خصمه إلى السلطة بدعم من الجزار نفسه، حتى يلجأ إلى الأخذ بالثأر ويقتص من الفريق الآخر.

لكن الذي دفع ثمن ذلك التناحر سياسياً ومادياً، هم بالدرجة الأولى مناصب الدروز ورعاياهم من مختلف الفئات، ذلك أن أعيان الدروز كانوا لا يزالون يملكون معظم الأراضي ضمن حدود الإمارة، فكان من الطبيعي أن يتحملوا العبء الأكبر في تأدية الأموال التي فرضها الجزار ثمناً لخلع التزام جبل الدروز على



□ محمد علي باشا في اجتماع مع الكولونيل كامبل وبعض المهندسين الفرنسيين.

الأمراء الشهابيين. وعبثاً حاول بعض الأعيان التمنع عن دفع تلك الأموال، أو على وضع حد لتنافس كل من الأمير بشير وأولاد الأمير يوسف الذين حاولوا استرضاء الجزار عن طريق دفع مزيد من المال مقابل بقائهما في سدة الحكم. والأسوأ من هذا كله أن كلاً من الفريقين لم يتورع عن الاستعانة بقوات الجزار لفرض نفسه على الفريق الآخر، مما كان يؤدي إلى خراب القرى وبوار المواسم، الأمر الذي أدى إلى إضعاف بنية الإمارة السياسية، حتى أنه لما قدم نابليون بونابرت في حملته الشهيرة على مصر وبلاد الشام، لم يتمكن أعيان الإمارة من اتخاذ موقف موحد منها.

وتعتبر وفاة الجزار عام ١٨٠٤ بداية الطريق الذي سلكها الأمير بشير للتخلص من معارضيه والمنافسين له على السلطة والنفوذ، خصوصاً أولئك الذين أجبروه أكثر من مرة للتخلي عن كرسي الحكم خلال عهد الجزار، وعلى رأس هؤلاء أبناء الأمير يوسف الشهابي ومدبراهما عبدالأحد وجرجس باز ثم زعماء الحزب اليزبكي. وكان جرجس باز قد أصبح من كبار رجال السياسة في عهد الأمير بشير، ويحظى بتأييد واسع بين معارضي الأمير ولا سيما اتباع الحزب اليزبكي، كما حظي بدعم الكنيسة المارونية ورهبانيتها، وكان هو المتصرف بكل شؤون جبيل وشمالي لبنان، في حين كان أبناء الأمير يوسف يحكمون بالاسم. فأثارت هذه المكانة خشية الأمير بشير من أن يتآمر عليه الاخوان باز لإيصال أبناء الأمير يوسف إلى سدة الحكم، فتخلص منهما بالاتفاق مع شقيقه الأمير حسن. ولما كان العرف والتقليد لا يسمحان بقتل أبناء الأمير يوسف نظراً لأنهما سبق أن تولوا سدة حكم الإمارة، فقد أمر الأمير بشير بسمل أعينهم وفرض عليهم الإقامة الجبرية ومنعهم من الزواج، فصفا الجو له إثر هذه الحادثة وهابه الجميع. واستأثر بالسلطة والنفوذ طوال عهد والي صيدا سليمان باشا (١٨٠٥ ــ ١٨١٩)، دون أن يجرؤ أحد من معارضيه ومنافسيه على

طلب التزام جبل الدروز، بل كان حريصاً على إجهاض أي تحرك يحاك ضده بمساعدة حليفه الشيخ بشير جنبلاط.

وبوفاة سليمان باشا عام ١٨١٩ خلفه في ولاية صيدا عبدالله باشا، فلم يكن من مصلحته أن يكون الحكام التابعون له من القوة والنفوذ ما كان للأمير بشير، ولهذا عمد إلى إضعاف الأمير، فاتبع لفترة من الزمن سياسة ابتزاز نحو الإمارة الشهابية. واستقبل الباشا في عكا القوى السياسية المعارضة للأمير في جبل الدروز، التي كان قد أنزل بها الأخير البطش والتنكيل ومصادرة الممتلكات، وخشية من عودة معارضيه إلى السلطة رضخ الأمير لمطالب عبدالله باشا حتى ولو كانت ستؤدي إلى إيقاع الظلم على الرعية، فأمر بجباية الأموال الأميرية قبل أوانها، ونجح الدروز برفع هذه الضريبة عن كاهلهم، فوقع العبء على كاهل عامة النصارى، فاجتمعوا في انطلياس واتفقوا أن لا يؤدوا الضرائب المفروضة عليهم إلا مرة واحدة، ولعب الأكليروس الماروني دوراً بارزاً في تنظيم وتوجيه الحركة الفلاحية في الإمارة، كما شجعهم عبدالله باشا على التمرد بالإيعاز لهم بعدم دفع الضرائب إلا مرة واحدة. فاضطر الأمير بشير إلى التخلي عن الحكم وسار برفقة حليفه الشيخ بشير جنبلاط إلى حوران، فأحال عبدالله باشا التزام جبل الدروز إلى الأميرين حسن وسلمان الشهابيين، مقابل تعهدهما بدفع الأموال المطلوبة.

وما أصاب الأمير بشير في جمع المال المطلوب لوالي صيدا، أصاب الأميرين الحاكمين حسن وسلمان، إذ عجزا بدورهما عن تأمين المبلغ الذي تعهدا بدفعه إلى عبدالله باشا، فاتفقا مع زعماء الحزب اليزبكي ومشايخ آل نكد للسعي من أجل التفاهم مع الأمير بشير وحليفه الشيخ بشير جنبلاط واستفاد الأمير بشير من درس عامية انطلياس، فعزل وكلاء عامية[٣] انطلياس عن حلفائهم مناصب المتن والشوف وكسروان، ففرض ضرائب غير اعتيادية على اهالي مقاطعتي جبيل وكسروان، لكن الأهالي تمنعوا عن دفع أكثر من الضريبة الاعتيادية وأعلنوا العصيان في لحفد، وجرت مناوشات بينهم وبين قوات الأمير بشير، أسفرت عن هزيمة قوات العامية وتشتتها أمام زعماء الاقطاع ورجالهم.

وساند الأمير بشير والي صيدا عبدالله باشا في الصراع السياسي الذي نشب عام ١٨٢٢ بين الأخير ووالي دمشق درويش باشا، وأحرزا نصراً عسكرياً في المزه سرعان ما انقلب إلى خسارة سياسية عليهما، بحيث اضطر الأمير بشير إلى مغادرة البلاد إلى مصر، وخلفه في الحكم الأمير عباس الشهابي مقابل مئة ألف غرش تعهد بدفعها الشيخ بشير جنبلاط، الذي أصبح الحاكم الفعلي والمتصرف بكل شؤون جبل الدروز، في حين لم يكن الأمير عباس الشهابي حاكماً إلا بالاسم

وبعد أن أمضى الأمير بشير ما يقارب السنة في مصر، كان خلالها موضع التكريم من قبل محمد علي باشا، عاد إلى جبل الدروز وفي نيته أن يكون دون منازع صاحب السلطة المطلقة في الجبل، ولم يكن ذلك ممكناً دون التخلص من الشيخ بشير جنبلاط، الذي كان يشاركه في مظاهر السلطة والنفوذ في جبل الدروز. فباشر بتطبيق الخطة التي اعتاد سلوكها عند القضاء على خصومه السياسيين، عن طريق استنزاف هؤلاء الخصوم مادياً وإفقارهم، بحيث يصبحون عاجزين عن تأمين ما تتطلبه مكانتهم الاجتماعية من موارد مالية، ففضل الشيخ بشير الرحيل مع بعض الأمراء الأرسلانيين إلى حوران. واستفاد الأمير بشير من غياب الشيخ لتعويض المصاريف الباهظة التي تكبدها أثناء فراره إلى مصر، أو تلك التي أنفقها من أجل عودته إلى منصبه، ففرض ضرائب باهظة على مقاطعات التزامه، بحيث جعلها تدفع إحدى عشرة مرة ما اعتادت أن تدفعه مرة واحدة. مما جعل أعيان الجبل يدركون أن غياب الشيخ بشير جنبلاط هو الذي ساعد الأمير بشير على التصرف بحرية، فتكاتلت كل القوى المستاءة في جبهة واحدة مناوئة للأمير الحاكم، بهدف إسقاطه والتخلص من ضرائبه وتسلطه. وبنتيجة المساعدة العسكرية التي أمنها عبدالله باشا للأمير بشير، تمكن الأمير بشير من الانتصار على خصومه، وانتهى الشيخ بشير شنقاً في عكا عام ١٨٢٥، بإيعاز من محمد علي الذي ألح عليه

الأمير بشير بأن يضغط على عبدالله باشا لتنفيذ ذلك.

وخلا الجو السياسي للأمير بشير بعد القضاء على كبير منافسيه الشيخ بشير جنبلاط، مما مكنه من القضاء على جميع معارضيه ومنافسيه داخل الإمارة، وأصبح صاحب السلطة المطلقة بعد أن تمت له السيطرة على مقدرات أعيان الدروز تدريجياً. ابتداء من تصفية زعماء آل نكد مروراً بالأرسلانيين والعماديين والتلاحقة والملكيين وانتهاء بالجنبلاطيين. ولا شك أن نجاح الأمير بشير في تحطيم الزعامة الدرزية قد ساهم في القضاء على تفوق الدروز السياسي والاقتصادي في جبل الدروز، وأفسح في المجال أمام القوى الأخرى خاصة المارونية منها لتحل مكان الدروز، ولكن تلك القوى الجديدة لم تكن حتى ذلك الحين في موقع المنافس له، بقدر ما كانت في موقع الخضوع له، مما جعله صاحب الكلمة العليا في الإمارة.

وبقضاء الأمير بشير على نخبة من المقاطعجيين الدروز بمساعدة والي مصر، صار مديناً للأخير وخسر في الوقت نفسه قوة رئيسية كانت تشد أزره في الماضي لمواجهة أي تهديد خارجي. فحين فشلت جهود محمد علي إقناع الباب العالي بإحالة بلاد الشام إليه، وجه حملة عام ١٨٣١ لاحتلالها بالقوة منذراً الأمير بشير بالانضمام إلى الحملة وإلا تعرضت منطقة الجبل للخراب والدمار، ولم يكن بإمكان الأمير مواجهة التحدي لأنه سبق وقضى على نخبة من المقاطعجيين الدروز بمساعدة والي مصر.

لكن الإجراءات العسكرية والاقتصادية التي اتخذها إبراهيم باشا في بلاد الشام، أدت إلى قيام عدة ثورات واضطرابات ضد حكمه عام ١٨٣٤، لكنه تمكن من إخمادها نتيجة المساعدات الهامة التي قدمها له اللبنانيون فباشر بتجريد الدروز من السلاح تحت التهديد، ثم ما لبث أن باشر بتجريد النصارى أيضاً خلافاً لتعهده. وحين رفض الدروز التطوع في الجندية خشية الاختلاط بباقي العساكر من غير ملتهم، أمر إبراهيم باشا بتشكيل فرق كاملة من هؤلاء الدروز.

وتحول جبل حوران ملجأ للفارين من التجنيد وللثائرين على الحكم المصري وللهاربين من ثقل الضرائب وللنازحين من مناطق الثورة في فلسطين. ومنع دروز حوران دخول القوات المصرية إلى المنطقة، واستجاب دروز وادي التيم إلى استغاثة أخوانهم في حوران وأعلنوا العصيان على الحكم المصري، كما التحق بالثوار دروز الشوف. واتخذ الأمير بشير قراراً بالتدخل العسكري ضد ثورة الدروز، ووافق على طلب إبراهيم باشا تجنيد شبان من النصارى للقتال ضد الثورة الدرزية، فكرّس الأمير بعمله هذا الانقسام السياسي في الإمارة ولأول مرة على أساس طائفي مذهبي، وزرع بذلك بذوراً للفتن الأهلية الطائفية التي نشبت في لبنان ما بين ١٨٤٠ و ١٨٦٠، لكن تحركات الجيش العثماني على الحدود الشمالية، أجبرت إبراهيم باشا على التساهل مع دروز جبل حوران كما تساهل مع دروز وادي التيم من قبلهم.

وبانتصار محمد علي على القوات العثمانية في موقعة نزب (نصيبين) في منتصف عام ١٨٣٩، وجدت الدول الأوروبية (بريطانيا وفرنسا وروسيا والنمسا وبروسيا)، أن انهيار الدولة العثمانية من شأنه أن يهدد مصالحها. وجميع هذه الدول باستثناء فرنسا كانت ترغب بإنهاء حكم محمد علي في بلاد الشام وإرجاع السيطرة العثمانية عليها، فباشرت بريطانيا تهيئة الأجواء الملائمة للثورة على الحكم المصري ليس في لبنان فحسب، بل في سائر أنحاء بلاد الشام. وسرعان ما انطلقت شرارة الثورة وعمت المناطق الساحلية والجبلية اللبنانية، وطالب الثوار عدم تجريدهم من السلاح وعدم تجنيدهم وإبطال أعمال السخرة ودفع ضريبة الفردة على الأحياء فقط، وتصلب الثوار في مواقفهم نتيجة الدعم الذي كانوا يتلقونه من الدول الأوروبية، حتى أن الحكومة البريطانية وزعت خمسة آلاف قطعة سلاح في مطلع عام ١٨٤٠، لكن الأمير بشير تمكن بمساعدة القوات المصرية من إخماد العصيان.

وفي حين كانت فرنسا تؤكد للبطريرك الماروني وللأمير بشير أنها لن تتخلى عن حماية الموارنة، ولكنها لا ترضى بأعمال الشغب التي يقوم بها بعض الموارنة ضد حكومة محمد علي تمكن

الانجليز من إقناع البطريرك والاكليروس الماروني بحث رعاياهم على عصيان الحكم المصري وتلقي السلاح من القوات العثمانية. وبإيعاز من بريطانيا أصدر الباب العالي العثماني أمراً بعزل الأمير بشير الشهابي الثاني وتعيين نسيبه بشير الثالث حاكماً على جبل الدروز، في وقت تمكنت خلاله القوات الأوروبية من السيطرة على المناطق اللبنانية، وتم لها إجلاء القوات المصرية عنها.

وهكذا انتهى عهد الأمير بشير الثاني الذي دام نحو نصف قرن، بعد أن أصيبت طبقة المقاطعجيين تدريجياً بالضعف نتيجة انقسامها السياسي وتناحرها مع بعضها البعض، أو مع الأمير بشير، وبرزت في الوقت نفسه اقتصادياً ثم سياسياً قوى جديدة. وبدا أن هذا التحول السياسي كان لصالح الأسرة الشهابية الحاكمة أولاً، ثم لصالح القوى الصاعدة بين الموارنة ثانياً.

فنتيجة للنقص في الأيدي العاملة الدرزية، استقدم المقاطعجيون الدروز مهاجرين جددا جلهم من الموارنة للعمل في أملاكهم، مما أدى إلى تحسن دخل اليد العاملة المسيحية، كما تحسن دخل المقاطعجيين الدروز مرحلياً من جهة ثانية. لكن الدور الاقتصادي لهؤلاء النصارى في المناطق الدرزية، أخذ يتعاظم بعد النصف الثاني من القرن الثامن عشر، حيث ظهرت المؤسسات الرهبانية الكاثوليكية كأكبر قوة اقتصادية منتجة في جبل الدروز، لكنها كانت في هذه المرحلة قليلة النفوذ على الصعيد السياسي.

ونتيجة الامتيازات التي تمتع بها بعض السكان المحليين من المنتمين إلى الطوائف الكاثوليكية بالذات ممن عملوا كوسطاء أو وكلاء للتجار الأوروبيين، تمكن بعضهم من جني أرباح طائلة، ساعدتهم على اكتساب مواقع اجتماعية وسياسية على حساب المقاطعجيين من مختلف الطوائف، فصاروا يقدمون القروض للمزارعين لقاء شراء محاصيلهم الزراعية وخاصة الحرير، وكثيراً ما اضطر المقاطعجيون إلى رهن مواسمهم لهؤلاء التجار المحليين مقابل الاستدانة منهم، وإذا لم يستطع المقاطعجي تسديد ديونه للتاجر يلجأ الأخير لوضع يده على أملاك المقاطعجي.

فازداد غنى الطوائف الكاثوليكية جزئياً على حساب الدروز، والذين كانوا فلاحين لدى مقاطعجيي الدروز قبل عام ١٨٢٠، أصبحوا في نهاية عهد الأمير بشير الثاني مقرضين أموالهم لهؤلاء المقاطعجيين أو لأبنائهم.

ولقد استغرقت عملية التردي الاقتصادي والسياسي للمقاطعجيين الدروز زمناً طويلاً، ولكن تبلورت بشكل خاص خلال عهد الأمير بشير الثاني، فسياسة التغريم والانتقام التي طبقها الأمير في العقد الذي سبق حملة إبراهيم باشا، ثم سياسة المصادرة والتغريم والتشريد والنفي والتجنيد التي طبقها إبراهيم باشا على الدروز انتقاماً لثورتهم ضده في جبل حوران، أرهقت الدروز اقتصادياً وأضعفتهم سياسياً، وأحل بشير الشهابي مكانهم قوى جديدة من الطوائف الكاثوليكية بشكل عام والموارنة بشكل خاص. وفيما كانت طبقة العامة لدى هذه القوى الأخيرة تتقدم بشكل مضطرد على طريق البحبوحة والغنى والنفوذ السياسي في الإمارة الشهابية برعاية الكنيسة وتخطيطها، فإن عامة الدروز لم تستطع أن تستفد من تلك التحولات إسوة بعامة الموارنة. ذلك أن ارتباط الدروز العميق بالمقاطعجيين الدروز من جهة وعدم توفر مؤسسات دينية أو غير دينية من جهة ثانية قادرة على النهوض بتلك الفئة تركتها عرضة للانهيار أسوة بطبقة المقاطعجيين.

وفيما كانت الكنيسة المارونية ترسخ نفوذها السياسي بين عامة الموارنة، وتقضي بذلك تدريجياً على سلطة المقاطعجيين الموارنة، كان التحالف القائم بين الأمير بشير الثاني والشيخ بشير جنبلاط يقضي تدريجياً على نفوذ مختلف الأعيان في الإمارة، وبدأت تتمحور الزعامة الدرزية في يد الشيخ بشير، فضلاً عما بقي لهذا الأخير من سلطة ونفوذ على سائر رعايا المناطق التي كانت بحوزته، ونتيجة لهذا التحالف بين البشيرين، فإن الكنيسة لم تبد رغبتها في تأييد الأمير بشير، ولكن بعد أن وقع الخلاف بين البشيرين، كشفت الكنيسة المارونية عن استعدادها لدعم الأمير بشير، متوخية بذلك ملء الفراغ السياسي الناجم عن تضعضع سلطة المقاطعجيين الدروز. وبانتصار الأمير على الشيخ والقضاء عليه

والاقتصاص من محازبيه، كانت بمثابة ضربة للزعامة الدرزية في الإمارة، مما شرع الباب لدخول الأكليروس الماروني إلى قلب النظام السياسي في الإمارة الشهابية، فقد شدد الأمير بشير من قبضته على مختلف الأعيان، وفقد المؤيدون منهم للشيخ بشير جنبلاط ممتلكاتهم لتصبح بيد أولاد الأمير وأقربائه. وكان لا بد للأمير من أن يعتمد على قوة بديلة، فإذا بالكنيسة المارونية المتحررة من سلطة المقاطعجيين تصبح القوة البديلة وربما الوحيدة.

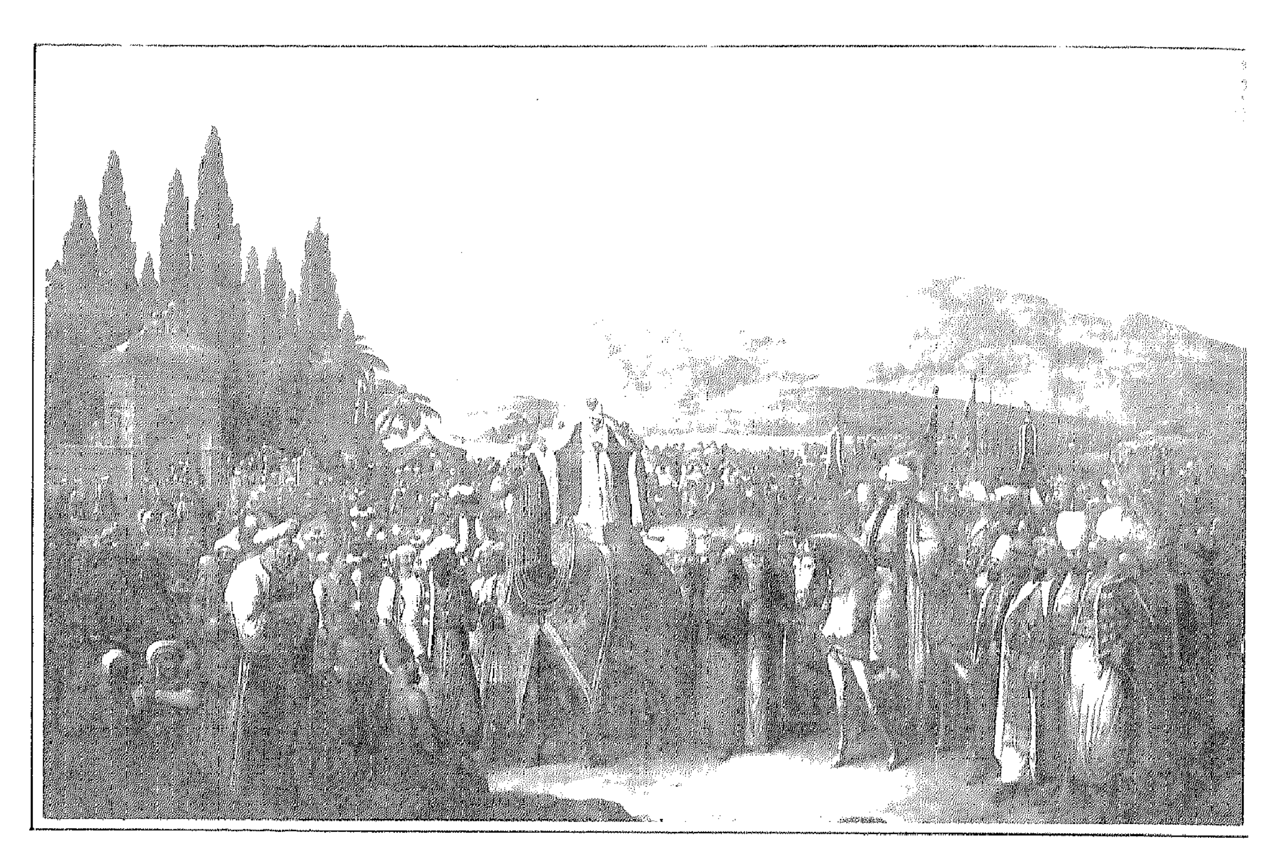
واستغلت الكنيسة بالتواطؤ مع الأمير بشير فرصة الضغط العسكري المصري على الدروز، وكذلك غياب زعماء الدروز في المنفى لتعزيز نفوذها السياسي في أوساط الموارنة ولا سيما في المناطق الدرزية، وعملت أولاً على تحطيم تلك العلاقات التي كانت قائمة بين الموارنة ومناصب الدروز خاصة السياسية والاجتماعية منها. وقد تمثلت هذه السياسة بإعداد قوات مارونية صرفة، لتحارب إلى جانب إبراهيم باشا الثائرين الدروز في وادي التيم، مما يعني أن سياسة الكنيسة المارونية هذه ساهمت عملياً في دفع تلك العلاقات من مرحلة التحالف العضوي إلى مرحلة الانفصال والخصام بين الدروز والموارنة. إلا أن هذا الفرز السياسي على أساس طائفي، لم يكن إلا خطوة تمهيدية اتخذتها الكنيسة نحو هدفها الأبعد في تحويل طابع الإمارة الشهابية اللاطائفي، إلى إمارة مارونية يحكمها أمير شهابي ماروني ولا يكون فيها للدروز أعيان تذكر.

ونجحت الكنيسة المارونية في قيادة الموارنة سواء أكانوا من العامة أم من المقاطعجيين، ونجحت بتقليص الفروقات الطبقية بين هؤلاء، كما نجحت من خلال ذلك بتفكيك تلك العلاقة (الطبقية) التي كانت قائمة بين الفلاحين الموارنة والمقاطعجيين الدروز من جهة، وبين المقاطعجيين الدروز والمقاطعجيين الموارنة من جهة ثانية، لقد نجحت عملية الفرز هذه على أساس طائفي، ودفعت الفلاحين الدروز إلى التحالف مع مقاطعجيي طائفتهم، وذلك كردة فعل دفاعية للوحدة التي أقامتها الكنيسة بين فلاحي ومقاطعجيي الموارنة. وأفرزت هذه التحالفات صراعاً سياسياً واجتماعياً من نوع جديد، هو الصراع الطائفي الذي كان أشد خطراً على مصير الإمارة من أي صراع مضى.

وفي مطلع عهد بشير الشهابي الثالث شعر المقاطعجيون الدروز أن الكنيسة المارونية تسعى فعلاً لإبعادهم عن مركز السلطة في الإمارة، وأن بشيراً الثالث متواطىء مع هذه السياسة، ولهذا سعوا إلى إجبار الأمير على التخلي عن الحكم أو إعادة سلطتهم ونفوذهم، لكن تحقيق أي من الغايتين لم يكن ممكناً إلا من خلال إقامة تحالف مع أقرانهم من النصارى، لكن البطريرك يوسف حبيش سارع إلى قطع هذه الطريق.

ووجدت القنصليات الأجنبية في هذا الانقسام السياسي الحاد فرصة للتدخل، فتنافست كل من فرنسا وبريطانيا وروسيا والنمسا للحصول على مركز نفوذ لها في المنطقة، عن طريق استغلال الانقسامات المذهبية والطائفية فيها. فقام الأب ريلو اليسوعي يستحث الموارنة الثورة على غرار اليونانيين وللمطالبة بوطن قومي لهم، في حين فشل القنصل البريطاني في محاولته إقامة علاقات وثيقة مع الأكليروس الماروني، فتقربت بريطانيا من بعض أعيان الدروز وتعهدت لهؤلاء باستعادة أملاكهم المغتصبة في عهد بشير الثاني، فيما تعهد أعيان الدروز بالمقابل بتسهيل مهمة المرسلين الإنجيليين في أنحاء الجبل.

وهكذا أتخذ الانقسام السياسي الحاد بين الدروز والموارنة طابعاً طائفياً، وقام التحريض الخارجي بدوره في تصلب المواقف وشحن النفوس بالحقد والبغضاء، حتى أصبح الصدام المسلح أمراً متوقعاً لإشعال نار الفتنة. فتأزم الوضع السياسي في العديد من المناطق، وصمم مناصب الدروز على التخلص من حكم بشير الثالث وإعادة حقوقهم وامتيازاتهم في الإمارة الشهابية، في حين ظل الموارنة بزعامة كنيستهم متمسكين بموقفهم المتصلب إزاء بقاء الحكم بيد امير شهابي ماروني، وقرروا عدم التراجع عن هدفهم في تسلم زمام السلطة في الجبل، كما رفضوا التنازل عن أية مكتسبات جديدة حصلوا عليها إبان حكم بشير الثاني. فانتشر جو الاضطراب والقلاقل في الجبل، ووقعت في أواخر عام ١٨٤١ عدة حوادث دامية بين الطرفين



□ الأمير بشير الشهابي الثاني، يقدم ولاءه لإبراهيم باشا.

اتخذت طابعاً طائفياً، واستغل الباب العالي العثماني هذا الوضع للتدخل ووضع حد لاستقلال الإمارة الداخلي كما كان في العهدين المعني والشهابي، فاستدعى بشير الثالث إلى بيروت وأمره بالذهاب إلى الآستانة، فكان هذا الحدث نهاية الحكم الشهابي في الجبل وبداية الحكم العثماني المباشر.

ومن خلال مراجعتنا لهذه الدراسة برزت لنا مجموعة من الملاحظات سوف نحاول أن نشير إليها في إطار خطين رئيسيين.

ــ الخط الأول ــ

إبراز النواحي الإيجابية والسلبية في هذه الدراسة

ــ يسجل الدكتور أبو صالح بأن دراسته هي الوحيدة في تاريخ لبنان الحديث التي رصدت سعي أمراء آل شهاب لتدمير الزعامات الدرزية، وإيجاد قوى محلية أخرى من الطوائف الكاثوليكية بشكل عام والموارنة بشكل خاص لتحل مكان الدروز. والدور الذي لعبته الكنيسة المارونية للتحرر من سلطة المقاطعجيين الموارنة، وتمكنها من قيادة الموارنة سواء أكانوا من العامة أم من المقاطعجيين، ونجاحها في تفكيك العلاقة الطبقية التي كانت بين الفلاحين الموارنة والمقاطعجيين الموارنة من جهة ثانية.

ــ توقف الباحث عند عدد من المحطات التاريخية وقدم لنا تحليلاً موضوعياً موثقاً.

ــ تناول الباحث فترة زمنية تغطي القرن والنصف القرن تقريباً، وكنا نفضل لو اقتصر بحثه على فترة زمنية أقصر، لكان تمكن من تقديم بحث ذي فائدة أعم وأشمل للمكتبة التاريخية.

ــ اعتمد بشكل رئيسي في جمع المادة التاريخية على حيدر الشهابي وطنوس الشدياق ومجموعة د. عادل إسماعيل، ولكنه لم يستخدم هذه المصادر استخداماً مفيداً، كما أهمل العديد من المصادر والمراجع، إلى جانب رسائل جامعية أخرى منشورة، رغم أنها وردت في قائمة المصادر والمراجع.

ــ أهمل د. أبو صالح تحديد التأريخ الزمني لكثير من الموضوعات التي تعرض لها، كما غاب التسلسل التاريخي لكثير من الأحداث التاريخية.

ــ الخط الثاني ــ
إبراز النقاط التاريخية التي نتفق أو نختلف مع د. أبو صالح حولها

نتفق مع الباحث بأن اقتتال عين دارة الذي جرى عام ١٧١١، إنما هو نتيجة صراع حزبي بين القيسية واليمنية، وليس وفقاً لما أشار إليه البعض عن رغبة أعيان الدروز تعيين أمير درزي بدلاً من الأمير حيدر الشهابي السني المذهب(٤). ذلك أن الإمارة الشهابية لم تشهد صراعاً درزياً سنياً، وإنما صراع حزبي قيسي ــ يمني، ثم تحول بعد القضاء على الحزب اليمني إلى صراع يزبكي ــ جنبلاطي.

نتفق مع الباحث أيضاً في أن الأمير يوسف الشهابي، كان أول أمير شهابي يعتنق المسيحية على المذهب الماروني، فمن يكون مربيه سعد الخوري الشخصية الأولى في الطائفة المارونية، والذي تربطه مراسلات ومودة مع الفاتيكان وملك فرنسا(٥) وصاحب السلطة الحقيقية في جبل الدروز معظم سنوات الربع الثالث من القرن الثامن عشر(٦)، من يكن لدى مربيه هذه الصفات لا يمكن أن يبقى على الدين الإسلامي، ومما يرجح هذا الرأي عندنا، رسالة بعث بها الأمير المذكور بتاريخ ٧ أيار ١٧٧٤ إلى ملك فرنسا لويس السادس عشر (١٧٧٤ ــ ١٧٩١) وجاء فيها:

«جبل لبنان كون لا يخل ولا محل من وجود المسيحية، واغلب المعاطاة بيدهم، ومعهم أيضاً جملة طوايف وملل وغيرهم من عباد الله، محسودين منهم نظر إلى ميلنا الأكثر إليهم، كوننا ممارسين المساعدة لهم في جميع الأمور...»(٧).

وإذا كنا نتفق مع د. أبو صالح في هذين الموضوعين، فإننا في الواقع نختلف معه في كثير من الموضوعات الواردة في مؤلفه، فلقد وقع في مجموعة من الأخطاء التاريخية، سوف نحاول أن نصححها له على ضوء المصادر التاريخية، بغية التماس حدود الكمال في هذه الدراسة، إذا فكر في إعادة نشرها مرة ثانية في المستقبل.

ــ لا أدري لما أطلق د. أبو صالح على الكتاب عنواناً «التاريخ السياسي للإمارة الشهابية في جبل لبنان من ١٦٩٧ ــ ١٨٤١»، علماً أن تعبير «جبل لبنان» كان يطلق على المقاطعات اللبنانية الشمالية (جبة بشري وجبيل والبترون)، ولم يستعمل العثمانيون هذا التعبير في مراسلاتهم السياسية مع أمراء الشهابيين، لأن الاسم لم يكن متداولاً إلا بين الموارنة، الذين لم يكن لهم كيان سياسي خلال الفتح العثماني، بعكس الدروز الذين عرف أمراؤهم كقادة سياسيين في غرب سوريا(٨). في حين أطلق اسم جبل الدروز أو جبل الشوف على البلاد التي تشكل نصف دائرة طرفها الأول شمالاً في جبيل والثاني في صيدا(٩). وعرفت بهذا الاسم على الصعيدين الشعبي والرسمي(١٠)، ومع ازدياد هجرة الموارنة من المقاطعات الشمالية إلى جبل الدروز، شاع منذ نهاية القرن الثامن عشر استعمال عبارة جبل لبنان(١١). أما رسائل التنصيب المرسلة إلى الأمراء الشهابيين، فكانت توجه إلى جبل الشوف أو جبل الدروز، وظل هذا الأسلوب سائداً حتى أواخر حكم الشهابيين سنة ١٨٤١، ففي تلك السنة، صدر فرمان إلى الأمير بشير الشهابي الثالث، بصفته أميراً على قبائل الدروز(١٢). ولذا كان يستحسن أن يطلق على الكتاب عنوان، التاريخ السياسي للإمارة الشهابية في جبل الدروز، طالما أن الدراسة بمجملها، تدور حول التاريخ السياسي لهذه المنطقة.

ــ **ورد في الصفحة (د)** من المقدمة أن د. عادل إسماعيل لم ينشر جميع الوثائق وإنما نشر بعضها مجتزأ، لا أدري لما لم يكلف المؤلف نفسه مشقة العودة إلى الوثائق الأصلية في مراكز تواجدها في باريس، بحيث يقوم بجمع المادة العلمية مما لم ينشر منها.

ــ **وفي موضوع الفتح العثماني** لبلاد الشام عام ١٥١٦ جاء في المقطع الثالث من ص ١٥ بأن الأمير فخرالدين المعني كان ضمن الأمراء المحليين الذين انحازوا إلى معسكر السلطان سليم العثماني إبان موقعة مرج دابق، لكن هناك دراسة للدكتور كمال الصليبي نشرت عام ١٩٧٣، يشير فيها إلى أن الأمير المذكور قد توفي في ربيع ثاني ٩١٢هـ (آب ــ أيلول) ١٥٠٦(١٣)، أي قبل عشر سنوات من معركة

مرج دابق، فنشير عليكم بالعودة إليها وتصحيح معلوماتكم في الطبعات القادمة.

ـ وفي موضوع الصراع على الانفراد بمنصب أمير جبل الدروز، الذي نشب بين الأميرين أحمد ومنصور، فقد ورد في ص ٨٤ أن الأمير يوسف وقف إلى جانب عمه الأمير أحمد. وأشار د. أبو صالح بأنه لا يعلم السبب الذي دفع الأمير يوسف إلى اتخاذ هذا الموقف، وبأن جل ما يعرفه أن موقفه هذا اضطره إلى ترك دير القمر عاصمة الإمارة الشهابية، وذلك عندما دخلها الأمير منصور لمحاربة أخيه الأمير أحمد.

ـ نميل إلى الاعتقاد بأن سبب وقوف الأمير يوسف إلى جانب عمه الأمير أحمد، إنما كان بسبب استياء الأمير يوسف من عمه الأمير منصور الذي كان قد وعد بتزويجه ابنته أسما، ثم عاد وأخلف في وعده وزوجها إلى الأمير قاسم عمر الشهابي رغبة في استمالته، لأن الأخير كان يسعى بمساعدة الأمير ملحم الشهابي إلى خلع عميه الأميرين أحمد ومنصور عن التزام جبل الدروز، وأشار إلى ذلك المؤرخ شيبان الخازن[١٤] بقوله.

«زوجه ابنته التي كان أعطى بها قول الأمير يوسف لأجل ضم الأمير قاسم...».

كما أن الأمير يوسف لم يغادر دير القمر مباشرة عند دخول الأمير منصور، وإنما غادرها بعد ذلك بوقت طويل، فالأمير منصور دخل دير القمر في شهر أيار ١٧٦٣، في حين فرَّ الأمير يوسف من الجبل في عام ١٧٦٤ حين أمن له الشيخ بشير جنبلاط حكم المقاطعات الشمالية[١٥].

ـ الفصل الرابع من الدراسة وعنوانها: «الأمير يوسف والولايات المجاورة» كانت معالجته سطحية للغاية، أعتقد لو أنك عدت إلى ما كتبه د. عبدالكريم[١٦] رافق ود. محمد[١٧] رفعت رمضان وأمنون[١٨] كوهين ولوزينيان[١٩] وادوارد لمكروي[٢٠]، لو عاد المؤلف إلى هؤلاء المؤرخين، لتوفرت لديه مادة علمية مكنته من معالجة الموضوع بصورة أفضل.

ـ وفي موضوع حملة ابو الذهب الثانية على بلاد الشام جاء في ص ١١٢، بأن الأمير يوسف خشي من شر أبي الذهب لأنه سبق للأمير أن سار إلى الشام لمحاربته يوم قدمها سنة ١٧٧٠.

ورد في هذه الفقرة خطآن تاريخيان، **الأول:** أن أبا الذهب لم يأت لاحتلال الشام عام ١٧٧٠، وإنما في عام ١٧٧١، حين تمكن من هزيمة والي دمشق عثمان باشا الكرجي في معركة داريا يوم الاثنين الواقع في ٩ صفر ١١٨٥/ ٧ حزيران ١٧٧١، وفي هذه الحملة كان ابو الذهب متمرداً على السلطة العثمانية، ينفذ أوامر سيده علي بك الكبير، وقد انسحب من دمشق يوم الثلاثاء ٥ ربيع أول ١١٨٥/ ١٨ حزيران ١٧٧١[٢١].

أما من حيث سير الأمير يوسف إلى بلاد الشام لمحاربة أبي الذهب فهذا لم يحصل بتاتاً، حتى ولو ذهب فإن أبا الذهب كان عاصياً أثناء هذه الحملة على السلطة العثمانية، في حين أنه كان في أثناء حملته الثانية منفذاً لأوامر السلطان العثماني، علماً بأن الأمير يوسف رفض تلبية استغاثة والي صيدا درويش بن عثمان باشا الكرجي، حين أشيع في الخامس والعشرين من أيار عام ١٧٧١ بأن قوات المماليك والعامليين سوف تقوم بمهاجمة المدينة[٢٢]. وبعد هزيمة عثمان باشا الكرجي في معركة داريا، فرَّ إلى حمص ووجه من هناك آغا اليرلية[٢٣] يوسف بن حبري إلى جبل الدروز، لاستنهاض الأمير يوسف لمساعدته، بجمع ما يستطيع من مقاتلي الجبل والقدوم عليه بسرعة لقتال أبي الذهب. لكن الأمير أخذ يتمهل في تعبئة انصاره منتظراً لمن سيكون الظفر في نهاية الصراع السياسي الدائر على السيادة في بلاد الشام. ولم يستطع حمل الدروز على مغادرة جبلهم والانضواء تحت لواء الجيش العثماني، لأنهم كانوا يأبون خوض غمار حرب تدور رحاها خارج بلادهم[٢٤].

ـ وفي موضوع حملة والي الشام لتدمير ضاهر العمر الوارد في الصفحة ١١٣ المقطع الثاني «لقتال والي عكا ـ أي ضاهر العمر ـ بعد حملة أبي الذهب حاول الأمير يوسف أن ينجد عثمان باشا بأربعين ألفاً من رجاله».

ورد هنا ثلاثة اخطاء تاريخية، **الأول:** أن عكا لم تكن مركز ولاية خلال هذه الفترة وإنما كانت تابعة لولاية صيدا، كما أن ضاهر العمر لم يكن

والياً وإنما مقاطعجي يلتزم الجباية للدولة العثمانية. **أما الثاني**: فهو أن الأمير يوسف لم يستطع إغاثة والي دمشق لأن عصبيات جبل الدروز كانت متنافرة فيما بينها، بعضها موال للأمير يوسف والبعض الآخر موالٍ للأمير منصور[٢٥]. **ثالثاً**: لا ادري كيف تصور د. أبو صالح أنه كان بإمكان الأمير يوسف أن يجمع أربعين ألف مقاتل، علماً أنه في تلك الفترة الزمنية قدر الرحالة فرنسوا[٢٦] فولني عدد سكان جبل الدروز بحوالي ١٢٠,٠٠٠ نسمة، فهل من المعقول أن يكون لدى الأمير يوسف ٤٠,٠٠٠ مقاتل؟

ــ وورد في ص ١١٦ المقطع الثاني، عن وفاة والي الشام عثمان باشا الكرجي وبأن خليفته كان يدعى عثمان باشا المصري.

ورد هنا خطآن تاريخيان:

أولاً: لم يتوف عثمان باشا الكرجي عام ١٧٧١، لكن الهزائم المتتالية التي مني بها على أيدي حزب المتمردين في بلاد الشام، دفعت السلطات العثمانية إلى إصدار فرمان بتاريخ ١٣ رجب ١١٨٥/ ٢٢ ت١ ١٧٧١، يقضي بنقله من ولاية دمشق إلى قونيه، وعينت بدلاً عنه محمد باشا العظم[٢٧].

ثانياً: لم يشغل عثمان باشا المصري منصب والي دمشق إنما عين بتاريخ ١٤ رمضان ١١٨٥هـ/ ٢١ك١ ١٧٧١ بمنصب «سر عسكر» عربستان، أي قائد الجيوش العثمانية في بلاد الشام. كما أسندت إليه في الوقت نفسه ولاية مصر، ولهذا السبب أطلق عليه لقب المصري، في حين يرد اسمه في بعض الحوليات باسم عثمان باشا الوكيل، لأنه كان وكيل السلطان أثناء التفاوض مع ضاهر العمر بشأن الصلح، ولم يعين هذا الباشا مطلقاً والياً على دمشق[٢٨].

ــ وفي موضوع العفو عن ضاهر العمر، ورد في المقطع الثاني من الصفحة ١١٩ بأن الأمير يوسف الشهابي هو الذي أوصى والي دمشق عثمان باشا طلب العفو من الباب العالي.

أولاً: سبق وأشرنا بأن عثمان باشا المصري لم يكن والياً على الشام.

ثانياً: لم يكن بإمكان الأمير يوسف أن يطلب من سلطات دمشق مساعدة الشيخ ضاهر العمر بالحصول على عفو له من الباب العالي، لأن تمنع السلطات المذكورة عن مساعدة الأمير على إنهاء تمرد الجزار في بيروت، اضطره إلى التعاون مع ضاهر العمر وحلفائه مشايخ جبل عامل في سبيل هذه الغاية، وبذلك أصبح الأمير يوسف حليفاً للمتمردين على السلطة العثمانية في بلاد الشام.

ثالثاً: تجمعت عوامل مشتركة لدى سلطات دمشق وضاهر العمر وحلفائه مشايخ جبل عامل، جعلتهم يميلون إلى ضرورة التوصل إلى حل للصراع الدموي الذي كانت تشهده بلاد الشام في ذلك الحين، فنجحت وساطة حاكم صور الشيخ قبلان وأحد أعيان دمشق يدعى حسين افندي، فتم التوصل إلى اتفاق بين عثمان باشا المصري (سر عسكر) عربستان ووكيل السلطان من جهة، وضاهر العمر ومشايخ جبل عامل من جهة أخرى، فأذيع في دمشق في ٢٩ ك٢ ١٧٧٤ بيان يعلن عفو السلطان العثماني عن ضاهر العمر[٢٩].

ــ وفي موضوع هزيمة والي الشام في البقاع، جاء في الصفحة ١٢٠ بأن حنق الوالي المذكور على الأمراء الشهابيين إنما كان بسبب نهب الأمير سيد أحمد ملحم الشهابي لقافلة تحمل بضائع إلى تجار دمشق، وتسويف الأمير يوسف كلما طالبه الوالي في إعادة المسروقات وتأديب ناهبيها، مما دفع الأخير إلى تجهيز حملة لتأديب الناهبين، فاستنجد الأمير يوسف بضاهر وحلفائه مشايخ جبل عامل الذين أنجدوه وتصدوا لحملة والي الشام في البقاع.

أشارت الوثائق الفرنسية المعاصرة إلى هذه الحادثة وأرّخت تطوراتها يومياً بخلاف ما ورد أعلاه، أن السبب الرئيسي للحملة هو فك الحصار البري والبحري الذي ضربه رجال الأمير يوسف والأسطول البروسي على الجزار المتمرد في مدينة بيروت، فأثار وصول هذه الحملة إلى البقاع خشية ضاهر العمر من أن تتابع زحفها إلى بيروت، وفي الثامن عشر من أيلول ١٧٧٣ توجهت إلى سهل البقاع قوة خيالة بقيادة علي ضاهر العمر والشيخ ناصيف النصّار لمواجهة القوات العثمانية. وفي يوم الثلاثين من أيلول أركنت القوات العثمانية إلى الفرار حين ترامى إلى مسامع الجند قدوم علي ضاهر العمر وناصيف



□ بيروت.

النصار، ولم يشترك الأمير يوسف في القتال المذكور لأنه كان يفرض حصاراً على بيروت. وهذه الهزيمة هي التي جعلت الجزار يفضل الاستسلام على يد ضاهر العمر(٣٠).

ــ وفي موضوع نهاية الشيخ ضاهر العمر ورد في ص ١٢٢ المقطع الثاني، بأن الأمير يوسف لم يمد يد المساعدة لا إلى ضاهر العمر ولا إلى قائد القوات العثمانية وبأن أياً منهما لم يستنجده.

تشير المصادر المعاصرة التي بحوزتنا بأن ضاهر العمر كان قد طلب من الأمير يوسف إمداده بقوات من عنده تمكنه من الصمود في وجه القوات المملوكية الزاحفة على عكا، فجمع الأمير يوسف أعيان جبل الدروز في حرش بيروت، وتدارس معهم الموقف الواجب اتخاذه، لكن سقوط يافا أشاع في صفوفهم الخوف، فاتفقوا على عدم نجدة الشيخ فاعتذر الأمير له(٣١). وأشار إلى ذلك المؤرخ مخايل الصباغ(٣٢) بقوله:

«ضاهر واتباعه محتارين كيف يعملوا والدروز ما سعفوه».

ــ جاء في الصفحة ١٣١ بأن الجزار استخدم الأموال التي نهبها من بيروت، للتقرب من سلطات الأستانة فأسندت إليه عام ١٧٧٦ ولاية صيدا.

تشير المصادر التي بحوزتنا إلى خلاف ذلك، فالجزار كان يشغل في عام ١٧٧٥ منصب (متصرف سنجق قرى حصار) فأصدر إليه الباب العالي أمراً بالاشتراك في الحملة البرية التي أرسلها الأخير كجزء من الحملة البحرية التي تعد لتدمير ضاهر العمر، ومنحه لقب (حامي الساحل السوري)(٣٣). وفي أواخر آب تمكن قائد الحملة القبطان العثماني من تدمير دولة ضاهر العمر(٣٤)، وعين محمد ملك باشا والياً على صيدا، وبوصول الجزار في ١٩ أيلول عينه القبطان محافظاً على عكا(٣٥). وفي ١٨ ك١ (يناير) ١٧٧٥ نقل محمد ملك باشا إلى ولاية مرعش، وصدر بعد ذلك بيومين فرمان عثماني

بتولية احمد باشا الجزار والياً على صيدا. وقد رقي إلى هذه الرتبة لكي يستطيع مد السلطة العثمانية إلى المنطقة الواقعة خلف عكا وأغلب الجليل، التي كانت لا تزال حتى ذلك الوقت تحت سيطرة أبناء ضاهر العمر[٣٦].

المعلومات الواردة في ص ١٣٢ مشوشة ومضطربة، ولا تتضمن تأريخاً دقيقاً للفترة الزمنية التي جرت فيها الأحداث التاريخية، وأشار المؤلف في الصفحة المذكورة بأن القبطان حسن باشا قد تلقى هدية ووعده بتخليصه من والي صيدا الجديد احمد باشا الجزار، دون أن نعلم بالتحديد متى حدثت هذه التطورات التاريخية. فقد قام القبطان المذكور بحملتين بحريتين على بلاد الشام، ففي عام ١٧٧٥ قدم إلى الساحل السوري حيث قام بتدمير دولة ضاهر العمر في عكا، وفي ٢٠ ايلول ١٧٧٥ غادر متوجهاً إلى قبرص ثم إلى استامبول[٣٧]. وفي اواخر حزيران (يونيه) ١٧٧٦ عاد القبطان إلى الساحل الشامي وللمرة الثانية بحجة إعادة السلطة العثمانية على كل بلاد الجليل وتدمير من تبقى من أبناء ضاهر العمر، الذين رغم تدمير دولة والدهم في عكا، كانوا لا يزالون يستقلون في مقاطعات بلاد الجليل رغماً عن أنف والي صيدا، في حين كان الهدف الحقيقي للقبطان نهب مدن الشاطىء الشامي. لذا لم يحدد د. أبو صالح في أي من الزيارتين قدم الأمير يوسف الهدية للقبطان؟ إن التطورات المذكورة في الصفحتين ١٣٢ و ١٣٣ إنما حدثت أثناء العودة الثانية للقبطان حسن باشا إلى الساحل السوري[٣٨]. ولكي تستقيم المعلومات الواردة في الصفحتين المذكورتين، يجب أن يكون المقطع الثالث في الصفحة ١٣٢ مكان المقطع الثاني.

— **وفي موضوع الخلاف** الذي وقع بين الأمير يوسف وخاله إسماعيل الشهابي حاكم حاصبيا، ورد في الصفحة ١٤٣ بأن الجزار أحال الإمارة الشهابية في جبل الدروز إلى الأميرين الشهابيين إسماعيل وسيد أحمد، وأمدهما بقوة عسكرية لمجابهة الأمير يوسف الذي استعد بدوره للقتال، وبأنه جرت بين الفريقين عدة مواقع كان النصر فيها حليف قوات الأمير يوسف.

لدى عودتي إلى المصادر المعاصرة لهذه الفترة التاريخية، وجدت أن تطور الأحداث كان بخلاف ذلك، فقد أشارت الوثائق الفرنسية بأنه لم يجر صدام مباشر في البداية، وإنما تقابلت القوتان وجهاً لوجه. فأثار ذلك استياء الجزار، فأبحر من عكا إلى بيروت في الرابع من أيار/مايو ١٧٧٤ بهدف زيادة حدة الانقسام الحاصل في الجبل[٣٩].

وخشي الأمير يوسف من عواقب اجتياح قوات الباشا لجبل الدروز، في وقت انكب فيه الفلاحون على جمع محصول الحرير وهو عماد اقتصادهم الوطني، فتظاهر برغبته الوصول إلى اتفاق مع الباشا، وأرسل وفداً لمقابلة الأخير والوقوف على شروطه، التي كانت ما يلي:

١ — أن يدفع الأمير يوسف مبلغ ٤٠٠ الف قرش كضرائب[٤٠].

٢ — أن يجمع الأمير سلاح محالفيه[٤١].

وفي هذه الأثناء استفاد الأمير يوسف من الوقت الذي استغرقته المفاوضات، فعبأ سراً مقاتليه وأمن الحراسة على الممرات الجبلية المؤدية إلى بلاد الشوف، وأعلن أنه في أمان تام ولا يوجد دراهم في الجبل، وإنما سلاح في خدمة الأمير[٤٢].

هذه التطورات هي التي أدت إلى حدوث المناوشات التي أشار إليها المؤلف في ص ١٤٣، حيث هزمت قوات الجزار في مواقع عديدة، مما دفع الأخير إلى فرض حصار اقتصادي على الجبل في شهر أيار عام ١٧٨٤، عله يستطيع أن يحقق عن طريق التجويع ما فشل في تحقيقه عن طريق القتال[٤٣]. ولم يكتف بذلك بل أنه جهز في الأول من حزيران/يونيه قوات لاجتياح الجبل وفرض إرادته بالقوة، لكن هذه القوات لم تكد تبتعد عن صيدا مقدار ساعة، حتى عادت وانسحبت في الأول من حزيران، بسبب نشوب اضطرابات في جبل عامل[٤٤]، وهذه الأحداث كلها لم ترد في مؤلف د. أبو صالح.

— **ورد في الصفحة ١٤٤** المقطع الثالث، بأن الأمير يوسف رفض عرض الأمير إسماعيل بأن يكون حاكماً على جبيل «استنكاراً منه واستصغاراً له».

— **كما ورد في ص ١٤٥** بأن الأميرين

إسماعيل وسيد أحمد فشلا في جمع المبالغ التي تعهدا بدفعها للجزار، وطلبا من الأخير قوة جديدة لإجبار الناس على الدفع، فوجد أن من الأفضل إعادة الأمير يوسف إلى الحكم، سوف نحاول أن نقوم للمؤلف هذه المعلومات ونضعها في مكانها الصحيح على الشكل التالي.

بتخلي عصبيات جبل الدروز عن مقاومة حكم الأميرين إسماعيل وسيد أحمد، انتقلا إلى دير القمر وأنعم عليهما الجزار بخلع التزام مقاطعات جبل الدروز، مقابل تعهدهما بدفع مبلغ مقداره ألف وثلاثماية كيس أي ٦٥٠ ألف قرش[٤٥]. وليس مقابل ثلاثماية ألف قرش كما ورد في ص ١١٢ من الكتاب. ولكن حين حاول الأميران إسماعيل وسيد أحمد فرض ضرائب مستحدثة على السكان لتأدية المبلغ الذي تعهدا بدفعه للجزار، مقابل تعيينهما من قبله بصفة حاكمين على جبل الدروز، رفض أعيان الجبل ـــ الذين وقع عليهم عبء هذه الضرائب ـــ الاستجابة لقرار الأميرين، وامتنعوا عن دفع أي قرش زيادة عما هو على مقاطعاتهم[٤٦]، فاستنجد الأمير إسماعيل بالجزار وطلب منه أن يزوده بإمدادات عسكرية، معللاً تمرد الجبل إلى تحريض الأمير يوسف[٤٧].

بالفعل استجاب الباشا لطلب حليفيه، فوجه في العاشر من أيلول/سبتمبر قوات إلى بيروت، قامت باجتياح بلاد جبيل والبترون وعين عليها الجزار الأمير سيد أحمد حاكماً من قبله، رغم أن في ذلك تعدياً على صلاحيات والي طرابلس، لأن المقاطعات المذكورة تقع ضمن حدود ولايته[٤٨]، وهنا عرض الأمير إسماعيل على الأمير يوسف أن يكون حاكماً على نواحي مقاطعة جبيل من قبله[٤٩]. لكن حدوث تطورات في عكا دفعت الجزار إلى العودة إليها من بيروت في ١٣ تشرين الأول/أكتوبر، فجهز والي طرابلس قوات من عنده وحرر بلاد جبيل والبترون التي اقتطعها الجزار غصباً من ولاية طرابلس، ودعا الأمير يوسف إلى حكمها كمتسلم من قبله[٥٠].

وشعر الجزار بضعف موقف الأميرين إسماعيل وسيد أحمد، وبأنهما لن يتمكنا من دفع الأموال التي تعهدا بدفعها له، بعد التكاليف الباهظة التي أنفقها مقابل تثبيت حكمهما بالقوة، فاستجاب لما أشار عليه مستشاره السكروج بإعادة تلزيم جبل الدروز إلى الأمير يوسف الشهابي[٥١].

ـــ **وجاء في الصفحة ١٤٦** بأن الجزار خلع على الأمير يوسف منصب الولاية، بعد أن تعهد بدفع ألف قرش (أي كيسين) خلال ثلاثة أشهر. وهنا أيضاً وردت لدى المؤلف ثلاثة أخطاء تاريخية.

لم يكن الأمير يوسف والياً لكي يخلع عليه الجزار الولاية، وإنما كان ملتزم جباية لوالي صيدا، ولذا فإن الاتفاق بين الأمير والأخير إنما كان على أن يمنح الأمير يوسف التزام جبل الدروز بالاضافة إلى التزام حاصبيا ومرجعيون مقابل ما يلي:

(أ) يتعهد الأمير بأن يدفع للباشا مقابل التزام البلاد المذكورة مبلغاً مقداره ألف كيس سنوياً.

(ب) يتعهد الأمير بأن يدفع بدل الالتزام الذي كان في عهدة الأميرين إسماعيل وسيد أحمد والبالغ قيمته ألف وثلاثماية كيس.

(ج) تقسط الأموال على دفعات مؤلفة من خمسمئة كيس كل ثلاثة أشهر[٥٢].

ـــ **وفي موضوع نكبة النكديين** جاء في الصفحة ١٦٨ «كان مشايخ النكديين آنذاك من أشد معارضي الأمير بشير ومن منافسي كلا الحزبين اليزبكي والجنبلاطي فاستغل الأمير بشير هذا التنافس لتدبير مؤامرة لهلاك النكديين». ولكن لدى مراجعتنا لبعض المصادر المحلية وجدنا أن تخلص الأمير بشير من مشايخ آل نكد إنما تم بالاتفاق مع الشيخ بشير جنبلاط وللأسباب التالية:

(أ) تجريد أبناء الأمير يوسف الشهابي، الذين كانوا يزاحمون الأمير بشير على السلطة في جبل الدروز، من أقوى حلفائهم.

(ب) تدعيم سلطة الأمير بشير في جبل الدروز عامة وفي دير القمر خاصة، فبالرغم من أن دير القمر كانت عاصمة الجبل ومقر إقامة الأمير الحاكم الذي كان يقيم في سرايتها، بحيث كان يتوجب عليه أن يكون صاحب السلطة المطلقة فيها دون منازع، ولكن الواقع كان بخلاف ذلك، فالمدينة أيضاً كانت عاصمة مقاطعة المناصف التي هي في الواقع إقطاعاً لآل نكد، ولذا

فقد كانوا هم أصحاب السلطة الحقيقية فيها، إلى حد أن سلطة الأمير الحاكم لم تكن تتجاوز حدود سرايته. وأشار إلى ذلك المؤرخ المعاصر مخايل مشاقة[٥٣] بقوله: «لو أذنب إنسان في باب سراي الأمير وهرب لقاطع مجرى مياه الشالوط الفاصل بين السرايا وبيوت المشايخ، فلا يسمح لاتباع الأمير بلحوقه (مطاردته) لقاطع الماء ومسكه».

— **وفي موضوع «معركة أرض القفل»** التي جرت عام ١٨٠٠، فقد ورد في ص ١٨٣ بأن هزيمة ولدي الأمير يوسف الشهابي ومدبريهما جرجس وعبدالأحد باز أمام الأمير بشير في معركة ارض القفل، جعلهم يعجزون عن مجابهة إجماع عصبيات جبل الدروز حول الأمير بشير، فقرروا اللجوء إلى الصلح بدلاً من القتال بسيف الجزار فارتضوا لأنفسهم حكم منطقة جبيل. ولكن نميل إلى الاعتقاد بأنه كان هنالك شعور مشترك بين فريقي الأمير يوسف والأمير بشير بضرورة التوصل إلى حل سلمي، ويعود ذلك للأسباب التالية:

١ — فالشيخ جرجس باز الذي كان مع شقيقه عبدالأحد يعملان في الظاهر كمدبرين — أي كمستشارين — لأبناء الأمير يوسف، في حين كانا في الواقع المتصرفين والمخططين الموجهين لهؤلاء الأمراء، شعرا أنه لم يعد بإمكانهما القتال بعد أن تخلى عن مناصرتهما أعيان الحزب اليزبكي وتسرب كل أمل بإمكانية إعادتهم إلى صفوفهم، بعد مقتل زعيم الحزب الشيخ جهجاه العماد.

٢ — لم يعد بإمكان الأمير بشير الاستمرار في القتال، فقد دب الذعر والخوف بين مقاتليه من سكان جبل الدروز عامة والمتن خاصة، ولم يعودوا راغبين في القتال، فالمناوشات التي استمرت ما يقارب الشهر، قد أدت إلى تدمير قرى الساحل ومحاصيلها، ولم يعد بإمكان مقاتلي الجبل الاستمرار في القتال، فهم ليسوا سوى فلاحين لا يمكنهم ترك المواسم الزراعية وإلا تعرضوا للفناء، بعد أن أحرق جند الجزار محصول الحرير في قرى السفوح الجبلية التي توغلوا فيها، ففضلوا الاهتمام بأمورهم المعيشية[٥٤].

شعر جرجس باز بأن استمرار القتال سوف يكلفه مبالغ باهظة كرواتب وطعام وأعلاف للجند الذي يرافقه، وسوف تزداد حدة الأزمة الاقتصادية التي يعاني منها السكان، نظراً لما سوف تقوم به هذه القوات من تخريب وتدمير ونهب حيثما مرت.

أدرك جرجس باز أن تثبيت مواليه بالقوة، سوف يجعله مضطراً لتلبية طلبات الجزار المالية الدائمة وإشباع نهمه، وهو أمر غير ممكن تأمينه دون العودة إلى سياسة فرض الضرائب، وما سوف ينجم عنها من عصيان وتمرد وخراب البلاد، ورحيل الفلاحين والتجار إلى مناطق أخرى تتمتع باستقرار أمني أفضل[٥].

— **وفي موضوع حكم الأمير عباس الشهابي** الوارد في ص ١٨٤ جاء بأن اقتسام حكم الامارة الشهابية بين الأمير بشير وأبناء الأمير يوسف لم يحظ برضى الجزار عام ١٨٠١، فاستغل آل العماد رفض أحمد باشا الجزار تجديد التزام جبل الدروز للأمير بشير في السنة التالية، فشجعوا الأمير عباس الشهابي على المطالبة بحكم الجبل ووافقهم الجزار على ذلك.

تشير المصادر المعاصرة للفترة موضوع البحث بأن الأزمة الداخلية التي شهدتها الإمارة الشهابية، لم تكن وفقاً لما أشار إليه د. عباس أبو صالح ولكنها للأسباب التالية:

بعد أن تم تصفية الخلافات بين زعماء جبل الدروز، نتيجة الاتفاق الذي أدى إلى اقتسام الامارة الشهابية، والذي يقضي بجعل أبناء الأمير يوسف الشهابي حكاماً على نواحي مقاطعة جبيل والأمير بشير حاكماً على مقاطعات جبل الدروز، صار من الضروري تصفية ذيول الأحداث السابقة، فطالب آل نكد بإعادة أملاكهم التي ضبطت عام ١٧٩٦ بعد النكبة التي حلت بهم، فتخلى أمراء آل شهاب ومشايخ آل جنبلاط عن تلك التي كانت قد دخلت في حوزتهم، في حين رفض الاستجابة لذلك مشايخ آل عماد وصدوا كل توسط في هذا السبيل، مرددين: «هذه الأملاك من جملة أملاكنا وفي تصريفنا ولا يمكن أن نردها»[٥٦].

وإزاء عجز الأمير عن استخلاص ممتلكات آل نكد بالقوة، باشروا في الإعداد للعصيان وتأمين أمير شهابي يقبل بأن تكون حركة

العصيان باسمه، فاستطاعوا استقطاب الأميرين قعدان وسيد أحمد ووعدوهما بأن تكون حركة الدعوة لمنصب أمير جبل الدروز باسمهما[٥٧].

ولم يكن بإمكان القوى الموجهة ضد مصالحها هذا التحرك أن تتغاضى عنه، فقام آل عماد بتشجيع الأمير قاسم الشهابي، الذي تربطه صداقة ومودة بالجزار، بأن يسعى لدى الأخير لمنحه حكم الجبل، وبالفعل استجاب الجزار لسعي صديقه الأمير عباس فمنحه التزام حكم جبل الدروز في

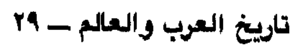


□ في خلف اسوار مدينة عكا قذف نابليون بونابرت قبعته، وعاد ادراجه عاجزاً عن احتلالها.

آب ١٨٠١[٥٨].

ــ في موضوع عودة الأمير بشير إلى الحكم ورد في ص ١٨٨ بأن الأمير بشير استطاع استرضاء الجزار مقابل مبلغ أربعماية الف قرش. لا أدري ما هي الأسباب التي جعلت المؤلف يعتمد فقط على طنوس الشدياق دون غيره من الحوليات التي لم تتفق على مقدار المبلغ، كما ورد في مجموعة د. عادل إسماعيل[٥٩] شروحاً أخرى في غاية الأهمية لم يشر إليها، وتقضي بسلخ إقليمي جزين وبرجا عن التزام جبل الدروز، وفي ذلك إضرار بالشيخ بشير جنبلاط السيد على هذه المقاطعات.

ــ في موضوع موت الجزار الوارد في ص ١٨٨ أشار المؤلف بأن الجزار قد توفي فجأة دون أن يشير أيضاً إلى السنة. إن الجزار



لم يمت فجاة ولكنه أصيب بمرض الاستسقاء وعاني منه لمدة عدة أشهر، وكانت سلطات الآستانة على علم بمرضه، ولكنها لم تكن تجرؤ على القيام بأي تحرك قبل معرفة مصير خزنته التي كانت تنتظرها بفارغ الصبر. فأرسلت إلى إبراهيم باشا ــ والي حلب ــ فرمان بولايتي صيدا ودمشق، وزودته بأوامر بعدم إذاعة الفرمان إلا بعد التأكد من وفاة الجزار[٦٠] التي حدثت في الأسبوع الأول من أيار سنة ١٨٠٤[٦١].

ــ **وفي موضوع الثار من والي الشام الكنج** يوسف عام ١٨١٠ الوارد في الصفحتين ٢٠٣ و ٢٠٤، جاء بأن الباشا استغاث بوالي صيدا سليمان باشا أن ينجده بعساكر لصد قوات الوهابيين، وبأن الكنج عند وصوله إلى حوران أطلق نيران مدافعه إرهاباً فتراجع الوهابيون لقلة عددهم إلى حدود العامرية. وفي حوزتي وثيقة مؤرخة في ١٤/٧/١٨١٠ تشير بأن الباب العالي كان قد طلب من والي حلب تزويده بقوات من عنده تحتاج إليها الاستانة في حربها مع روسيا مما دفع إنكشارية حلب الذين لم يكونوا راغبين بالتوجه إلى معسكر الوزير إلى رشوة قبائل عربية من أجل تهديد دمشق[٦٢].

ــ **في موضوع عامية انطلياس** جاء في الصفحتين ٢٠٨ و ٢٠٩ بأن الأمير بشير فضل أن يدفع إلى عبدالله باشا ألفي كيس، خشية أن يشجع الأخير معارضي الأمير بالعودة إلى السلطة، وبأن الدروز نجحوا في رفع الضريبة عن كاهلهم فوقع عبؤها على النصارى، فدعا النصارى إلى اجتماع في انطلياس وبأن الدروز اتفقوا معهم على أن يكونوا معاً يداً واحدة.

إن تطورات عامية انطلياس كانت على الشكل التالي: الشيخ بشير جنبلاط هو الذي أقنع الأمير بشير بدفع المبلغ تجنباً لتوغل قوات الباشا في جبل الدروز[٦٣]، وقد تم الاتفاق مع الأخير على الشكل التالي:

١ ــ أن يدفع الأمير بشير مبلغاً مقداره ألفي كيس تكاليف الميري[٦٤].

٢ ــ نزع أقاليم الخروب وجزين وجبل الريحان عن التزام جبل الدروز. وهي مقاطعات تابعة لسلطة الشيخ بشير جنبلاط.

ولم تجب الضريبة من كل نصارى البلاد، وإنما فقط من نصارى المقاطعات ذات الأغلبية النصرانية، لأنها لم يكن لها قيادات نافذة قادرة على التصدي لهذه السياسة الضرائبية. أما نصارى المقاطعات التابعة لسلطة الشيخ بشير جنبلاط، فلم يدفعوا الضريبة لأن الأخير أمن لهم الحماية التي أمنها لكل دروز البلاد[٦٥].

ــ **أما قضية اتفاق الدروز مع النصارى في دير مار الياس في انطلياس،** فقد تمت على الشكل التالي، فبعد تخلي الأمير بشير عن التزام جبل الدروز في ٢٨ آذار سنة ١٨٢١، حينها عبدالله باشا خلع الالتزام إلى الأميرين الشهابيين حسن وسلمان[٦٦]، في وقت اشتد فيه نفوذ النصارى في الجبل نتيجة مساعدة عبدالله باشا لهم، إلى حد أنهم اشترطوا على الأميرين الحاكمين مقابل الاعتراف بسلطتهما، أن يوقعا على سند بأن لا يطلبا في المستقبل أية ضرائب غير اعتيادية[٦٧]. لكن عبدالله باشا ما لبث أن تخلى عن سياسة التسامح للحركة الشعبية التي أوصلت الأميرين، وباشر بمضايقة السكان فانتزع إقليم التفاح من التزام جبل الدروز، وطالب بأن يدفع له السكان كل الضرائب التي سبق ودفعوها في تلك السنة[٦٨]. مما أثار استياء النصارى فعقد وكلاء العامة خلال الفترة الممتدة بين ٢٦ و ٢٩ نيسان عام ١٨٢١، اجتماعات متعددة في أديرة الرهبان في مار انطلياس والقديس أنطون في ميفوق، وتم الاتفاق على تأكيد ما سبق وأعلنوه في اجتماع وكلاء العامة الذي عقد في انطلياس في شهر آذار، بالامتناع عن دفع أية ضرائب زيادة عن التي اعتادوا دفعها[٦٩].

وأثار هذا التحرك خشية زعماء الحزب اليزبكي من حدوث انقسام في الجبهة الواحدة، التي طردت بشيراً وأمنت عودتهم المظفرة، وأن يتطرف زعماء النصارى فيتخذوا قرارات، تلغي الامتيازات التي يتمتع بها «المناصب» منذ القدم، وما قد يؤدي إليه ذلك من أخطار تهدد مصائر «مناصب» الدروز إذا انعكس صدى هذه القرارات بين رعاياهم في المقاطعات الدرزية والمختلطة. وتجنباً لذلك انتقل في الأول من أيار الشيخ علي العماد سراً إلى ميفوق، واجتمع مع قادة النصارى المجتمعين هناك، ثم عاد إلى

دير القمر، وأشارت «الوثائق الدبلوماسية»[٧٠]، إلى ذلك بقولها.

«شكل قضية واحدة مع النصارى المجتمعين هناك».

— **وفي موضوع عامية انطلياس** أثار الدكتور أبو صالح في المقطع الثاني من ص ٢٠٩ نقلاً عن وثيقة نشرتها مجلة أوراق لبنانية، أن الدروز اتفقوا في انطلياس مع النصارى على أن لا يؤدوا إلا «مال الأصل السلطاني المرتب منذ عهد الأمير حيدر الشهابي»[٧١]. هذا الاتفاق تم التوصل إليه في حزيران وليس في أثناء الاجتماع الأول الذي عقده وكلاء عامية النصارى في انطلياس في شهر آذار، أما سبب عقد اجتماع حزيران فهو عجز الأميرين الحاكمين حسن وسلمان عن إدارة حكم جبل الدروز نظراً لعدم تمكنهما من تأمين المبالغ التي تعهدا بدفعها لعبدالله باشا، فوجدا بالاتفاق مع زعماء الحزب اليزبكي، أن الوصول إلى اتفاق مع أخصامهم زعماء الحزب الجنبلاطي، ينقذ البلاد من سياسة الباشا الضرائبية، كما أن الأفكار التي نادت بها الحركة الشعبية بعدم دفع ضرائب غير اعتيادية قد امتد تأثيرها على المقاطعات الدرزية والنصرانية على حد سواء واتفق الجميع على عدم دفعها[٧٢]. ولذا نشط مشايخ عقل الدروز فدعوا إلى الاجتماع المذكور[٧٣]، وفي حزيران عقد في جزين اجتماع عام حضره معظم زعماء الجبل، وجرت مصالحة عامة تمت خلالها تصفية الأجواء السابقة، والتمس المجتمعون من الأمير بشير العودة إلى حكم جبل الدروز[٧٤]. وقد رصدت «الوثائق الدبلوماسية»[٧٥] الاجتماع المذكور وجاء في تقرير مؤرخ في ٢٣ حزيران سنة ١٨٢١:

«منذ عدة أيام وصل إلى جزين مشايخ عقل الدروز والأمير بشير أبي اللمع حاكم صليما وكذلك أعيان الجبل، وقدموا الولاء والطاعة للأمير بشير وسعوا لمصالحته».

— **وبالنسبة للاتفاقية موضوع البحث**، لا يعتقد المؤلف معي بأنها تستحق من الباحث وقفة طويلة عندها وشرح مضامينها، وعدم الاكتفاء بنقل عبارة واحدة منها. فقد تضمنت نظرة مستقبلية لكيفية إدارة البلاد، من حيث مقاومة الظلم، والنظر في القضايا القضائية والضرائب، وبأن كل من يقوم من «أكابر البلاد» بالتعدي على أملاك الآخرين وأرزاقهم دون حق يتبرأ منه الجميع، وحصر التعرض في الأمور الروحية بأيدي رجال الدين، وهذه كلها أفكار جديدة في حياة الجبل السياسية[٧٦].

ولا نزال في موضوع عامية أنطلياس، فقد جاء في المقطع الثاني من ص ٢١١، بأن الأمير بشير اعتذر عن دفع الضرائب فوجه الباشا خلع الالتزام للأميرين حسن وسلمان وبأنه كافأ زعيم المعارضة علي العماد وعلي تلحوق بتولي مقاطعة جبيل باستثناء المدينة.

بالعودة إلى ج ٣ ص ١٦١ من مجموعة «Documents Diplomatiques» التي ينشرها تباعاً د. عادل إسماعيل والتي اقتبس منها د. أبو صالح معلوماته، فلم أجد أثراً للمكافأة المذكورة، وإنما عن ذهاب الشيخين المذكورين في ٢٠ أيار ١٨٢١ إلى عكا برفقة متسلم طرابلس علي بك الأسعد (المرعبي) تلبية لنداء الباشا الذي استدعاهم للاتفاق معهم حول وسائل تغريم سكان جبل الدروز ونواحي مقاطعة جبيل ضرائب جديدة تزيد عن المتوجبة عليهم، وبأنهم تداولوا معاً في الموضوع وتم الاتفاق على ما يلي:

١ — أن يدفعوا للباشا ألف كيس في يوم العاشر من حزيران وألفاً أخرى في نهاية الشهر نفسه.

٢ — أقنعوه مقابل دفع ألف ثالثة بأن يتخلى للأميرين عن مقاطعة جبيل، باستثناء المدينة التي أبقى عليها متسلماً من قبله.

ومما ينبغي الإشارة إليه بأن الشرطين المذكورين لم يتم التوصل إليهما، فور تلقي الأميرين جبل الدروز وفقاً لما أشار إليه د. أبو صالح، وإنما بعد مرور ما يقارب الشهر على تلقيهما الالتزام المذكور، وحلول موعد التجديد عن سنة جديدة، حيث تم الاتفاق على الشرطين المذكورين مقابل التجديد.

وعند معالجة د. أبو صالح **لموضوع عامية لحفد**، جاء في المقطع الثالث من ص ٢١٣: «أما في عامية لحفد فقد رفض سكان منطقة جبيل تأدية الأموال الأميرية إلى الأمير قاسم ابن الأمير بشير». كنا نتمنى لو أفادنا المؤلف ما هي

الأسباب التي جعلت الأمير بشير يفرض ضرائب؟ ولماذا حصرها في المتن وكسروان دون باقي المقاطعات؟ وما الدور الذي لعبه زعماء تلك البلاد أثناء العامية؟ بدلاً من هذا السرد التاريخي السريع.

ولا نزال في موضوع **عامية لحفد** فقد جاء في المقطع الثاني من ص ٢١٤ عن مفاوضات بين وكلاء العامة والأمير بشير، وبأن الوكلاء اشترطوا أن لا يدفعوا سوى مال واحد وجزية واحدة، وأن من يوليه الأمير بشير عليهم يجب أن يكون من بلادهم، فرفض الأمير طلب العامة وعزم على إخضاعهم.

تشير المصادر المعاصرة بأن الأمير بشير رفض الشرط الأخير ووافق على الشرط الأول، وأبلغ الوكلاء بأنه يتعهد بعدم إرسال المحصلين لجمع الضرائب، بل أن يقوم الوكلاء بأنفسهم بهذه المهمة[٧٧]، كما لم يشر المؤلف في تأريخه لعامية لحفد إلى الدور الذي لعبه المتاولة في هذه العامية؟

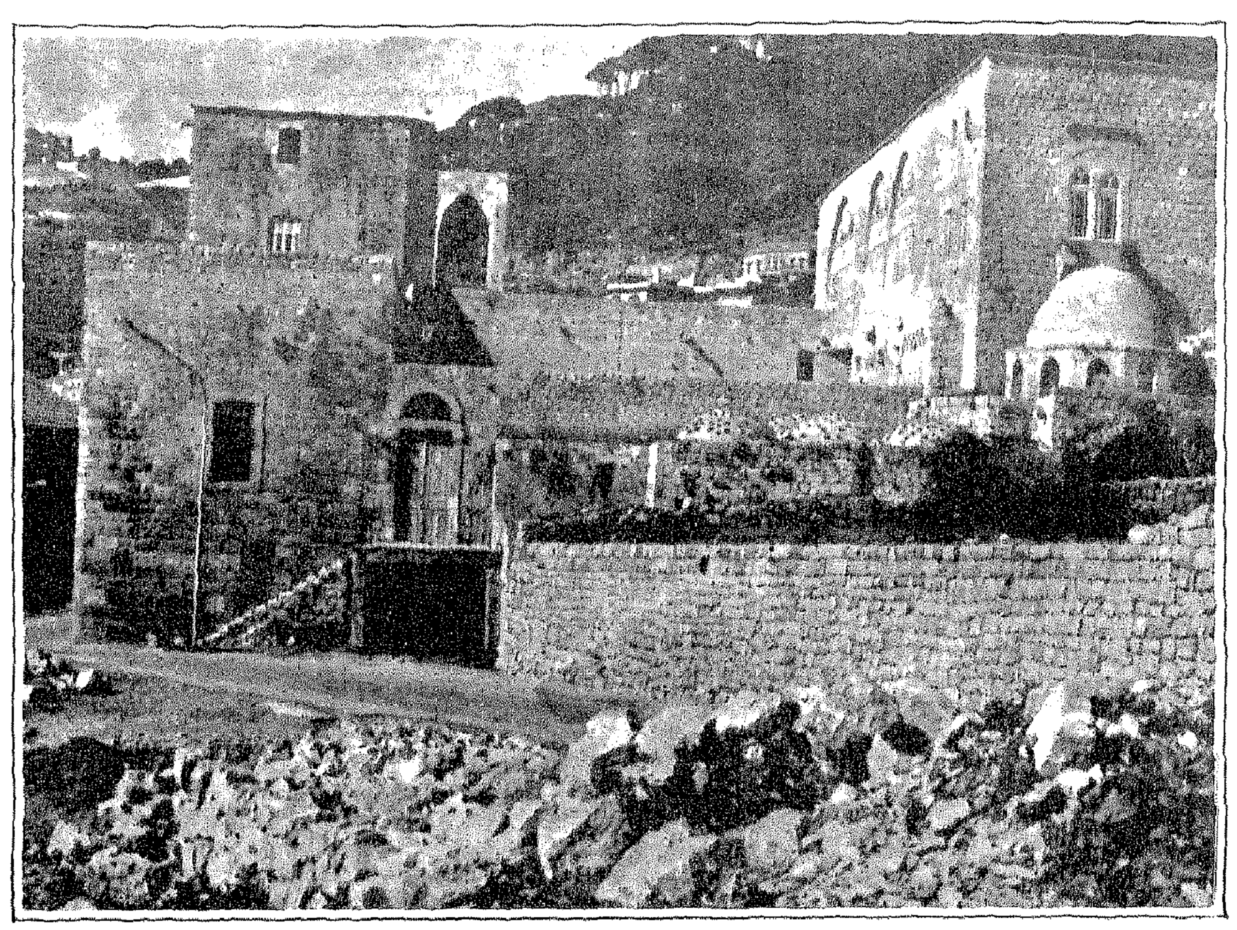
ــ وفي موضوع الصراع بين درويش باشا والي الشام وعبدالله باشا والي صيدا، فقد جاء في ص ٢١٥ بأن هذا الصراع أنما كان بسبب طمع كل منهما بولاية الآخر. ولكن المصادر التاريخية تشير إلى خلاف ذلك، وبأن السبب الرئيسي لهذا الخلاف إنما كان بسبب رغبة صرافي ولاية دمشق المعلمين سلمون ورفائيل شحادة فارحي وابن عمهما حزقيال صراف الباب العالي، الانتقام من عبدالله باشا بسبب قتله صرافه المعلم حاييم شحادة فارحي، فحرضوا والي دمشق على زميله عبدالله باشا في عكا[٧٨].

ولا نزال في موضوع الصراع بين عبدالله باشا ودرويش باشا فقد ورد في ص ٢١٦ عن تحرش والي الشام درويش باشا بالأمير بشير دون أن يشير د. أبو صالح إلى الأسباب؟ وهي حاجة درويش باشا إلى قوى محلية نافذة في المنطقة تقف إلى جانبه في صراعه مع والي صيدا، فعرض على الأمير بشير أن يتعاون معه على رأس مقاتلي جبل الدروز الأشداد، لكن الأمير بشير رغم الإغراءات الشديدة التي قدمها والي الشام رفض العرض ووقف إلى جانب والي صيدا عبدالله باشا[٧٩].

ولا نزال في موضوع الخلاف بين والي الشام ووالي صيدا، فقد جاء في الصفحتين ٢١٦ و ٢١٧ بأن الباشا الأخير أشار على الأمير بشير أن يقبل الدخول في مفاوضات مع والي الشام، وبأنه عاد وطلب من الأمير رفض عرض درويش باشا. دون أن يذكر أسباب الرفض، وهي اكتشاف عبدالله باشا لمؤامرة سرية تعدها سلطات الآستانة لتجريده من ثروته وتحريض كبار ضباطه للتآمر عليه[٨٠].

وأيضاً في موضوع الخلاف بين والي الشام درويش باشا ووالي صيدا عبدالله باشا، فقد جاء في الصفحة ٢١٩ أن درويش باشا كتب إلى الأمير بشير ينبئه بتوجيه ولاية صيدا إلى عهدته، وعن استعداده لتلبية جميع مطالبه مقابل تخليه عن عبدالله باشا، ولدى إرسال الأمير الجواب إلى الباشا الأخير، كان جوابه بأن يجمع الأمير عسكراً من بلاده، ويسير به لقتال درويش باشا، وبأنه وقع الكتاب هذا «عبدالله والي الشام وصيدا ويافا وطرابلس»، وفقاً لما ورد يتبين لنا بأن كلا من عبدالله باشا ودرويش باشا كان يحمل فرماناً بولاية صيدا، وبذلك صار الأمير بشير من الناحية الشرعية خاضعاً لسلطة الواليين المذكورين، فما الذي جعله يقف إلى جانب عبدالله باشا ويتخلى عن عرض درويش باشا؟ ولماذا لم يقف على الحياد في هذا الصراع؟ وكيف يمكن لعشائر جبل الدروز أن تنساق لإرادته دون أن تتحقق من شرعية الجهة التي يحاربون إلى جانبها؟ وهي تساؤلات لم يجب عليها د. أبو صالح، ولكن سوف نحاول أن نزيل هذا الابهام.

تشير المصادر التاريخية المعاصرة بأن عبدالله باشا حين علم بإحالة ولاية صيدا إلى درويش باشا، أبى أن يستسلم بعد الانتصارات التي أحرزها، لأن في ذلك مصادرة أمواله وإرسال رأسه إلى الآستانة كما جرت العادة في هكذا حالات، فقرر الاستمرار في العصيان اعتماداً على مناعة[٨١] عكا، ومحالفة عشائر جبل الدروز[٨٢] وبلاد[٨٣] عاملة، على أمل أن يتمكن مع الوقت عن طريق الرشوة ونفوذ أصدقائه في الآستانة من استصدار عفو عن جرائمه. لكنه خشي من عصيان حلفائه الدروز والعامليين في حال



□ قصر جرجس باز في الجهة الشرقية مع الحمّام الشرقي التابع له.

معرفتهم بأنه صار في نظر السلطات العثمانية عاصياً، فسعى أن يضفي على نفسه الصبغة الشرعية ويظهر درويش باشا بمظهر المتمرد على السلطة العثمانية، فاستفاد من إجادته تقليد الخطوط ومعرفته بأسلوب كتابات الدولة من خلال إقامته الطويلة في ديوان ولاية صيداء فزور فرماناً صادراً عن الباب العالي بعزل درويش باشا عن ولاية دمشق، وتوجيه الولاية المذكورة بالإضافة إلى ولايتي صيدا ودمشق إلى عهدته(٨٤).

ونستمر في موضوع الصراع بين والي الشام ووالي صيدا، فقد أشار المؤلف في الصفحة ٢٢٠ إلى هزيمة درويش باشا في معركة المزة على يد رجال الأمير بشير وعبدالله باشا، ولكنه تجاهل موقف الحزب اليزبكي من الاقتتال المذكور، والدور الذي لعبه، والمؤامرة التي أعدها زعماء الحزب المذكور المشايخ علي وأمين وخطار وقاسم العماد، من حيث الاتفاق السري مع والي الشام على ترك معسكر الأمير بشير والانضمام إلى معسكر أعدائه عند نشوب الاقتتال، وانعكاس تأثير الهزيمة على الزعماء المذكورين، والأسباب التي جعلت الأمير بشير يحجم عن دخول دمشق. اعتقد أن المؤلف يتفق معي أن التركيز على هذه النقاط أهم من ذكر عدد الأسرى الذين قبض عليهم الأمير بشير والغنائم التي أصابها.

تحدث د. أبو صالح **في الصفحة ٢٢١** عن محاولة السلطات العثمانية استمالة الأمير بشير إلى جانبها وبأنها عرضت عليه البقاء في منصبه، مكتفياً بإيراد شرط واحد من شروط العرض مهملاً شرطين مهمين، ودون أن يشير إلى الأسباب التي جعلت الأمير بشير يرفض العرض، وكلها مذكورة في المصادر التاريخية. كما لم يذكر الأسباب التي جعلت الأمير بشير يفضل مغادرة جبل الدروز، واختياره للأمير عباس الشهابي ليكون حاكماً في أثناء غيابه بدلاً من الأميرين الشهابيين حسن وسلمان؟ وكذلك أهمل ذكر

الأسباب التي جعلت الشيخ بشير جنبلاط ــ الحليف الرئيسي ــ للأمير بشير التخلي عنه؟ والدور الذي لعبه الأخير بإقناع والي دمشق بتولية الأمير عباس حاكماً على جبل الدروز؟

ــ وفي موضوع تفاقم الخلاف بين البشيرين (أي الشهابي والجنبلاطي) ص (٢٢٦ ــ ٢٢٣) أشار د. أبو صالح إلى قرار الشيخ التصدي للأمير بشير وبأنه ألب حوله جميع معارضي الأخير، وبأن الشيخ عقد تحالفاً لهذا الغرض مع زعماء الحزب اليزبكي، دون أن يذكر الأسباب التي جعلت الأخيرين يقفون إلى جانب خصمهم السياسي الشيخ بشير في خلافه مع الأمير، هل هي الرابطة المذهبية أم أن هناك أسباباً أخرى؟ سوف أوضح هذه النقطة وهي تتلخص بأن الأمير بشير بعد عودته من مصر، حاول تعويض المبالغ الباهظة التي تكبدها أثناء فراره إلى مصر، وتلك التي أنفقها من أجل عودته إلى منصبه، وتأمين طلبات عبدالله باشا المالية الملحة، ومساعدته في المصاريف الباهظة التي توجب عليه دفعها لاسترضاء سلطات الآستانة. فاتخذ الأمير بشير إجراءات في غاية القسوة لتعويض هذه المبالغ، إلى حد جعل مقاطعات التزامه تدفع إحدى عشرة مرة ما اعتادت أن تدفعه مرة واحدة، وبالطبع وقع عبء هذه الغرامات المالية على عاتق مناصب الدروز، لأنهم كانوا في ذلك الحين أصحاب الأملاك الواسعة. فانتشر البؤس في المقاطعات اللبنانية وقلت النقود بين الأهالي بحيث صاروا عاجزين عن تأمين الغذاء الذي يمكنهم من البقاء على قيد الحياة. وأشار إلى ذلك القنصل الفرنسي في حلب في تقرير له كتبه من اللاذقية بتاريخ ٢٤/١/١٨٢٤.

«لاحظت على جميع الوجوه وفي كل الأحاديث علامات الذعر والخوف واليأس»[٨٥].

فأدرك زعماء الدروز أن غياب الشيخ بشير جنبلاط هو الذي ساعد الأمير بشير على التصرف بهذا الشكل التعسفي، لأن الزعيم الجنبلاطي كان له سابقاً في المرصاد كلما حاول فرض ضرائب باهظة أو غير اعتيادية على المقاطعات المختلطة أو ذات الأغلبية الدرزية[٨٦].

كما لم يشر المؤلف في الصفحة ٢٢٧ إلى الأسباب التي جعلت بعض زعماء الحزب اليزبكي من آل تلحوق ونكد وحمادة وعبدالملك يرفضون الوقوف إلى جانب الشيخ بشير جنبلاط ويؤثرون الوقوف إلى جانب الأمير بشير؟ سأوضح لكم ذلك، أنه وعد الأمير لهؤلاء الزعماء بمنحهم إقطاعات خصومه عند النصر[٨٧].

ــ وجاء في الصفحة ٣٠٢ أن مظاهر التقشف لدى سكان الإمارة كان يعود إلى قلة الدخل مع ما كان يتعرض له الجبل من كوارث طبيعية تشير المصادر التاريخية أن حالة التقشف التي تحدث المؤلف عنها إنما كانت متعمدة من قبل السكان، لأن مظاهر الثراء والنعم ستؤدي إلى شقاء هؤلاء من قبل الحكام الذين سيطمعون بهم، لذا كان الأهالي يفضلون التظاهر بمظهر البؤس الشديد تحاشياً من ظلم السلطات العثمانية[٨٨].

ــ وفي موضوع نكبة جون عكار عام ١٥٨٥ والتي أدَّت إلى نهاية الأمير قرقماز المعني، الواردة في الهامش الأخير من صفحة ٣٠٤، فقد تجاهل المؤلف المرجع الذي استقى منه المعلومات[٨٩].

تلك هي مجموعة ملاحظات بدت لنا من خلال مراجعة كتاب الزميل د. أبو صالح، ونتمنى أن يتقبلها بصدر رحب، علماً بأن هدفنا الوحيد من هذه المداخلة إنما كان كما أشرنا في بداية حديثنا الوصول بهذه الدراسة إلى حدود الكمال. علماً بأننا لا ننكر بتاتاً الجهد المبذول في إعداد هذه الدراسة، التي هي في الواقع جاءت لتسد فراغاً في المكتبة التاريخية، وتصحح الكثير من الأخطاء التاريخية قبل أن تتحول هذه الأخطاء إلى كرة تكبر مع الأيام فتسد منافذ الوصول إلى الحقيقة التاريخية. وما كانت مداخلتنا إلا محاولة منا في دفع الحقيقة التاريخية، التي هي نسبية كغيرها من العلوم، إلى مزيد من التكامل، ذلك أن توقف المؤرخين عن محاولة تطوير وتجديد الحقائق التاريخية، سوف يؤدي إلى تحول كل منهم إلى صورة باهتة عمن سبقه.

الهوامش

(١) المدبر عبارة كانت تستخدم في المرتفعات الجبلية اللبنانية، للدلالة على من كان يشغل من النصارى وظيفة مستشار ومدير أعمال لدى الأمير الحاكم أو رجال الإقطاع.

(٢) الشاشية: مشتقة من شاشات. وكان الأمير الحاكم في جبل الدروز يجبر الأهالي على شرائها للف العمائم، ويأخذ ثمن القطعة من ثلاثين إلى أربعين قرشاً.

(٣) العامية أو العمية: مشتقة من كلمة عامة، واتخذت هذا اللفظ للدلالة على ثورة الفلاحين في سنة ١٨٢٠ و ١٨٢١، بهدف الامتناع عن دفع الضرائب الغير اعتيادية التي فرضها الأمير بشير على المقاطعات ذات الأغلبية النصرانية.

(٤) مسعود ضاهر: الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية (١٦٩٧ ــ ١٨٦١). معهد الإنماء العربي، بيروت ١٩٨١. انظر ص ٦٣.

(٥) يوسف الدبس: الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل، بيروت ١٩٠٥. انظر ص ٤٤.

(٦) إدوارد لكروي: أحمد باشا الجزار وأعماله في سوريا ولبنان وفلسطين. تر. جورج مسرة، ساو باولو (البرازيل)، ١٩٢٤. انظر ص ٦٠.

(٧) A.E.B[1] 1036 Seyde le 7/5/1774.

ملاحظة: تشير الرموز (A.E.B[1]) إلى Affaires étrangères serie B[1]. أما الرقم الذي يليها فإنه يشير إلى رقم السجل ومن ثم المركز القنصلي الصادرة عنه الوثيقة ومن ثم تاريخها في اليوم والشهر والسنة، وهذه الوثائق من مجموعة *Archives Nationale de Paris*.

(٨) HARIK, Ilyia: Politics and changes in a traditional society Lebanon 1711-1845. Princeton, 1968. p. 13

(٩) ISMAIL, Adel: Documents Diplomatiques..., ed., des œuvres politiques et historiques, 30 tomes, ed., des œuvres politiques et historiques, Beyrout, 1975-1985. voirt. 9, p. 84.

(١٠) TESTA, (Baron de): Recueil des traités de la porte Ottoman avec les puissances étrangères. 10 tomes, Paris, (1892-1899), voir t. 3 pp. (83-84).

(١١) كمال الصليبي: تاريخ لبنان الحديث. دار النهار للنشر، بيروت ١٩٦٧، ص(١٢ ــ ١٣).

(١٢) Op.cit., t. 3 pp. (83-84).

(١٣) SALIBI, Kamal: The Secret of the House of Ma'n, international Journal of East studies. 4(1973), 272-287.

(١٤) تاريخ شيبان، مخ، نشره الأب بولس مسعد ونسيب وهيبة الخازن في مجلة **الأصول التاريخية**، م ٣ ص (٥٠٨ ــ ٥٠٩)، عام ١٩٥٨.

(١٥) A.E.B[1] 1033 Seyde le 7/9/1763, 1/10/1763, 15/5/1766, 23/4/1767; A.E.B[1] 1120 Tripoly le 10/5/1764, 28/9/1769.

(١٦) RAFEK, (A.K.): The province of Damascus, Beirut, 1966.

(١٧) علي بك الكبير، القاهرة، ١٩٥٠.

(١٨) COHEN, Amnon: Palestine in the 18th. Century. Jerusalem, 1973.

(١٩) LUSIGNAN, (S.K.): A history of the revolt of Aly Bey, London, 1783.

(٢٠) أحمد باشا الجزار وأعماله في سوريا ولبنان وفلسطين. تر. جورج مسرة، ساو باولو (البرازيل)، عام ١٩٢٤. انظر ص ٦٠.

(٢١) سليمان المحاسني: حلول التعب والآلام بوصول أبي الذهب إلى دمشق الشام، مخ، نشره د. صلاح المنجد، بيروت، ١٩٦٢. انظر ص (٢٠ ــ ٢١).

(٢٢) A.E.B[1] 1035 Seyde le 31/5/1771.

(٢٣) اليرلية: يظن بأنهم من بقايا الحاميات العثمانية ممن أقامهم السلاطين العثمانيين بعد فتح بلاد الشام كحاميات عسكرية في ولاياتها، ثم أهملت الدولة العثمانية تجديد هذه الحاميات، فلجأ رؤساؤها وقد طال بهم المقام في تلك البلاد، إلى تجنيد أخلاط من أبناء الشام من أهل الصناعات والحرف وغيرهم، ثم أصبحوا أشبه ما يكونون بالعصابات يلتف كل منهم حول زعيم وعظم فسادهم، حتى أصبح يطلق عليهم انكشارية يرلية أو إنكشارية الشام أو جند الشام.

(٢٤) حيدر الشهابي: الغرر الحسان في أخبار الزمان. مخ.، نشره أسد رستم وفؤاد أفرام البستاني تحت عنوان «لبنان في عهد الأمراء الشهابيين»، ٣ أجزاء، بيروت ١٩٤٩. انظر ج ١ ص ٨٧.

(٢٥) طنوس الشدياق: أخبار الأعيان في جبل لبنان، جزءان، بيروت ١٩٧٠. انظر ج ٢ ص ٣٢٨.

(٢٦) سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر. تر. حبيب السيوفي، **المجلة المخلصية**، جزءان، صيدا، ١٩٤٨ ــ ١٩٤٩. انظر ج ١ ص ٩٧.

(٢٧) A.E.B[1] 1035 Seyde le 9/11/1771; A.E.B[1] 91 Alep le 17/10/1771; RAFEK, op.cit., p. 286.

(٢٨) RAFEK: op.cit., pp. (290-91).
(٢٩) A.E.B[1] 1036 Seyde le 31/1/1774 (Damas le 28/11/1774).
(٣٠) A.E.B[1] 1036 Seyde le 30/11/1733 (Bulletin).
(٣١) حيدر الشهابي: نزهة الزمان في حوادث عربستان. مخ، في مكتبة يافت بالجامعة الأميركية في بيروت مسجل تحت رقم (M.S 956.9/S551a).
انظر ورقة رقم ١٢٧؛ مخايل الصباغ: تاريخ الشيخ ضاهر العمري الزيداني حاكم عكا وبلاد صفد. نشره قسطنطين الباشا، حريصا (لبنان)، م.، القديس بوليس، (لا.ت). انظر ص ١٧٠ رسالة رقم ٢ مؤرخة في ١٧٧٥/٥/٦.
(٣٢) مخايل الصباغ: مصدر سابق، ص ١٧.
(٣٣) AMNON, op.cit., p. 54.
(٣٤) A.E.B[1] 1037 Seyde le 2/9/1775 joint la lettre de M. Martin.
(٣٥) A.E.B[1] 1037 Seyde le 24/4/1777; AMNON, op.cit., p. 54.
(٣٦) A.E.B[1] 1037 Seyde le 18/2/1775; AMNON, op.cit., p. 55.
(٣٧) مخايل الصباغ: مصدر سابق، ص ١٧٧ رسالة رقم ٥ مؤرخة في ١٧٧٥/٩/٥.
(٣٨) المصدر نفسه، ص (١٧٩ ــ ١٨٠). انظر الرسالة رقم ٧ الصادرة من قرية غريفة تاريخها ١٧٧٦/٨/١٩.
(٣٩) A.E.B[1] 1037 Seyde le 2/6/1784.
(٤٠) إدوارد لكروي: مرجع سابق، ص ١٧٤؛ A.E.B[1] 979 Acre le 18/5/1784.
(٤١) حنانيا المير: الدر المرصوف في تاريخ الشوف. نشره الأب اغناطيوس سركيس تباعاً في مجلة المشرق. انظر م ٥، ص ٢٠٩، عام ١٩٥٦.
(٤٢) A.E.B[1] 979 Acre le 18/5/1784.
(٤٣) حنانيا المنير: مصدر سابق، المشرق، م ٥ ص ٢١٠.
(٤٤) A.E.B[1] 979 Acre le 4/6/1784.
(٤٥) A.E.B[1] 1040 Seyde le 2/6//1784.
(٤٦) A.E.B[1] 1040 Seyde le 21/7/1784.
(٤٧) A.E.B[1] 979 Acre le 14/9/1784.
(٤٨) حيدر الشهابي: الغرر، مصدر سابق، ص ١٣٨؛ A.E.B[1] 1040 Seyde le 20/9/1784.
(٤٩) Ibid. حنانيا المنير: مصدر سابق، المشرق، م ٥ ص (٢١٠ ــ ٢١١).
(٥٠) حيدر الشهابي: الغرر، مصدر سابق، ص ١٣٨.
(٥١) A.E.B[1] 1040 Seyde le 12/11/1784.
(٥٢) A.E.B[1] 1040 Seyde le 21/11/1784.
(٥٣) منتخبات من الجواب على اقتراح الأحباب. بيروت ١٩٥٥، انظر ص ٣٤.
(٥٤) حيدر الشهابي: لبنان، مصدر سابق، ص (٢٠٨ ــ ٢١٠).
(٥٥) حنانيا المنير: مصدر سابق، المشرق، م ٥١ ص ٤٥١.
(٥٦) المكان نفسه.
(٥٧) المصدر نفسه، ص (٤٥٧ ــ ٤٥٨).
(٥٨) المصدر نفسه: ص (٤٥٨ ــ ٤٥٩).
(٥٩) ISMAIL, op.cit., t. 4 p. 98.
(٦٠) C.C.C. t. 23 Alep le 18/4/1804.
ملاحظة: تشير الثلاثة أحرف الأول (.C.C.C) إلى Correspendances Commercial et Consulaire. ثم يشير الرقم الذي يليها إلى رقم المجلد ومن ثم اسم المركز القنصلي الصادر عنه التقرير ومن ثم تاريخه في اليوم والشهر والسنة. وهذه وثائق فرنسية من مجموعة وزارة الخارجية الفرنسية (الكي دورسيه).
(٦١) C.C.C. t. 23 Alep le 18/4/1804 le 16 prairial an 12 (5/6/1804).
(٦٢) C.C.C. t. 14 Larnaca la 14/7/1810.
(٦٣) يوسف المعلوف: (زجلية في عامية انطلياس الأولى في آذار سنة ١٨٢١). **مجلة المنارة**، م ٨ ص (١١٧ ــ ١٢٣).
(٦٤) C.C.C. t. 14 S.T. Jean d'Acre le Janvier et fevrier 1821.
(٦٥) ISMAIL, op.cit., t. 4 p. 318.
(٦٦) حيدر الشهابي، الغرر، ج ٢ ص ٦٦١؛ ISMAIL, op.cit., t. 3 pp. (150-153).
(٦٧) Ibid., pp. (154-155).
(٦٨) Ibid., p. 159.

(٦٩) Ibid., pp. (154-155).

(٧٠) Ibid., p. 159.

(٧١) راجع النص الكامل في **أوراق لبنانية**، م ٢ ص (٥١١ ــ ٥١٣).

(٧٢) ISMAIL, t. 3 op.cit., p. 162.

(٧٣) حيدر الشهابـي: الغرر، مصدر سابق، ص ٦٧٦.

(٧٤) المصدر نفسه، ص (٦٧٦ ــ ٦٧٧)؛ ISMAIL, op.cit., pp. (166-169).

(٧٥) Ibid., p. 169.

(٧٦) (وثيقة عامية انطلياس)؛ أوراق لبنانية، م ٢ ص ٥١١ ــ ٥١٣)، الطبعة الأولى.

(٧٧) ISMAIL, op.cit., t. 3 pp. 160 et 162.

(٧٨) نوفل نعمة الله نوفل: كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام، مخ، في مكتبة يافث بالجامعة الأميركية في بيروت، مسجل تحت رقم (M.S/956/N 32KA). انظر ورقة رقم ٤٥٤.

CHURCHULL, Charles Henry: Mount Lebanon a ten years residence, 1842-1852, 3 vols, London, 1810, t. 3 pp. (328-29).

(٧٩) ISMAIL, op.cit., t. 5 pp. (22-23); BARKER, John: Syria and Egypt Under the last five Sultans of Turkey being experiences during fifty year of Mr., Consul General BARKER, 2 vols, London, 1876, V. 2 p. 22.

(٨٠) مخايل دمشقي: تاريخ حوادث جرت بالشام وساحل بر الشام والجبل من سنة ١١٩٧ ــ ١٢٥٧هـ. مخ، من مجموعة مكتبة يافث بالجامعة الاميركية في بيروت، مسجل تحت رقم (M.S/956.9/D58tA). انظر ورقة رقم ١٣٣؛ انطونيوس شبلي: الآثار المطوية، جزءان، بيروت ١٩٦٤. انظر ج ٢ ص ٢١؛ أسد رستم: المحفوظات الملكية المصرية، بيان بوثائق الشام وما يساعد على فهمها ويوضح مقاصد محمد علي الكبير. ٤ اجزاء، بيروت ١٩٤٠ ــ ١٩٤٣. انظر ج ١ ص ٣٢.

(٨١) B.E1 Beyrout 6 (du Tripoly) le 10/4/1822.

ملاحظة: يشير الحرفان (B.E1) إلى رمز المجموعة الوثائقية يليه المركز القنصلي الصادرة عنه ومن ثم رقم المحفظة ثم المدينة التي كتبت فيها الوثيقة ثم تاريخها في اليوم والشهر والسنة. وهي من مجموعة وزارة الخارجية الفرنسية (الكي دورسيه) باريس.

(٨٢) حيدر الشهابـي: الغرر، مصدر سابق، ج ٢ ص ٧١٢.

(٨٣) المصدر نفسه، ص ٧١٠.

B.E1 Beyrout 6 (du Tripoly) le 25/5/1822.

(٨٤) مخايل الدمشقي: مصدر سابق، ورقة رقم ١٣٣؛ انطونيوس شبلي: مصدر سابق، ج ٢ ص ٢١؛ أسد رستم: مصدر سابق، ج ١ ص ٣٢.

(٨٥) C.C.C. t. 27 Alep (du Lattaquié) le 24/1/1824.

(٨٦) CHURCHULL, op.cit., t. 3 p. 381.

(٨٧) أوراق لبنانية، م ٢ ص (٣٢ ــ ٣٣)، السنة الثانية، ١٩٥٦.

(٨٨) (M. et D.) Turquie t. 136 Doc. 1.

ملاحظة: الأحرف الأولى (M.D.) مختصر Memoires et Documents يليها رقم المجلد ثم رقم الوثيقة، وهي من مجموعة وزارة الخارجية الفرنسية (الكي دورسيه) باريس.

(٨٩) حسين سلمان سليمان: «حادثة جون عكار سنة ١٥٨٥، الدفتر العثماني يصحح خطأ أميرياً». النهار، عدد ١٥٢٩٧ تاريخ ١٦/٥/١٩٨٣.

Abu-Husayn, Abdul-Rahim, Provincial leaderships in Syria (1575-1650), American University of Beirut, 1985, pp. (76-80).



● **«من السهل على أي شخص أن يشتعل غضباً. ولكن أن تغضب من الشخص المناسب وبالدرجة المناسبة وفي الوقت المناسب وللغرض المناسب وبالطريقة المناسبة. فهذه ليست في مقدرة كل شخص وليست من السهولة بمكان».**

(أرسطــو)

لومومبا

والقضية الأفريقية

محمد عيسى

● «إن جراحنا ما تزال دامية، وهي تؤلمنا ألماً لا يجعلنا ننساها».

باتريس إميلي لومومبا

□ لومومبا، عندما كان سيد الموقف في الكونغو

إن الأحداث التي تشابكت وقائعها لتؤلف حياة باتريس لومومبا هي ذاتها الأحداث التي صاغت فكره، فمن خلال معاناة لومومبا الذاتية للواقع الموضوعي، ومعايشته له، تفتحت أمامه معالم أيديولوجيته السياسية. ذلك أن الفكر السياسي عند لومومبا قد مر بأطوار متباينة، بل ومتناقضة، حتى تحددت معالمه واكتملت مقوماته.

وإذا أمعنا النظر في «حياة» لومومبا أمكننا أن نتبين ثلاثة أطوار هامة في «فكره» السياسي:

- الطور الأول: **هو طور انفتاح للوعي الوطني عند لومومبا واكتشافه لأبعاد الحقيقة الاستعمارية.**
- الطور الثاني: **هو طور الصدام المروع بين وعي لومومبا الذي يسعى لتحرير الكونغو وتوحيده. وبين الاستعمار وأعوانه من الخونة الكنغوليين.**
- الطور الثالث: **هو تلك اللحظة المهيبة التي اغتيل فيها لومومبا. ففي تلك اللحظة ماتت إفريقية بأسرها لتبعث من جديد، على حد تعبير فرانز فانون.**

الوعي والحقيقة



يعد الطور الأول لفكر باتريس لومومبا من أعسر أطوار حياته الفكرية مخاضاً، وأحفلها بعدم وضوح الرؤية نظراً لافتقاره إلى الوعي بحقيقة الاستعمار. ويعد كتاب لومومبا «الكونغو أرض المستقبل: **هل هي مهددة؟**»، الذي كتبه عام ١٩٥٦، يعد أبلغ وثيقة تكشف لنا عن فكر لومومبا في هذا الطور.

فقد كان لومومبا، كما جاء في كتابه «يحلم» بإقامة «مجتمع متكافىء للجميع بلجيكيين وكنغوليين» على أن يتحقق في إطاره الاندماج العنصري بين البيض والسود وخاصة بين النخبة السوداء التي نالت قسطاً من التعليم والثقافة، واصبح يطلق عليها اسم «المتطورين».

وكان لومومبا يطالب في ظل هذا المجتمع المنشود بتساوي البيض والسود في ميدان العمل وانفتاح جميع الوظائف للكنغوليين تبعاً لما يتمتعون به من كفاءات.

وقد عبر لومومبا عن هذا «الحلم» بقوله في عام ١٩٥٦:

«إننا نعتقد انه سيكون ممكناً منح النخبة الكنغولية وبلجيكي الكونغو في مستقبل قريب نسبياً حقوقاً سياسية، وفق بعض المقاييس التي ستضعها الحكومة».

غير أننا سنرى في الصفحات القادمة كيف اكتشف لومومبا خداع هذا الحلم وزيفه واستحالة تحقيقه.. وكيف أصبح منذ أكتوبر عام ١٩٥٨ يناضل بلا هوادة من أجل تحقيق الاستقلال والوحدة الوطنية والوحدة الإفريقية.

* * *

وكان عدم وضوح الرؤية الفكرية عند لومومبا، ينعكس انعكاساً حاداً على موقفه إزاء تقديره للاستعمار البلجيكي. وهو الموقف الذي يتضح بجلاء في كتابه الذي سلف ذكره. فقد كان لومومبا، على حد تعبير جان بول سارتر، كثيراً ما ينوه بالجوانب الإيجابية للاستعمار البلجيكي في الكونغو. هذه الجوانب التي تتمثل في زيادة قيمة الأرض والموارد المعدنية، وإرسال الإرساليات التعليمية، وتقديم المساعدات الطبية والصحية..

بيد أن هذا لم يحجب عن لومومبا رؤية الأوضاع المهينة التي يعيشها مواطنوه. فعندما كان في الثالثة والعشرين من عمره، أي في عام ١٩٤٨، كتب في إحدى صحف الكونغو متسائلاً:

«لماذا يعامل البيض كلابهم على نحو افضل مما يعاملون خدمهم من الزنوج؟».

ومن ثم فقد كان لومومبا يفصح، في ذات الوقت، عن النظرة الأخرى للتناقض الذي يعيش في ذاته، وهو إدراكه لبشاعة الحكم الاستعماري. وقد بلغ هذا الإدراك قمته في رد لومومبا الشهير على الملك بودوان ملك بلجيكا في ٣٠ يونيه

١٩٦٠، يوم استقلال الكونغو. لقد هاجم لومومبا الاستعمار البلجيكي بعنف وضراوة. وهاجم الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المهينة التي كان الشعب الكنغولي يعيشها في ظل الإدارة الاستعمارية. ثم وعد الشعب بالقضاء على هذه الأوضاع التي تتمثل في سخرة العمل، والتفرقة العنصرية، والنزاع القبلي. ثم يسجل لومومبا على جبين التاريخ هذه الكلمات المضيئة:

«لا يحق لأي كنغولي أن ينسى أننا حققنا استقلالنا بالدموع والنار والدم. إننا فخورون جد الفخر بنضالنا.. لأنه كان نضالاً عادلاً ونبيلاً، وكان لا مناص منه لوضع نهاية لقيد الذل الذي فرض علينا طوال ثمانين عاماً من الحكم الاستعماري. إن جراحنا ما تزال دامية وهي تؤلمنا ألماً لا يجعلنا ننساها».

سر مرحلة التناقض

والسؤال الآن: ما هو تفسير هذا الموقف الفكري الذي كان يتسم بالتناقض عند لومومبا؟

إن الإجابة على هذا السؤال من الأهمية بمكان. إذ أنها تمثل طوراً هاماً من أطوار حياة لومومبا وفكره. وهنا يتعين علينا بادىء ذي بدء أن نقرر حقيقة موضوعية هامة وهي أن لومومبا في هذا الطور إنما كان ضحية لخداع التعليم والثقافة الاستعمارية، تلك الثقافة التي ترمي أول ما ترمي إلى القضاء على الذاتية الوطنية تحت شعار «سياسة الأبوة البلجيكية». وكان يكمن وراء هذه السياسة الاستعمارية قوتان هما ـ كما قال رولف أتاليانذر في كتابه «الزعماء الجدد في إفريقية» ـ الرأسمالية والكنيسة الكاثوليكية. وكان الشعار الذي ترفعه هذه السياسة هو: «ما يفعله الأب دائماً حق». وطالما أن الأطفال صغار فهم يطيعون الأب أو يتظاهرون بذلك. بيد أنهم عندما يشبون عن الطوق يثورون وعندئذ تزول سلطة الأب.

ويصدق قول أتاليانذر هذا على لومومبا، فقد كانت مرحلة ما يمكن أن نطلق عليه الطفولة الفكرية في حياة لومومبا مرحلة تهيمن عليها «الأبوة» البلجيكية. غير أن لومومبا ما كاد يشب عن الطوق وتتفتح أمامه الحقائق القاسية التي يعيش الكنغوليون في ظلها حتى ثار على «الأبوة» البلجيكية. وعندئذ بدأت مرحلة الفكر الثوري عند لومومبا.

ولكي نجلو سر التناقض في فكر لومومبا لا بد لنا من الوقوف على حياته. وتعد دراسة الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر عن «الفكر السياسي عند لومومبا» من أخصب الدراسات وأعمقها في هذا الصدد. إذ يحلل لنا سارتر حياة لومومبا كاشفاً عن سر هذا التناقض. وسوف نلتمس في دراسة سارتر هذه إجابة على السؤال الذي سلف طرحه. ويكون البدء بالوقوف على طفولة لومومبا:

ولد باتريس إميلي لومومبا في ٢ يوليو ١٩٢٥ في قرية أوناليو، بمقاطعة كاساء، بالكونغو. وكان والده فلاحاً كاثوليكياً. وقد اعتاد أن يصحب لومومبا منذ بلغ السادسة من عمره إلى الحقول فقد كان يريد أن يجعل منه فلاحاً. غير أن «الآباء الكاثوليك» قرروا أن يذهب لومومبا الصغير إلى المدرسة. فقد كانوا يريدون أن يجعلوا منه مدرساً للتعليم المسيحي. بيد أن الإرسالية البروتستانتية تلقفت لومومبا عندما بلغ الثالثة عشرة من عمره وعلمته مهنة تتيح له:

«أن يترك الوضع الفلاحي إلى وضع ذوي المرتبات».

وهكذا قضى لومومبا طفولته، كما يقول سارتر، في الريف الكنغولي، والبؤس المدقع للفلاحين والزنوج معروف، ولولا المنظمات الدينية التي تعهدته لكان هذا البؤس نصيبه وأفقه الوحيد.

وهنا يتساءل سارتر «أتراه قد فهم على الفور أن الإرساليات الدينية هي عميلة الاستعمار؟» ويجيب قائلاً: «لا، بلا ريب».

بل إن لومومبا لم يكن يدرك في تلك الفترة أن الحياة التعيسة الحافلة بالفقر والبؤس في الريف الكنغولي هي بصورة مباشرة أو غير مباشرة نتاج الاستغلال الاستعماري.

ويميط سارتر اللثام عن سر عدم إدراك لومومبا لهذا الوضع حين يقول: «كان «الآباء» يمنحونه طموحاً ضارياً إلى أن يعرف بؤسه بأسبابه، ومن ثم رغبته في أن يخضع له». وقد عبر لومومبا عن هذا التناقض، عندما تكشفت له الحقيقة الاستعمارية في قصيدة له، بقوله:

«لكي يجعلوك تنسى أنك إنسان
علموك أن تتغنى بمدح الرب».



□ لومومبا.. الشاعر

وعندما أتم لومومبا تعليمه في الإرسالية البروتستانتية، وكان يبلغ من العمر، آنذاك، ثمانية عشر عاماً رحل إلى «كندو»، حيث عمل موظفاً بإحدى الشركات. وقد أبدى لومومبا في عمله نشاطاً عظيماً، وتفوقاً لامعاً أصاب البيض بالدهشة. وفي هذه الفترة كان يراود لومومبا حلمه بإقامة مجتمع بلجيكي ــ كنغولي يتحقق فيه الاندماج العنصري بين البيض والسود. غير أن لومومبا طرح هذا الحلم الذي اكتشف زيفه جانباً عندما تبين له استحالة تحقيقه.

الأيديولوجية الثورية

فكيف تسنى للومومبا أن يكتشف زيف فكرة الاندماج العنصري، ذلك الاكتشاف الخطير الذي كان نقطة تحول ثورية في حياته وفكره؟

حدث هذا عندما انتقل لومومبا من كندو إلى ستانلي فيل ليعمل موظفاً بمكتب البريد. فقد كانت هذه الرحلة بمثابة «الرحيل الفكري» من مرحلة عدم وضوح الرؤية لحقيقة أوضاع بلاده في ظل الاستعمار إلى مرحلة جديدة تماماً، هي المرحلة التي ظهر فيها لومومبا للعالم أجمع كمناضل إفريقي يطالب بالاستقلال لبلاده والحرية والوحدة لإفريقية.

لقد أدرك لومومبا من تجربة حياته في المدينة (ستانلي فيل ثم ليوبولدفيل) حقيقة النظام الاستعماري، وحقيقة الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي يعيشها أبناء البلاد. لقد أدرك أن المواطنين الكنغوليين يحكم حياتهم في المدينة قاعدتان استعماريتان هما:

- التفرقة العنصرية.
- التفاوت الاقتصادي العنيف بين السود والبيض. فالأبيض يتقاضى ضعف ما يتقاضاه الأسود. وفضلاً عن هذا فإن الفرص الاقتصادية مفتوحة أمام البيض في حين انها محدودة أمام السود.

ولقد كانت التفرقة العنصرية والتفاوت الاقتصادي بين السود والبيض تجربة جديدة بالنسبة للومومبا. وهو لم يكن ليدركها لو عاش في الريف وذلك «بسبب انعدام الاتصال بين السود والبيض» وتظهر إجراءات التمييز في المدن، وهي تشكل، كما يقول سارتر، حياة أبناء البلاد اليومية.

ولقد تمخضت تجربة لومومبا في المدينة عن انفتاح الوعي عنده، وكان مفجر هذا الوعي ومحركه اكتشافه لحقيقة عميقة للغاية هي أن «المساواة» التي يروم تحقيقها بين البيض والسود إنما هي فكرة مستحيلة لا يقبلها الاستعمار والإدارة الاستعمارية. لقد اكتشف، كما يقول سارتر، صلابة النظام الاستعماري الذي خلقه ليزداد استغلالاً له، ذلك النظام الذي يتماسك بالقسر والإجبار ويزول حين يوافق على القيام بالتنازلات.

وكان هذا الاكتشاف الهام تصعيداً بموقف لومومبا وأيديولوجيته من طور ما يمكن أن نطلق عليه «الحل الوسط» إلى طور «الحل الثوري» لمشاكل الشعب الكنغولي. وكان هذا الحل الثوري يتمثل في إيمان لومومبا بالانفصال عن بلجيكا.. والاستقلال. وكان أن أسس لومومبا حزب «الحركة الوطنية الكنغولية» في أكتوبر من عام ١٩٥٨.

وأعلن لومومبا أيديولوجيته الثورية هذه في مؤتمر اكرا للشعوب الإفريقية الذي عقد في غانا في ديسمبر عام ١٩٥٨. فقد حضر لومومبا هذا المؤتمر ممثلاً لحركة الكفاح الكنغولي، وأصبح عضواً في اللجنة الدائمة للمؤتمر. ويرى الكاتب «رولف أتاليالندر»:

ان مؤتمر اكرا كان نقطة تحول هامة في افكار لومومبا، فقد تحول إلى السياسة كلية. واستطاع أن يحظى بتأييد الشعوب الإفريقية. ومن ثم اصبح زعيم الحركة الوطنية في

الكونغو، بلا منازع، وكان ان توسعت حركته حتى اصبحت مكاتبها السياسية منتشرة في جميع انحاء الكونغو.

وعند عودة لومومبا من أكرا كانت أحداثاً هامة تنتظره في ليوبولدفيل. فقد كان من المقرر ان يتحدث لومومبا في مؤتمر شعبي، في ٣ يناير ١٩٥٩، عن قرارات وتوصيات مؤتمر أكرا. وعلى الرغم من أن السلطات البلجيكية منعت عقد هذا المؤتمر، إلا أن جماهير الشعب الكنغولي سارت إلى مكان الاجتماع، فما كان من الجنود البلجيكيين إلا أن استقبلوا الجماهير بالرصاص. وكان هذا إيذاناً باندلاع ثورة شعبية استمرت ثلاثة أيام توقفت فيها الحياة في المدينة تماماً. وقد تمخضت هذه الثورة الشعبية، كما قال أحد المعلقين السياسيين عن تحول السخط التلقائي إلى طلب إجماعي بالاستقلال العاجل.

وتحت ضغط الشعب الكنغولي وافقت بلجيكا في أواخر عام ١٩٥٩ على عقد مؤتمر مائدة مستديرة في بروكسل في يناير ١٩٦٠ للتفاوض مع الزعماء الكنغوليين على شروط الاستقلال. وعقد مؤتمر بروكسل في الفترة ما بين ٢٠ يناير و ٢٠ فبراير عام ١٩٦٠. وصدر عن المؤتمر ٦٠ قراراً.. من بينها هذا القرار الهام:

«تصبح الكونغو دولة مستقلة تماماً منذ ٣٠ يونيه ١٩٦٠، وتتألف دولة الكونغو من ستة أقاليم بالحدود الجغرافية الراهنة».

* * *

رياح المؤامرة

بيد أن الكونغو لم تكد تحصل على الاستقلال حتى هبت عليها رياح الصراعات الفكرية ومؤامرات الاستعمار الجديد. فبعد خمسة أيام فقط من الاستقلال وقع تمرد في الجيش بقصد إقصاء قائد الجيش البلجيكي إميل جانسن. وكان جانسن استعمارياً يحول دون «أفرقة» الجيش الكنغولي.

واحتلت قوات الجيش المتمردة ليوبولدفيل، وعم التمرد البلاد بأسرها. بيد أن الحكومة تمكنت من التوصل إلى اتفاق مع القوات المتمردة: فتم إعفاء جانسن، ووعدت الحكومة بالعمل على «أفرقة» الجيش الكنغولي.

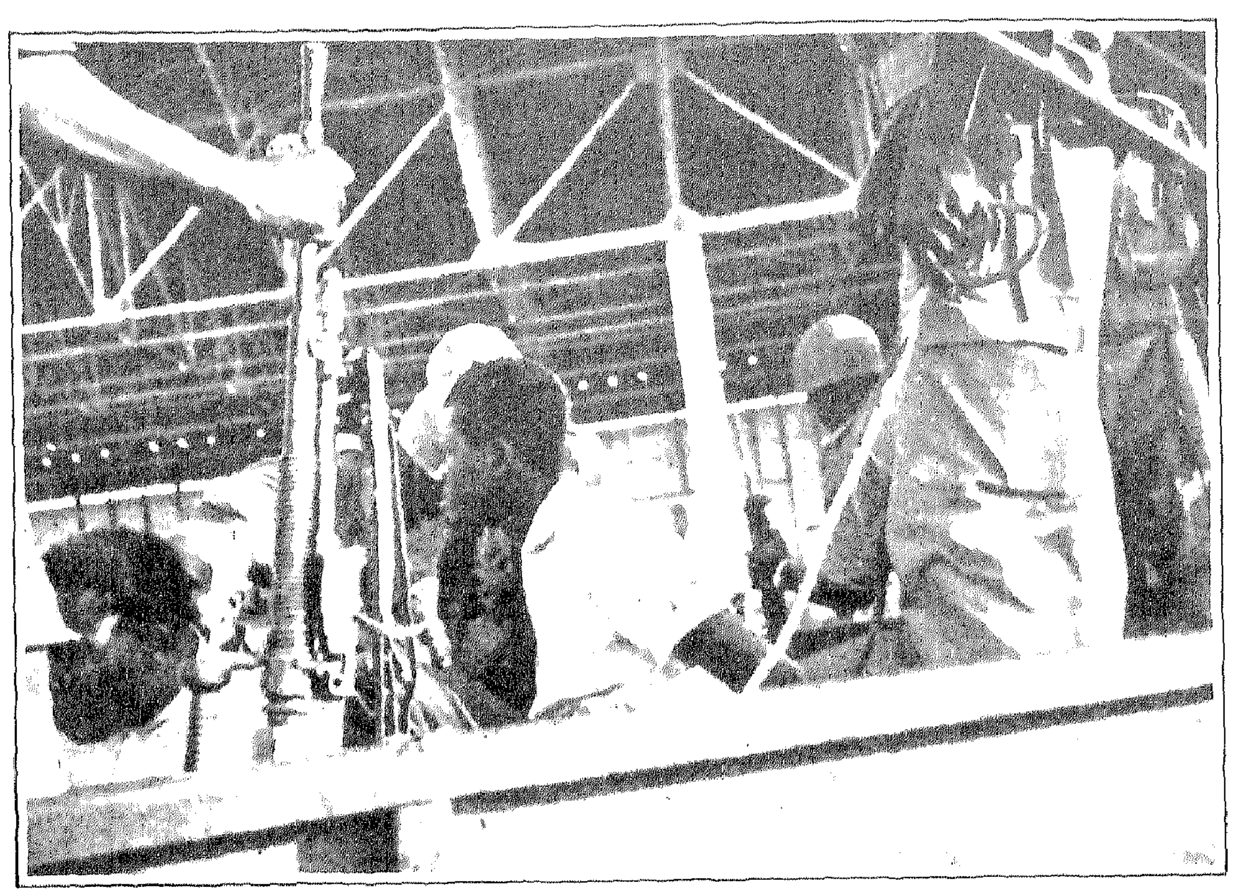


□ بودوان، ملك بلجيكا وزوجته.

وإذا كان قد أمكن التوصل إلى اتفاق بشأن تمرد الجيش، إلا أن «قنبلة زمنية انفصالية» سرعان ما انفجرت في إقليم كاتنجا، بعد أحد عشر يوماً من الاستقلال، فاهتزت لها أركان الكونغو. وكان الرجل الذي فجر هذه «القنبلة الانفصالية» هو مويس تشومبي زعيم حزب الكوناكات وعميل «اتحاد المناجم» فقد أعلن تشومبي في ١١ يوليو ١٩٦٠ استقلال إقليم كاتنجا وانفصاله عن الحكومة المركزية. واتهم الحكومة باعتمادها على أغلبية برلمانية من المتطرفين الذين وصلوا إلى الحكم بالخداع. وذهب إلى أن هدف هذه الحكومة هو فيما يبدو «تفكيك الجهاز الإداري والعسكري وإيجاد حكم إرهابي يطرد البلجيكيين الذين يعاونوننا». وكان أحرى بتشومبي أن يقول: «الذين يستغلوننا»!

وناشد تشومبي روي ولنسكي الاستعماري البريطاني رئيس وزراء روديسيا أن يرسل قواته إلى الكونغو ليعيد النظام إليه. وظن ولنسكي أن الساعة التي ظل ينتظرها قد حانت. ولكن ماكميلان رئيس وزراء بريطانيا آنذاك منعه من أن يرسل أية قوات إلا بعد أن تسمح له بذلك الحكومة البريطانية في لندن، على نحو ما ذكر رولف أتاليباندر.

ولكن الحكومة البلجيكية أرسلت قواتها على الفور إلى كاتنجا. وهكذا كانت التجزئة المتمثلة في الكيان القبلي الانفصالي القائم في كاتنجا هي



□ لومومبا اثناء اعتقاله.

«القاعدة» التي أنشأها الاستعمار البلجيكي لتهبط عليها طائراته المحملة بجنود «البراشوت» لحماية مصالحه وإحكام سيطرته واستغلاله لموارد كاتنجا: فهي تنتج ٦٠ ٪ من اليورانيوم الذي يستخدمه الغرب، و ٨٠ ٪ من الماس الصناعي في العالم، و ٧٣ ٪ من الكوبالت في العالم، و ٨ ٪ من النحاس في العالم. كما تضم مواردها المعدنية: الذهب والزنك والمنجنيز.

والسؤال الآن: من الذي قرر مصير كاتنجا؟

يجيب سارتر، بوضوح مذهل، على هذا السؤال قائلًا:

لقد تقرر مصير كاتنجا بين البلجيكيين والإنجليز والفرنسيين والأميركيين وحكام روديسيا وجنوب إفريقية. ولئن بدا كل شيء مدبراً اليوم. ولئن عادت كاتنجا إلى الكونغو فذلك لأن الولايات المتحدة الأميركية قد اتفقت مع البلجيكيين ـــ ضد روديسيا واتحاد إفريقية الجنوبية ومطامع الإنجليز والفرنسيين ـــ لتستغل استغلالًا مشتركاً الثروات الكنغولية عن طريق الشركات المختلطة.

ولقد اقتضى تنفيذ هذا المخطط الاستعماري إزاحة الكونغو من المفاوضات والمناقشات، وهذا يعني، كما يقول سارتر، القضاء على لومومبا. ذلك أن لومومبا كان يمثل الرفض الصارم للحل الاستعماري الجديد.

الصراعات الفكرية

غير أن ما حدث في الكونغو، بعد الاستقلال، لم ينفجر فجأة، فقد كانت هناك مقدمات تشير إلى إمكانية وقوعه. فقد بدا واضحاً منذ مؤتمر بروكسل ١٩٦٠ أن ثمة خلافات فكرية حادة بين زعماء الكونغو. فقد كان كازافوبو رئيس حزب الأباكو يطالب بدستور فيدرالي. أما مويس تشومبي زعيم حزب الكوناكات فقد حاول الحصول على بند في اتفاق الاستقلال ينص على قيام «حكم ذاتي» في كاتنجا. إلا أن لومومبا رفض، بإصرار عنيد، هذه المحاولات الانفصالية التي تصدر عن نزعات قبلية، وتمسك بقيام دولة موحدة ذات حكومة مركزية في الكونغو.

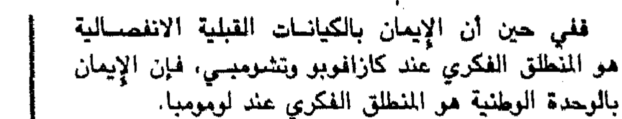
وهنا نلمح الافتراق الأساسي بين أفكار باتريس لومومبا وأفكار كازافوبو وتشومبي:



□ جان بول سارتر.



□ تشومبي.



ففي حين أن الإيمان بالكيانات القبلية الانفصالية هو المنطلق الفكري عند كازافوبو وتشومبي، فإن الإيمان بالوحدة الوطنية هو المنطلق الفكري عند لومومبا.

وتعد الحركة السياسية الحزبية في الكونغو تعبيراً واقعياً عن هذه الصراعات الفكرية. وفي الإمكان إدراك ذلك إذا ما تسنى للمرء أن يقف على أصول ومبادىء الأحزاب الرئيسية الثلاثة في الكونغو، وهي:

● حزب الأباكو: ويراسه كازافوبو.

وقد تأسس عام ١٩٥٠. وهو يمثل «تحالف قبائل الباكونجو»، كما يقول رونالد سيجال في كتابه «صور إفريقية». ويهدف هذا «الحزب القبلي» إلى إنشاء دولة مستقلة في الكونغو الأدنى. ومن ثم فإن كازافوبو كثيراً ما يتحدث، كما يقول رولف أتاليانادر، عن «مملكة باكونجو القديمة» التي ازدهرت فيما بين القرن الرابع عشر والسادس عشر. ومن هنا فإن حزب الأباكو ليس قبلياً انفصالياً فحسب، وإنما هو سلفي كذلك.

● حزب الكوناكات: ويراسه موريس تشومبي.

وقد تأسس في يوليو عام ١٩٥٩. ومقره إقليم كاتنجا. ويهدف هذا الحزب إلى إقامة حكم ذاتي في كاتنجا. ويعتمد اعتماداً كبيراً، كما يقول رونالد سيجال، على قبيلة لوندا. ويستمد تأييده من بلجيكا ومن اتحاد المناجم، وهي الشركة التي تسيطر على أغنى مناجم النحاس في كاتنجا. ومن ثم فإن حزب الكوناكات ليس قبلياً انفصالياً فحسب، وإنما هو عميل أيضاً.

● حزب الحركة الوطنية الكنغولية: ويراسه لومومبا.

وقد تأسس هذا الحزب في ١٠ أكتوبر عام ١٩٥٨. ومن أهم مبادىء هذا الحزب تحقيق الوحدة الوطنية، وإقامة دولة موحدة ذات حكومة مركزية قوية في الكونغو.

وهكذا يتضح لنا أنه لم يكن هناك سبيل إلى التوفيق أو التوافق بين هذه الاتجاهات الفكرية المتصارعة. فالوحدة الوطنية نقيض القبيلة والنزعات الانفصالية. وكان لومومبا يرى أن الوحدة الوطنية هي السبيل الوحيد لشجب الصراعات القبلية التي تفتت الوطن الكنغولي.

* * *

بيد أن سارتر يأخذ على لومومبا أنه لم يقرن دعوته إلى المركزية والوحدة الوطنية بالاشتراكية. ففي رأي سارتر أن المطلوب باسم الوحدة أن يضحي كل فريق اجتماعي بمصالحه من أجل المصلحة المشتركة. ومن ثم:

«لا تستطيع المركزية أن توجد الوحدة الوطنية والمصلحة المشتركة إلا إذا كانت الثورة التي تخرج منها اشتراكية».

ولكن سارتر يستدرك هذا الحكم حين يقول: «كان بإمكان لومومبا أن يفهم ما سموه بـ «رسالة إفريقية الاشتراكية»، وهي الرسالة التي حددها فرانز فانون بقوله:

وفي مواضع أخرى من خطب لومومبا.. نجده يؤكد ضرورة تحقيق «العدالة الاجتماعية» للمواطنين.

وأياً كان الأمر، فإن من العسير للغاية تقويم الوعي الاجتماعي عند لومومبا نظراً لأنه لم يبق في الحكم إلا نحو ثمانية شهور واجه فيها أحداثاً سياسية عاصفة ومؤامرات ودسائس لا حصر لها.. أفضت إلى اغتياله.

الوحدة الإفريقية

وإذا كان لومومبا قد خاض «حرباً مقدسة» من أجل تحقيق الوحدة الوطنية في الوطن الكنغولي، فإنه كان يخوض هذه الحرب، في ذات الوقت، من أجل تحقيق الوحدة الإفريقية.

ذلك أن النظرة الشمولية الواعية عند لومومبا قد مكنته من الربط العضوي بين الوحدة الوطنية للكونغو المتحرر وبين الوحدة الإفريقية. ومن ثم فقد كان تحرير الكونغو عنده هو في ذات الوقت، تحريراً لإفريقية. وأن العوامل التي تحول دون تحقيق الوحدة الوطنية في الكونغو هي ذاتها العوامل التي تحول دون تحقيق الوحدة الإفريقية.

ولذا فإن الأمر يقتضي، كما قال في مؤتمر أكرا عام ١٩٥٨، النضال ضد العوامل الداخلية والخارجية التي تشكل عقبة في وجه تحرير بلادنا وتوحيد إفريقيا.

بل ما هو أعمق من هذا أن لومومبا كان يدرك تمام الإدراك أن مشكلات الكونغو، كما يقول سارتر، هي مشكلات إفريقية كلها، بل ما هو أكثر من هذا أن بلده لن يجد القوة على أن يعيش بعد الاستقلال إلا في إطار إفريقية حرة. فقد كان الكونغو يبدو للومومبا موجزاً مكثفاً لجميع الفوارق التي تخلد نزعات الانفصال الإفريقية، من حدود إقليمية، وصراعات قومية ودينية، وتمييزات اقتصادية.

ولقد بدأ لومومبا منذ اللحظة الأولى التي حصل فيها الكونغو على الاستقلال يعمق أبعاد قضية الوحدة الإفريقية. فقد أعلن للجماهير الكنغولية التي تحتفل بالاستقلال: «أن تحرير الكونغو يعد خطوة حاسمة نحو تحرير القارة الإفريقية بأسرها». وعندما اجتمع المؤتمر الثاني للشعوب الإفريقية بليوبولدفيل، حيث أعرب لومومبا في الجلسة الافتتاحية، في ٢٥ أغسطس



□ موبوتو.



□ كزافوبو، جوزيف.

«إن الاستقلال كلمة فارغة بلا إصلاح زراعي وتأميم المشاريع الاستعمارية».

ولكن من يتسنى له الاطلاع على بعض خطب لومومبا بعد الاستقلال يجد بين سطورها عبارات موحية تشير إلى إدراكه ضرورة تغيير الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المهينة التي يرزح فيها الشعب والتي خبرها لومومبا بنفسه. ففي يوم الاستقلال يختتم لومومبا خطبته بقوله:

«إنني أطلب من جميع المواطنين رجالاً ونساء وأطفالاً، أن يشرعوا في العمل على خلق اقتصاد وطني، وأن يعملوا على ضمان استقلالنا الاقتصادي».

١٩٦٠، عن إيمانه الحار العميق بالوحدة الإفريقية. وقد طرح لومومبا أبعاد قضية الوحدة الإفريقية على هذا النحو:

«إن هدفنا المشترك هو تحرير إفريقية، ولن يمكننا تحقيق هذا الهدف إلا عن طريق التضامن والوحدة، بيد أن تضامننا لن يكون له معنى إلا إذا كان تضامناً بلا حدود، ويكون ذلك بأن نؤمن جميعاً بأن مصير إفريقية لا يتجزأ».

ولقد كان لومومبا يدرك العقبات التي تعترض طريق الوحدة الإفريقية، وهي ما أطلق عليها عبارة «الأساليب الكلاسيكية» التي يستخدمها الاستعماريون لتجزئة القارة وتمزيق وحدتها وهي: الاحتلال العسكري، والخلافات القبلية، وتحطيم المقاومة السياسية. وقد أشار لومومبا إلى الأسلوب الجديد الذي يستخدم به الاستعمار شعاره التقليدي «فرق تسد»:

«لقد كان الاستعمار في الماضي يقسم الدول على أساس القبيلة أو العشيرة أو القرية، أما اليوم، وإفريقية تحرر نفسها، فإنه يسعى لتقسيمها على أساس خلق مجموعات من الدول الإفريقية المتعادية».

ومن ثم فقد كان لومومبا يدعو لتوحيد جبهة مقاومة الأمم الإفريقية الحرة ضد الدول الاستعمارية.

* * *

إلى هذا، فقد كان لومومبا يتطلع، في ظل الوحدة الإفريقية إلى إنشاء نظام جديد يتواءم مع متطلبات التطور الإفريقي. وكان هذا يتطلب، في رأيه:

«أن نغير الأساليب التي فرضت علينا وأن نكتشف أنفسنا، ونحررها من الاتجاهات العقلية، وكافة العقد التي فرضها الاستعمار علينا طوال عدة قرون».

ومن ثم فقد كان لومومبا يؤمن بأن هدف الإفريقيين الأحرار هو: بعث القيم الثقافية والفلسفية والاجتماعية والأخلاقية الإفريقية.

بيد أن هذه الأحلام الرائعة لا يمكن أن تتحقق إلا عن طريق الوحدة الإفريقية.. ومن هنا فقد قال لومومبا في الجلسة الختامية للمؤتمر الثاني للشعوب الإفريقية الذي عقد في ليوبولدفيل:

«إنها الوحدة، أيها الإخوة الأعزاء في الكفاح.. أيها الإخوة الأعزاء في الفقر، التي تشد أزرنا وتمكننا من التصدي لدسائس الاستعماريين ومؤامراتهم، وعندما نتحد كأبناء أسرة واحدة سوف يكون في مقدورنا أن ندافع عن شرف إفريقية وحريتها».

ثم ينطلق لومومبا ليحدد رسالة إفريقية إزاء الحضارة الإنسانية حين يقول: إن إفريقية المستقلة المتحدة سوف تقدم مساهمة إيجابية وعظيمة للسلام العالمي، وأنها سوف تلعب دوراً هاماً في خلق عالم أفضل، عالم تسوده الأخوة.

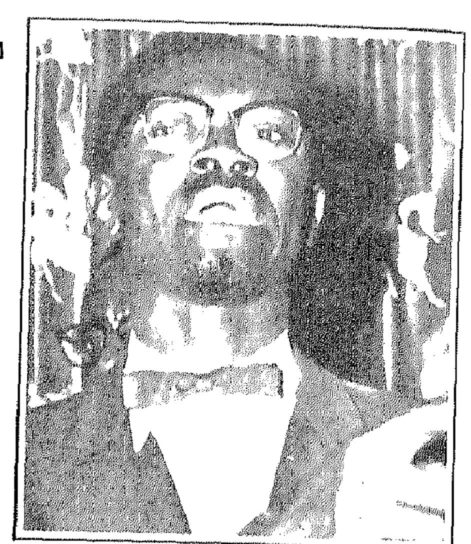
ولم يكن غريباً والأمر كذلك أن يثير إيمان لومومبا بقضية الوحدة الإفريقية ثائرة الاستعمار وعداوة بعض رجاله الأشداء من حكام روديسيا وجنوب إفريقية الذين اتفقت مصالحهم مع مصالح الخونة الانفصاليين القبليين في الداخل على القضاء على لومومبا.. وبمعنى أوضح: القضاء على «أفكار» لومومبا.

الثائر.. والثورة

«إن أفكار لومومبا التي تتمثل في الوحدة الوطنية والوحدة الإفريقية، والدولة الموحدة ذات الحكومة المركزية بمثابة ثورة على الواقع القبلي الانفصالي في الكونغو، ومن ثم فقد كان لومومبا ثائراً.. وهنا يتدخل سارتر ليقول: «ولكنه كان بلا ثورة». إذ أن ما حدث في الكونغو كان ثورة لم تقم».

وتفسير ذلك عند سارتر أنه في الوقت الذي طالب فيه الشعب الكنغولي وقادته بالاستقلال العاجل بعد ثورة ٣ و ٤ يناير ١٩٥٩.. لم تعارض بلجيكا هذا المطلب، وحصل الشعب على الاستقلال يوم ٣٠ يونيه ١٩٦٠. وهكذا حصلت الكونغو، كما يقول رولف أتالياندر، على استقلالها بأسرع مما حصلت عليه أي مستعمرة أخرى. وهذا على عكس ما حدث في الجزائر مثلاً. فمنذ أعلنت جبهة التحرير الجزائرية بدء النضال المسلح، في أول نوفمبر عام ١٩٥٤، خاض الشعب الجزائري حرباً عنيفة ضد الجيش الفرنسي، وكان أن اضطرت فرنسا إلى الجلاء عن الجزائر بعد أن ارتوت أرض الجزائر بدم مليون مناضل شهيد.

ومعنى هذا أن ما حدث في الجزائر كان ثورة شعبية، ومن شأن الثورة الشعبية ضد



□ لومومبا شهيد لا تنساه بلاده.

الاستعمار أن توحد، كما يقول سارتر، الجيش والشعب معاً. ويقتضي هذا القضاء على القبلية وإلا غرقت الثورة في الدم. وتتم تصفية هذه الآثار بالإقناع والتعليم السياسي أو بالإرهاب إذا لزم الأمر.

بيد أن ظروف الكونغو لم تتح قيام ثورة شعبية «يمتد فيها النضال إلى أطراف البلاد فيوحدها». ومن هنا فقد ظلت القبلية في الكونغو محتفظة بكياناتها يغذيها الاستعمار تحقيقاً لمصالحه: ذلك أن القبلية تعني الانفصالية. ومن المعروف أن مصالح الاستعمار لا تزدهر إلا في ظل الانفصال والتطاحن بين أبناء البلد الواحد، طبقاً لسياسته: فرق تسد. وهذه السياسة هي السلاح الذي يطعن به الاستعمار قلب الاستقلال الوطني، أي يطعن الوحدة الوطنية فيبقى الاستقلال، ولكنه يكون جثة هامدة تنهش فيها المصالح الاستعمارية.

الخطر..!

وهذا هو الخطر الحقيقي الذي كشفته معركة الكونغو، والذي يتعين على الحركات القومية في إفريقية خاصة، وفي آسيا وأميركا اللاتينية عامة أن تدركه: إن التجزئة — والقبلية إحدى صورها — هي البذرة التي زرعها الاستعمار في البلاد ليجني أبناؤه حصاد الفرقة والخلاف.. ومن هنا يسهل على الاستعمار أن يحمي مصالحه.

ومن ثم كان العمل الأساسي لأي حركة قومية هو اقتلاع جذور التجزئة، والعمل على توجيه الأمة. إذ أن الوحدة الوطنية هي المعادل الموضوعي للاستقلال الحقيقي. وبدون وحدة وطنية يكون الاستقلال في خطر.

ولقد كان انفصال كاتنجا معركة انتصر فيها الاستعمار الجديد الذي استطاع بعد ذلك، بالمؤامرة، أن يحرك صنائعه من أمثال كازافوبو.. وموبوتو الذي كان «يعمل في خدمة بلجيكا» من أن يختطف السلطة ويعتقل، في ظل وجود الأمم المتحدة، لومومبا. ثم تبلغ المؤامرة ذروتها حين يسلم كازافوبو لومومبا إلى تشومبي. ومن كاتنجا مقر الانفصال أذيع نبأ اغتيال لومومبا في ١٣ فبراير ١٩٦١.

والسؤال الآن: من الذي اغتال لومومبا؟

إن الذين اغتالوا لومومبا هم الذين «اغتالوا» وحدة الكونغو بتدبيرهم مؤامرة انفصال كاتنجا.

ويرى سارتر أن الذين اغتالوا لومومبا هم البلجيكيون والفرنسيون والإنجليز والشركات الكبرى ومستر همرشولد. وقد اغتالوه بصنائعهم كازافوبو وموبوتو وتشومبي ومونجو.

ولكن لماذا اغتالوه؟

لأنه كان لا بد أن يختفي، فهو، كما يقول سارتر، كان يمثل وهو حي الرفض الصارم للحل الاستعماري الجديد.

وفي تلك اللحظة المهيبة التي مات فيها لومومبا ماتت إفريقية بأسرها لتبعث من جديد، كما قال فرانز فانون. ويعمق سارتر هذا المعنى حين يقول: إن لومومبا وقد مات يكفي أن يكون شخصاً ليصبح دولة إفريقية بأسرها.. بإرادتها الوحدوية، وتنوع أوضاعها، ومنازعاتها وقوتها وضعفها:

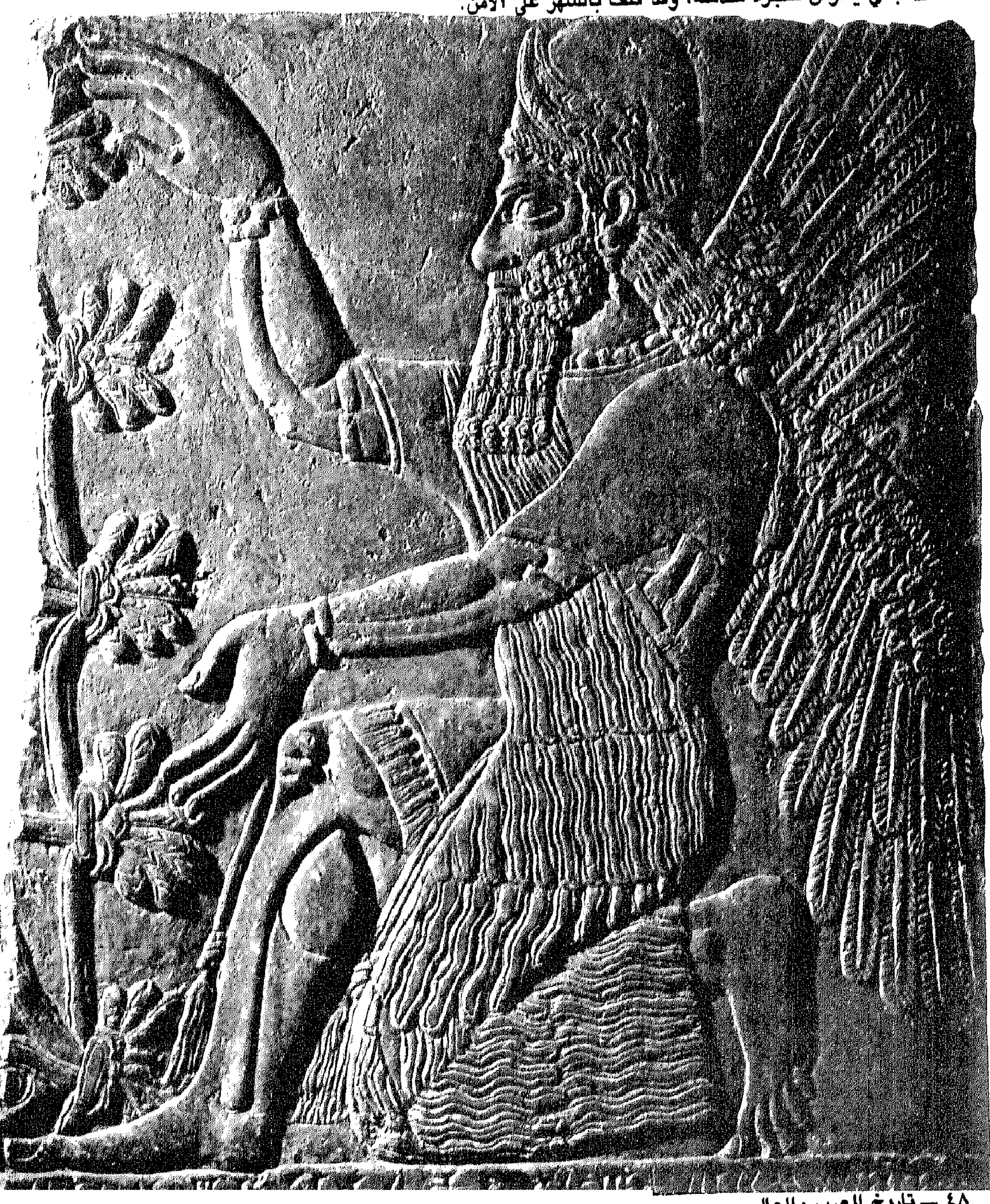
إنه لم يكن، وما كان يستطيع أن يكون بطل الوحدة الإفريقية فأصبح شهيدها.

ولقد كان موت لومومبا، كما قال فرانز فانون، تحذيراً لإفريقية كلها. ذلك أن تاريخه، كما يرى سارتر، قد ألقى النور أمام الجميع على الرابطة العميقة للاستقلال والوحدة والنضال ضد سياسات الانفصال على صعيد القارة، والنضال ضد مؤامرات الاستعمار الجديد.

وإذا كانت إفريقية قد أدركت من معركة الكونغو أن الوحدة كما يقول سارتر، تعني الحرب ضد الانفصالية والاستعمار، فإن معركة الجزائر قد فتحت وعي إفريقية على أن الوحدة تعني: الثورة الاجتماعية على الواقع الفاسد. ●

بلاد ما بين النهرين

□ جني يحرس شجرة مقدسة، وقد كلف بالسهر على الامن.



موضوع

وثروتها الحضارية

د. سامي زكي

ما سمي «بالثورة الحجرية»، لم يحدث دفعة واحدة، بل سلك خطاً بيانياً متحركاً متغيراً، بين الحين والحين، تميز بالتفاعل بين الإنسان وبيئته، حتى بلغ غايته، وذلك خلال أربعة آلاف سنة (التاسع ـ الخامس). وتتميز هذه الفترة بالتدرج ما بين مرحلة الصيد وجني الثمار الطبيعية، إلى تطبيع الحيوانات، فالزراعة، فالإقامة الثابتة. في الألف السابع قبل الميلاد، ظهر السيراميك، على أسس تقنية واضحة. ففي مطلع الألف السادس، عرفت منطقة حسونة على دجلة، تقدماً ملحوظاً، خاصة في مجال الإقامة وبناء البيوت في المناطق الزراعية. وظهر فيها السيراميك، وحوالي عام ٥٠٠٠ عرفت سامراء الأواني الفخارية التي تميزت بحذق تام.

وكان لتطور الري في وديان الأنهار الكبيرة، اثره في التطور الاجتماعي، فقد أتاح ابتكار المحراث واستخدام الحيوانات لجره، للمجتمعات الفلاحية، تطوراً متسارعاً في جنوب العراق. وعرفت الزراعة العبيدية ازدهاراً تكنولوجياً، خاصة في أشغال النحاس.

وحدث تحول عميق في الحقبة المنسوبة إلى (Uruk) (٣٥٠٠ ـ ٣٠٠٠) بظهور حضارة مدنية. فإثر السيراميك الملون العبيدي، ظهر سيراميك ذو لون واحد. وعرفت الأختام الأسطوانية، والمعابد الضخمة، ذات الأساسات الحجرية، وظهرت الألواح الفخارية المكتوبة، بلغة حروفها تبلغ الآلاف.

تجدر الإشارة إلى أن مواقع كثيرة في العراق، تضم آثاراً عديدة، يجري التنقيب فيها، أو البحث عنها لتحديد مواقعها، يتوقع العلماء أن تكشف عن مراحل حضارية، وشواهد، قد تدعم المعطيات الآثارية، أو تضيف جديداً إلى المعروف.

وهذا ما أكدته الحفريات التي ظهرت نتائجها قبل ثلاث سنين، فكشفت عن ألواح تعود إلى الألف التاسع قبل المسيح، وإن لم تفك حروفها حتى اليوم، غير أن الآثاريين، يؤكدون انها ستحدث ثورة في المعارف التاريخية، وخاصة في مجال اختراع الحرف، في مرحلة ما قبل المسمارية.

كنوز متحف بغداد

اغتنت مجموعة متحف بغداد الأثرية، بإيقاع سريع، منذ بداية هذا القرن، إلى حد كان من الضروري معه مرات عدة، إيجاد أماكن جديدة لاحتوائها. عام ١٩٦٣، جمعت الآثار المكتشفة، القادمة من مصادرها مباشرة، في أبنية حديثة، بنيت خصيصاً لها، إذ استخدمت المساحات ومصادر النور، لابراز جمالها. فثمة ستة أقسام تتيح معرفة تاريخ ما بين النهرين، ومشاهدة معالمه: مرحلة ما قبل التاريخ، المرحلة السومرية، البابلية، الآشورية، والفارسية، والإسلامية،تتتابع أمام الزائر. نقدم هنا المرحلتين الأوليين.

لقد لعب الشرق الأدنى دوراً حاسماً في أصول الحضارات. إذ لم يعد ثمة ريب في أن «ثورة العصر الحجري» أي اللمسات الأولى في الزراعة وتربية الحيوانات، نشأت في منطقة التلال المطلة على السهول، في شمال العراق، في وقت واحد مع الهضبة الأناضولية. مرت آلاف السنين قبل أن ينتقل الإنسان من جمع الرزق البدائي، إلى مرحلة الزراعة، ومن الصيد إلى تدجين الحيوانات المتوحشة، التي يبدو أن الخروف، كان أولها، وذلك قبل تسعة آلاف سنة من المسيح، في مناطق شانيدار، والشمال

العراقي، التي بدأ فيها التحضر، بعد مراحل اساسية من تطور الإنسان، متقدمة، في ذلك، على عدة مناطق من الشرق.

الالهة ـــ الأم، ما قبل التاريخية

في مغارة شانيدار، القرية المتاخمة لزاوي ـــ شيمي (Zawi-Chémi) وفي مراكز أخرى من العصر الحجري في شمال العراق، وجدت أدوات هامة، بينها، على نحو خاص، شفرات قاطعة من السبج (حجر زجاجي أسود)، ذات بريق أسود. وقد ثبتت بالقار في شق مقبض من الخشب او الطين المشوي. وهكذا نحصل على مناجل فعالة، ذلك أن السبج حجر بركاني زجاجي، شديد القدرة على القطع.

تدلنا آلات الإنسان الحجري (أي من العصر الحجري) على فعالياته في مجال الصيد والزراعة. ولكن ما هو أثمن، بالقياس إلى عصرنا، شواهد عالمه المقدس، وتطلعاته، ومعتقداته؟ ثمة تماثيل نساء من الطين المشوي أو المرمر، تتيح لنا تمييز مشاعر الإنسان الجوهرية، لأنها تتصل بطبيعته، وبظاهرة التعاقب (البقاء). لقد كانت هذه التماثيل، في العصور الحجرية، بشكلها النسوي المتطور، وبجزئها الأسفل الضخم، كانت في البدء رمزاً لخصب المرأة كما تصورها الرجل لتجسد رغباته، وتؤمن بقاء النوع. ولقد نشأت مذاهب، ونمت حول رموز الخصب هذه، التي استخدمت أحياناً تعاويذ، تعين في الصراع ضد العقم، أو في تيسير الولادة.

ومن سر الإنجاب، الذي لا يتضح فيه دور الذكر، ومن أعجوبة الولادة التي تتجلى فيها الألوهة، ينبثق تدريجياً مفهوم الألوهة النسوية، مالكة الحياة، «الالهة ـــ الأم» التي كانت دائماً اقدم مثل أعلى للإنسانية.

منذ فجر العصور الحجرية، تعلم الإنسان مراقبة المحيط النباتي، وتحقيق الخطوات صوب ظهور الزراعة، فقد استوعب نمو البزرة في باطن الأرض، وقارنها بنمو الطفل في بطن الأم.

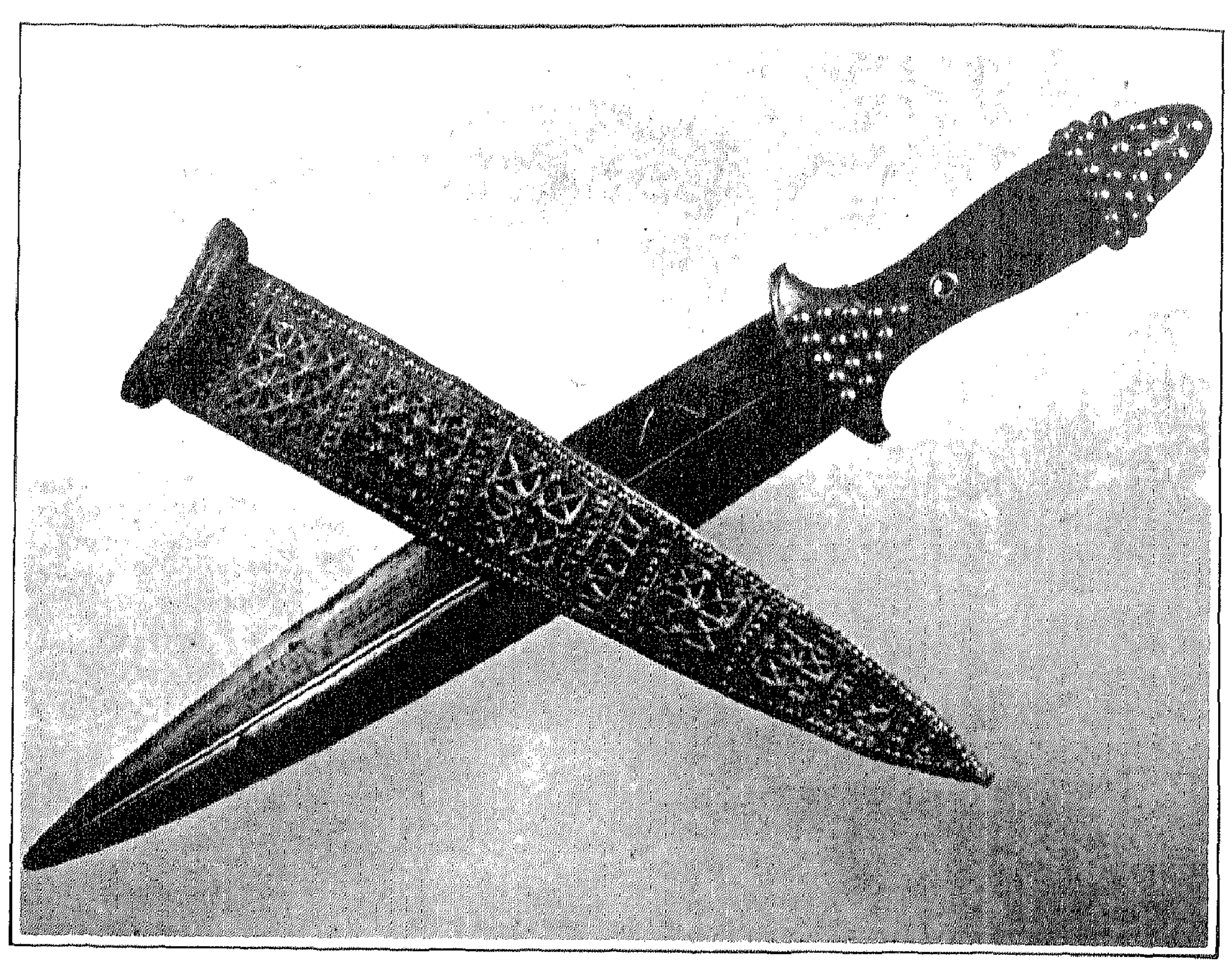
في بلاد ما بين النهرين، وعلى الأراضي التي انقذت من الجفاف، بسقايتها، اغتنت شخصية الإلهة بعناصر جديدة: المبدأ النسوي، خصب الأمومة حتى لدى الحيوان، خصب الأرض. وقد انحدر من مفهوم الالهة، الالهة الجهنمية، إلهة خصب الحقول، وإلهة خصب تجدد النبات، التي كان الناس يحتفون بها بمناسبة العام الجديد. وليست إينانا، وعشتار، وعناة، وأستارتي، وسيبيل، وارتميس، إلا بعض أسماء «الالهة ـــ الأم» التي تداولها سكان العالم الشرقي، خلال ثلاثة آلاف سنة، والتي غدت في العصر الحجري: «الأرض ـــ الأم»، «الالهة ـــ الأرض».

يمثل هذه «الإلهات ـــ الأمهات» في العصر الحجري، في متحف بغداد، تمثال صغير من الطين المشوي. رأسه رأس بشري، ولكن بولغ بالعينين والحواجب، وارتدت الأذنان إلى الخلف، وانحسر أسفل الوجه نحو الأنف. وينفصل الرأس عن الجسم بعنق مزين بعقد. أما اليدان فمشوهتان إلى حد كبير، فهما ضخمتان عند مبدئهما في الجسم، وتختلطان بالكتفين، وتنتهيان بتكتلين منطويين نحو الصدر، تحت ثديين صغيرين جداً. وقد وجد هذا التمثال في تل الصوان، الذي عثر في قبوره على مجموعة تماثيل صغير نسائية، صنعت من المرمر، شديدة الملاسة. أما العيون فصنعت من القواقع، وثقبت، ووضع على الثقوب حصوات شديدة السواد، لتبدو النظرة ثاقبة.

السيراميك

ظهر السيراميك في القرن السابع قبل الميلاد، وما لبث أن أبدع روائعه الفنية، ذلك أن الخيال والحذق صبّا جهودهما في مجال الإبداع والتقنية. والشاهد على هذا الإبداع ما وجد من نماذج في سامراء، وخاصة الأواني.

ومن الروائع الإناء الذي عثر عليه في حسونة، فهو نموذج يتميز بأسلوب خاص، برز في أشكال مختلفة، في أوان عديدة. فانطلاقاً من مساحة مركزية هندسية، تتشعب أشكال، تتجه عكس اتجاه عقارب الساعة. لعل أبرزها قوائم الطيور ذات الحركة الإنسيابية، والتي تتخذ شكل صليب معكوف تقريباً. نحن مع الإناء، تجاه تشكيل، تجب قراءته عبر الفراغ، وعبر العناصر التزيينية، التي توحي بدوران لا نهائي.



□ خنجر من الذهب واللازورد، مع قرابه. يرجع إلى ٢٥٠٠ق.م. وقد وجد في مدافن أور الملكية.

سيد الحيوانات

في نهايات عصور ما قبل التاريخ، ظهرت أقدم الأختام في العالم، في منطقة (Tepe-gaura) شمال الموصل. يظهر على الختم شكل إنسان، تارة قرب حيوانات، سعيدة بقربه، أو قافزاً قفزة الحيوان الذي يصاحبه.

لا ريب أن لهذا النوع من الرسوم، سوابق، تعود إلى يوم كان الإنسان يعيش بين الحيوانات، ويتغذى من الصيد أو جني الثمار البرية. ولعله بعد التطور خلال الحقب، غدا نوعاً من «الساحر» الذي يسيطر على الحيوانات بسحره. والواقع أن ثمة ختماً وجد في تل الأسمر، يظهر فيه شكل الإنسان، محاطاً بالثعابين والغزلان، التي تتبع إشاراته، وتخضع لمشيئته.

وفي الفترة التالية ظهر كذلك نموذج البطل «جلجامش»، مع العلم أن هذا البطل ظهرت عنه منحوتات متأخرة، تطور فيها التزيين مع الاحتفاظ بالموضوع الأساسي، الذي يظهر فيه جلجامش الذي يرضخ الحيوانات، والوحوش، ولا يخشى قوة. ولعل أسطورة هرقل تنطلق من الموضوع ذاته، فهو رمز للإنسان المتفوق الذي لا تقف في وجهه قوة، ولكن امرأة تخضعه في النهاية. ويبدو كذلك أن هذا الرمز، استمر حتى العصور البيزنطية والمسيحية الأولى.

الملك ــ الراهب

مصادر هذا النموذج اسطوانات وجدت في (Uruk). ويتميز بلحية طويلة جدا، وعدم وجود شاربين، وبمنديل يغطي الرأس، وربما كان لضبط الشعر، وبجزة شعر كثيفة على الرقبة. أما الكساء فهو عبارة عن ثوب واحد ينحدر إلى ما تحت الركبة فحسب. ويقوم النموذج بصيد الأسود. غير أنه تطور في ما بعد، وغدا يسيطر على الحيوانات دون قتلها، ويطعم القطعان. ثم أصبح ذلك الذي تقدم إليه القرابين قرب المعابد.



□ غلغامش يسيطر على اسدين. الألف الثالث قبل المسيح.

وغدا في مرحلة تالية، المشرف على المعبد والعبادة فيه.

على كل حال، تعتبر مدينة (Uruk) من أشهر المدن حضارة، فقد كانت عاصمة عدة ممالك، كما وجدت في الحفريات التي جرت في مكانها، ألوان من التماثيل، والنقـوش، والزخارف، تـدل على مراحل حضارية هامة.

وقد عثر في منطقة إيانا في (Uruk) على آثار هندسية رائعـة، ولقد جـاءت معابـدها، التي استوحت معابد أريدو، غاية في الإبداع.

لعل من أبرز آثار (Uruk)، إناء كبيراً ضيقاً في أسفله، ثم يتسع تدريجياً حتى القمة، عليـه طبقات من التزيين، يفصل بينها طبقتان لا تزيين فيهما. تحتل الطبقة النباتية القسم الأسفل وهي توحي بالجمود. بينما الطبقتان التاليتان ترسمان، مشهد حيوانات، ثم مشهد رجال ينقلون أواني فاكهة أو طعـام. وحركـة الحيوانـات، وحركـة الرجال متعاكستان، مما يمنح المشهدين طابع الحركة الدائمة، على عكس جمود النبات. أما

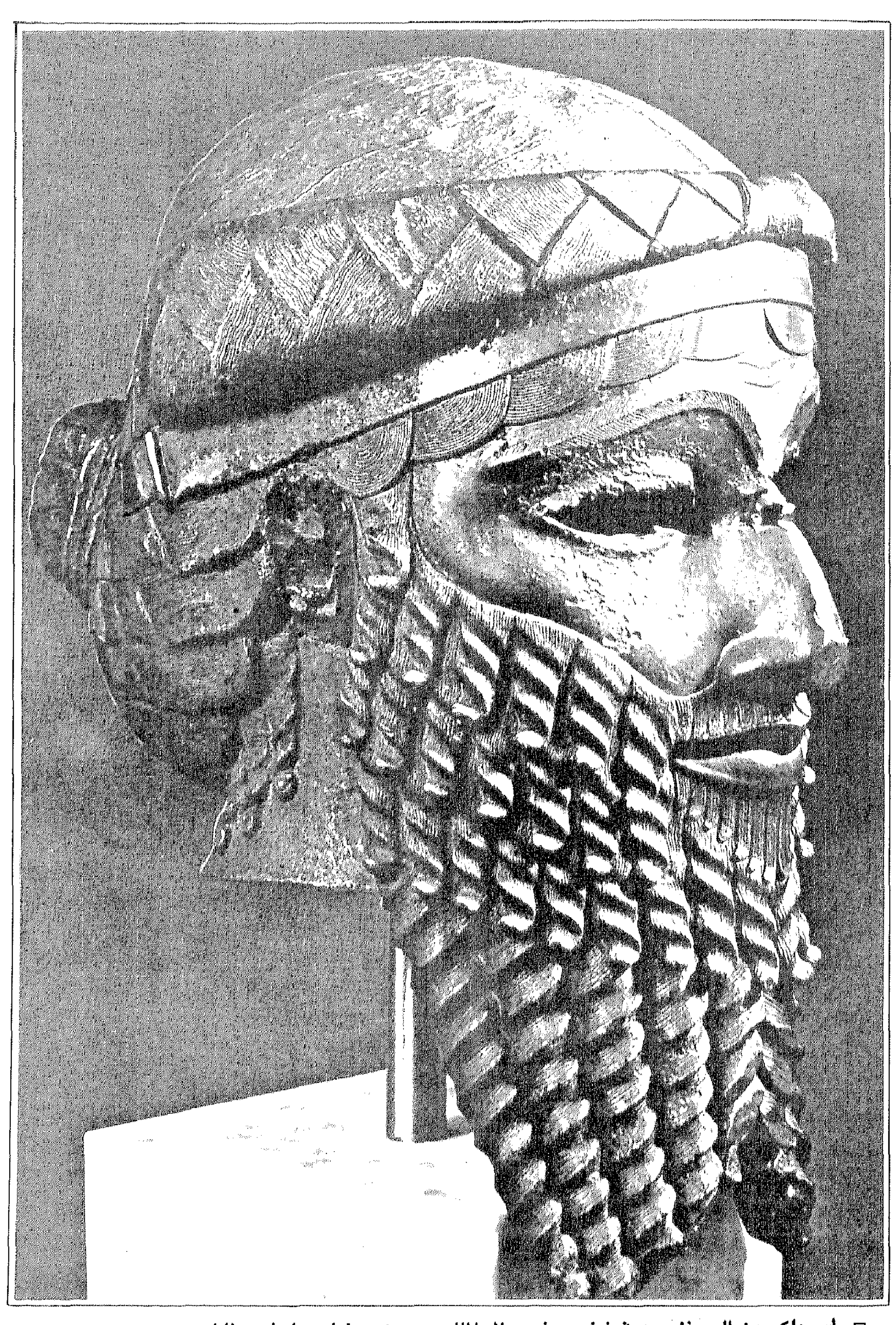


□ من تل اسمر، يضم شكلاً بشرياً، تحيط به حيوانات، خاصة حيّتان.

القسم الأعلى فمخصص لاحتفال ديني، في لقاء الالهة والكاهن الأكبر.

من الواضح أن الكأس (الإناء) كان مكسوراً، وقد رمم بحيث لا يضيع موضوع النقش عليه.

تبرز أهمية هذا الكأس في أنه يجسد علاقة



□ رأس ملكي من البرونز وجد في نينوى. نسب إلى الملك سرجون، بينما هو لحفيده نارام سين.

أديان السومريين بالجانب الحياتي، وموقفهم ومسالكهم من الملوك ورجال الدين. هذا بالإضافة إلى قيمته الفنية الكبيرة، لأنه يمثل مرحلة هامة من مراحل التطور الفني.

وعاء أور

علاقة الخصب بحياة البشر، يعبر عنها الوعاء الخشبي الذي وجد في أور، وقد حفرت على ظاهره مجموعة ثيران تتقدم ببطء وارتياح، وقد اتجهت رؤوسها نحو المشاهد. وجاءت سنابل القمح لتملأ الفراغ خلف رؤوس الثيران.

يمثل هذا الرسم، باتحاد السنابل والثيران لملء الفراغ، رمزاً للذكورة من جهة، وللخصب من جهة ثانية.

سيدة الوركاء

لعل أروع تحفة فنية في هذه المرحلة ـ فجر الألف الثالث قبل الميلاد ـ، هو رأس تلك المرأة، بوجهه الذي يتسم بالصفاء، والجمال، بما فيه من سمة طبيعية، من جهة، وسمة فنية نموذجية. الرأس المرمري هذا، المدعو «سيدة الوركاء»، شاهد على مستوى ما بلغته حضارة السومريين من إبداع، وعلى روعة الفنان الذي صنع الرأس، وخاصة في مجال التناسق الجمالي الكامل.

ولعلنا مع «سيدة الوركاء» نواجه لأول مرة الملامح الطبيعية، بينما التماثيل والنقوش السابقة، تغير الملامح، فالأنف مثلاً يمتد حتى أعلى الجبهة، والخدان قد يغيبان، والأيدي أقرب إلى التشوه.

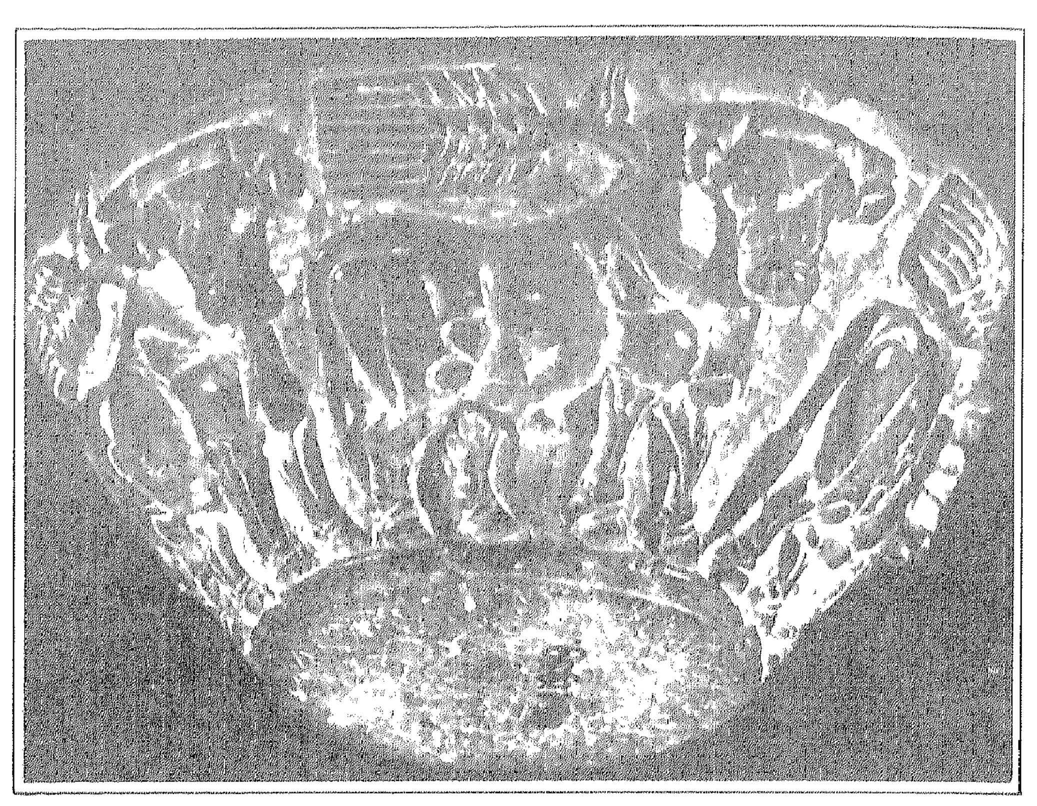
مدافن أور الملكية

كان لاكتشاف مدافن أور الملكية صدى كبير في الأوساط العلمية والمعنية بالآثار والفن على السواء. فقد سارعت حملات، بعد الاكتشاف عام ١٩٢٢، إلى التنقيب والبحث. وقد دلت كل المكتشفات على عبقرية الصاغة الذين صنعوا تلك التحف التي عُثِر عليها.

من بين ألف وثمانمائة قبر، ستة عشر فحسب، ضمت صنوفاً من البدائع والثروات التي لا تقدر بأثمان، وكانت لها دلالات دقيقة وعلمية، على العادات والتقاليد، التي كانت مجهولة حتى ذلك



□ كأس (Uruk) من أشهر الآثار. وهو يمثل مراحل متعددة من الحياة، تشير إلى ذلك رموزه المتعددة.



□ وعاء اور الخشبي، ويعتبر نموذجاً لمرحلة فنية متطورة.

الوقت، خاصة في ما يتصل بدفن الموتى من نسب ملكي.

كان الميت ينزل في الحفرة مع كل الأدوات التي صحبت نشاطاته وملاهيه. أما الملوك والملكات والأمراء، فوجدوا في قبو مفصول عن القبر، في تابوت مزخرف، زخرفة أسطورية. وقد أغلق المدخل. أما القرابين فقد وضعت في قسم آخر من القبر «حفرة الموت».

أما الكنوز التي وجدت في تلك القبور فمذهلة فعلاً، وعلى مستوى الاكتشاف العلمي. فثمة آلات موسيقية رائعة، أبدعها القيثارة (Le lyre) المزيّن أعلاها برأس ثور من الذهب، منحوت نحتاً بديعاً جداً. وقد صنعت عيناه الكبيرتان من اللازورد. وارتفع القرنان عمودياً تقريباً، مع انحناءة نصف دائرية تقريباً. أما اللحية فانحدرت تحت الذقن على شكل مروحة. أما قفص القيثارة فمن خشب مزين بالصدف على نحو لوحة من الموزاييك، مع حجارة حمراء، ولازوردية، وتطعيم بالذهب.

ومن الكنوز الفخمة طاسة حرب الأمير مسكالام ــ دوغ. ويقال إنها كانت للزينة في الحفلات لا للحرب. وهي مصنوعة على حجم الرأس، من الذهب، المنحوت نحتاً بارعاً، على شكل نقوش لطيفة. ولها إطار عند الجبهة، يشبه العصابة، تنتهي في المؤخرة بلفة، يبدو أنها كانت تضم شعر الأمير الملفوف خلف رأسه. أما الأذن فمثقوبة لتترك المجال للسمع. والطاسة مصنوعة من ورقة ذهب واحدة.

ومن الروائع كذلك، زينة لرأس إحدى الملكات، كلها من الذهب، وقد صنعت على شكل قبعة، تخرج من طرفها الأعلى ثلاث زهرات. أما قسمها الأسفل، حول الرأس والجبهة وقسم من الخدين، فمكون من أوراق الأشجار (الغار على الأغلب). وعند أعلى الجبهة طوق من الذهب المطعم، ذو حلقات ذهبية. وقد وجدت أقسام من هذه الزينة، وضاعت أقسام، ولكن الأثريين استطاعوا ترميمها، وإخراجها على الشكل الذي كانت عليه.

ويبدو أن هذه التحف كانت متعة من متع الملوك، لذلك كانت العناية بها فائقة. ولعل من أبدعها القناع الملكي البرونزي. وهو عبارة عن قناع يغطي الوجه والرأس، ويتدلى تحت الذقن على شكل لحية مجعدة مقسومة إلى قسمين في طرفها الأسفل هذه الكنوز، وغيرها كثير، جعلت العلماء يؤكدون أن سومر عرفت أعرق الحضارات القديمة، فالمستوى الفني الذي بلغته، لا يضارعه مستوى، في ما عرف، في العالم كله، في تلك العصور. •

باب الواد

باب الواد ممر يربط السهل الساحلي بجبال القدس وتؤدي إليه وتتشعب منه طرق القدس والرملة وبيت جبرين وعرطوف وغزة ورام‌الله. ويشتمل الموقع على وادي علي ومداخله، والهضاب المطلة عليه، والقرى القريبة منه، كعمواس واللطرون وتل الجزر وأبو شوشة وبيت نوبا ويالو.

ولباب الواد أهمية عسكرية عظيمة، فهو مفتاح مدينة القدس، دارت فوق أرضه معارك كبرى على مر القرون. عنده صدّ صلاح‌الدين الأيوبي غارات ريكاردوس قلب الأسد أواخر القرن الثاني عشر الميلادي. وفي موقعه وقف المقدسيون في وجه جيش إبراهيم باشا سنة ١٨٣٤م، ودارت فوق أرضه معارك دامية بين الجيش التركي والجيش الإنكليزي سنة ١٩١٧.

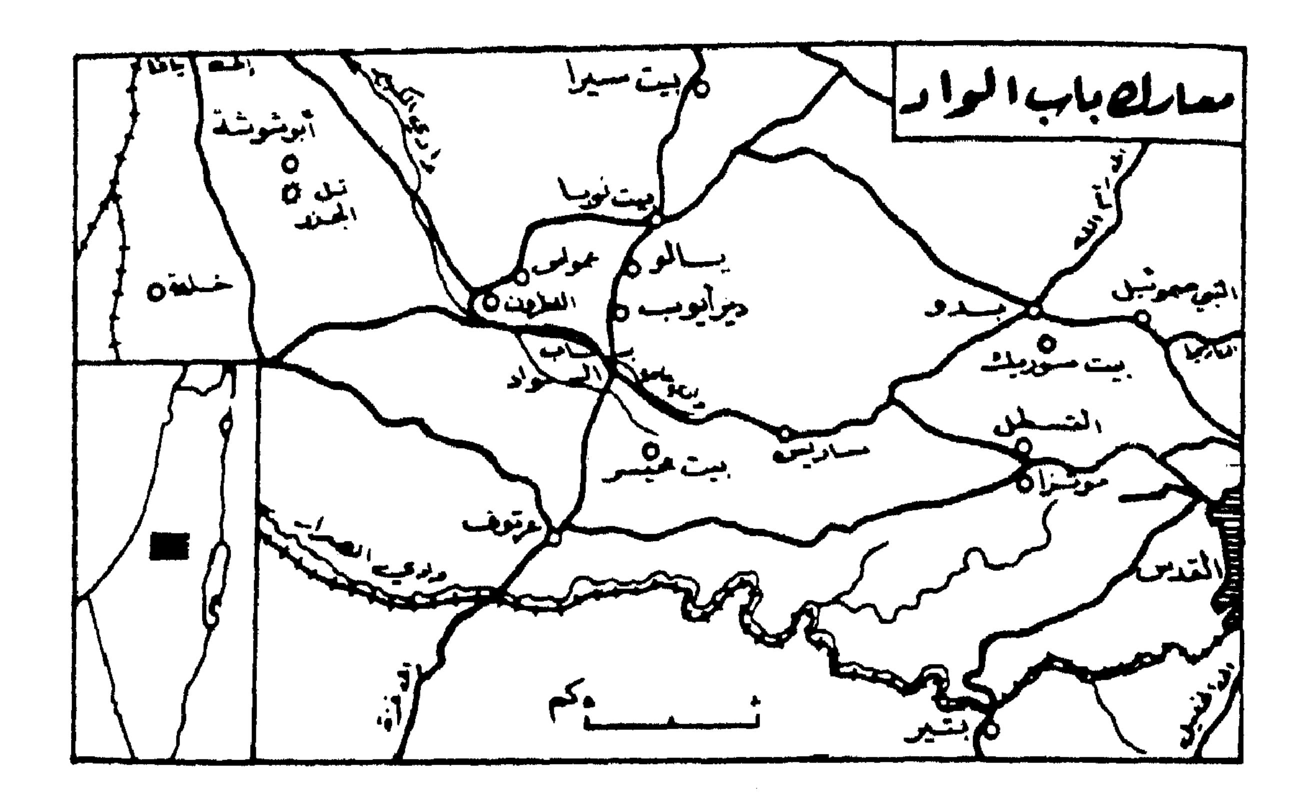
وقد فطن العرب والصهيونيون إلى أهمية موقع باب الواد منذ اللحظات الأولى بعد صدور قرار التقسيم عام ١٩٤٧. وتهيأ الصهيونيون لغزوه من السهل الساحلي لضمان مرور قوافلهم إلى القدس. وعمل العرب بالمقابل على قطع الطريق عليهم، فتنادوا لشراء السلاح، وتجمع المقاتلون من قرى عمواس ويالو ودير أيوب وبيت نوبا وبيت محسير وساريس وغيرها. وكان عددهم في البداية ٣٠٠ مناضل بينهم الشيخ هارون بن جازي أحد شيوخ قبيلة الحويطات في شرقي الأردن وقوة من رجاله المتطوعين، وقد انضووا تحت لواء قوات جيش الجهاد المقدس بقيادة عبدالقادر الحسيني.

كان أول عمل قامت به القوات العربية تخريب الطريق هناك، وإتلاف الأنابيب التي تمد الأحياء اليهودية في القدس بمياه الشرب من رأس العين. وأخذ العرب بعد ذلك يتصدّون للقوافل الصهيونية المحروسة التي تمر بباب الواد مرة في الأسبوع، ويوقعون بها الخسائر الفادحة، أو يمنعونها من متابعة طريقها.

ففي ١٩٤٨/٣/١ هاجم المناضلون العرب قافلة صهيونية، وقتلوا أربعة من رجالها، وجرحوا ثمانية، وأعطبوا إحدى السيارات. وفي اليوم الثالث من آذار دمروا سيارتين صهيونيتين كبيرتين عند حوض الماء القريب من مقام الشيخ علي، وقتلوا خمسة عشر صهيونياً. وفي اليوم التالي هاجموا قافلة صهيونية، وقتلوا أربعة من رجالها، وكادوا يقضون عليها لولا تدخل الجنود البريطانيين.

فجّر العرب الألغام تحت السيارات الصهيونية يومي ١٢ و ١٣ آذار، وقتلوا خمسة من ركابها. وفي ١٧ آذار اشتبكوا مع الصهيونيين عند بئر الحلو على الطريق المؤدية إلى باب الواد وأعطبوا مصفحة صهيونية. ثم هاجموا في ١٩ آذار قافلة صهيونية من تسع سيارات قادمة من عرطوف، وقتلوا ١٥ رجلاً، وأعطبوا مصفحة للحراسة في المقدمة، وغنموا كمية من الأسلحة. وفي ٢٢ آذار أعدّ العرب كميناً لقافلة قادمة من تل أبيب، وأشعلوا النار في سيارتي مؤن وقتلوا سائقيهما، كما أعطبوا سيارة ثالثة وجرحوا السائق ومساعده.

ومع اشتداد الهجمات العربية في باب الواد شعر يهود القدس بوطأة الحصار وقلة المؤن، فاستنجدوا بسلطات الانتداب التي وضعت في عرطوف قوة بريطانية من نحو ٢٠٠ جندي لحماية القوافل الصهيونية. وقد استطاع



الصهيونيون منذ ٢٣ آذار أن يسيّروا قوافلهم في ظل هذه الحماية البريطانية، وأنجدوا صهيونيي القدس بحوالي ١,٥٠٠ مقاتل.

ظلت عمليات بث العرب الألغام مستمرة ليلاً. وقد قتل بنتيجتها في ٢٤ آذار ١٢ صهيونياً، وجرح ٣٠ آخرون، ودمرت ثلاث سيارات، وأعطبت ثلاث.

حاولت القوات الصهيونية ليلة ٣١ آذار احتلال التلال المشرفة على باب الواد والتمركز فيها لحماية قافلة قادمة عن طريق وادي الصرار. لكن المناضلين من سكان القرى المجاورة تنادوا للقتال، وانقضّوا على القافلة وحماتها قرب مستعمرة خلدة، واشتبكوا مع الصهيونيين في قتال عنيف دام طوال ذلك النهار وانجلى عن عدد كبير من القتلى والجرحى من الطرفين. ورغم خسارة العرب الأكثر في الأرواح استطاعوا دحر الصهيونيين وإعادتهم إلى خلدة، وغنموا بعض سيارات القافلة.

اشتبك الفريقان يوم ١٩٤٨/٤/١ في القطاع الممتد بين ساريس وباب الواد، ثم اشتبكا ثانية في اليوم التالي. وقد خسر الصهيونيون في هذين اليومين حوالي ٦٠ رجلاً بين قتيل وجريح. وكانت محاولاتهم السيطرة على باب الواد مستميتة في الأيام الثلاثة ليمنعوا وصول النجدات العربية إلى القسطل من الغرب. وقد نجحوا في ذلك، وسقطت القسطل بأيديهم صباح يوم ٣ نيسان. وكان ذلك كله جزءاً من عملية سموها «عملية نحشون» تهدف إلى السيطرة على باب الواد واحتلال القرى العربية على جانبي الطريق من باب الواد إلى القدس. وقد احتلوا دير ياسين يوم ٩ نيسان، وقرية ساريس يوم ١٦ نيسان. وبذل العرب الكثير في مقاومة القوات الصهيونية المتفوقة تنظيماً وتسليحاً وعدداً.

وفي ١٦ نيسان قدمت من تل أبيب قافلة مؤن مؤلفة من حوالي ٢٥٠ سيارة تحرسها أعداد كبيرة من الجنود والمصفحات. وقد كمن لها المناضلون العرب من أبناء القرى المجاورة تساعدهم قوة من رجال الجهاد المقدس بقيادة احمد زونا، وقوة من البدو بقيادة الشيخ هارون بن جازي. ولما وصلت القافلة إلى قرية دير ايوب على بعد كيلومتر واحد من باب الواد أطبق عليها المناضلون بعد أن سدّوا في وجهها الطريق بالحجارة وبثّوا الألغام. دامت المعركة من شروق الشمس حتى الساعة الرابعة بعد الظهر. وسقط فيها عدد من القتلى في الجانبين. وانتهت المعركة لصالح العرب، واستطاعوا تدمير وإعطاب زهاء

٦٠ سيارة، واستولوا على ١٥ سيارة أخرى وكمية من الأسلحة.

لكن الصهيونيين تابعوا دفع القوافل على طريق باب الواد. وقد مرت قافلة لهم يوم ١٧ نيسان دون أن يستطيع العرب التعرض لها بشكل حاسم. وتمكنت قافلة أخرى من المرور إلى القدس يوم ٢٠ نيسان بعد أن كبّدها المناضلون خسائر فادحة. بعد ذلك نشط المناضلون لسد الطريق سدّاً محكماً بالحجرة الضخمة، وحفروا في عرض الطريق ثلاثة خنادق يبعد الواحد عن الآخر ١٥٠ متراً وعرض الخندق متران، وعمقه متر. وقد انتهوا من ذلك كله مساء يوم ٢٥ نيسان ورابطت هناك قوة من رجال الجهاد المقدس والمتطوعين البدو. وبذلك أغلقت طريق باب الواد إغلاقاً تاماً في وجه القوافل الصهيونية.

في الوقت نفسه كانت طريق الخليل ــ القدس، وطريق رام‌الله ــ القدس، وطريق أريحا ــ القدس مغلقة في وجه الصهيونيين. لذلك أصبحت مدينة القدس محصورة من جهاتها الأربع، فاستولى اليأس على صهيونيي القدس، وأخذت القيادة الصهيونية تعدّ لضربة قوية تفتح بها طريق باب الواد. وبالمقابل أخذت قيادة الجهاد المقدس تستعد لمجابهة الأعداء وصدّ ضربتهم، فدفعت قوات جديدة إلى الميدان، وانضمت إليها في الخامس من أيار فصائل من جيش الإنقاذ بقيادة المقدم محمد مهدي صالح العاني (عراقي) مسلحة بمدفعين من عيار ٦ بوصات. وانضمت إلى هذه القوات جموع كثيرة من أبناء قرى المنطقة، وتولى القيادة المقدم العاني.

بدأت المعركة المترقّبة يوم ١٠ أيار عندما قذف الصهيونيون إلى أرض المعركة قوات كبيرة جاءت من القدس والمستعمرات اليهودية في المنطقة، وتمركزت في الأحراج الممتدة بين ساريس وباب الواد، وحاولت رفع السدود وفتح الطريق. وقد تصدّى لها المقاتلون العرب، وقصفتها مدفعية جيش الإنقاذ بشدة. وحتى يخفف الصهيونيون الضغط على قواتهم قاموا بهجوم مخادع على المرتفعات الواقعة بين بيت سوريك وبدّو والنبي صموئيل في قضاء القدس، لكنهم ردوا على أعقابهم.

أخذ الموقف يميل إلى صالح العرب الذين خاضوا المعارك بمعنويات عالية. وقد أذاعت قيادة جيش الإنقاذ في ١٣ أيار بياناً جاء فيه أن معركة باب الواد ما برحت مستمرة، وأن الحرب تدور في صالح العرب، وأن مراكز الدفاع الصهيونية قد انهارت، وأن الصهيونيين خسروا حتى ذلك الوقت ٣٠٠ قتيل بينهم قائد المعركة، وأن العرب غنموا ١٥٠ بندقية، وست مصفحات وعدداً من الأجهزة اللاسلكية، وأنهم دمّروا وأعطبوا عدداً آخر من المصفحات والسيارات.

انتهت المعركة في ١٣ أيار بفشل ذريع مني به الصهيونيون وتراجعت قواتهم عن باب الواد. وظلّ رجال الجهاد المقدس وجيش الإنقاذ يتمسكون بموقع باب الواد حتى ١٥/٥/١٩٤٨ حين تسلم الموقع الجيش الأردني. •

المرجع: عارف العارف: النكبة، بيروت ١٩٥٦.



عباس بن فرناس (ت ٨٨٧)

● مخترع اندلسي من موالي بني أمية. كان فيلسوفاً شاعراً. له علم بالفلك. اتهم في عقيدته، أول من استنبط في الأندلس صناعة الزجاج من الحجارة، صنع الميقاتة لمعرفة الأوقات، ومثل في بيته السماء بنجومها وغيومها وبروقها ورعودها. أراد أن يطير بجسده، فكسا نفسه بالريش ومد له جناحين، ولكنه سقط. ويعتبر أول من طار في الجو. ولشعراء عصره شعر في وصف سمائه وطيرانه.

تمثل رسائل جواهر لال نهرو التي وجهها من سجنه إلى ابنته أنديرا، والبالغة ١٩٦ رسالة، محطات تاريخية مهمة، نسترجع من خلالها نموذجاً من رؤية تاريخية للعلاقة بين الشرق والغرب، وكيف يتمثل تاريخ الاستعمار وتاريخ العالم الثالث في فكر أحد أبرز قادة ذلك العالم وأحد مؤسسي منظمة دول عدم الانحياز.

والرسالة التي نحن بصددها، تعكس سعة أفق ذلك الزعيم وحسن فهمه للأحداث التاريخية والظواهر الاجتماعية.

الفتح العربي من إسبانيا إلى منغوليا

جواهر لال نهرو



□ نهرو.

كان النبي محمد (صلعم)، مثل مؤسسي بعض الأديان الأخرى، ثائراً ضد كثير من العادات الاجتماعية الموجودة. وقد استهوت بساطة الدين الإسلامي الذي دعا إليه ومباشرته وديمقراطيته ومساواته عامة الناس في الأقطار المجاورة ممن حطمهم وطحنهم الملوك المستبدون والقساوسة المتغطرسون المستبدون أيضاً.

فالناس في عصر النبي محمد (صلعم) كان قد أنهكهم النظام القديم وضاقوا ذرعاً به حتى باتوا مستعدين لتقبل أي تغيير. وقد أهدى الإسلام إليهم هذا التغيير الذي تلقوه مرحبين به، ذلك لأنه ارتقى بهم من نواح عدة، ووضع نهاية لكثير من المفاسد والشرور القديمة.

وفي خلال ربع قرن من وفاة نبيهم، فتح العرب كل بلاد فارس والشام وأرمينية، وبعض آسيا الوسطى، وجزءاً من شمال افريقية غرباً.

وقد استولى العرب على مصر بسهولة لأنها كانت قد قاست أكثر من غيرها من استغلال الامبراطورية الرومانية ومن صراع المنافسة بين المذاهب المسيحية.

وهناك قصة تروى عن حرق العرب لمكتبة الإسكندرية الشهيرة، ولكن الاعتقاد الآن أن هذه القصة كاذبة لا أساس لها من الصحة. ولما كان حب الكتب والولع بها مما يؤثر عن العرب فلا يمكن أن يعقل أنهم تصرفوا في مكتبة الإسكندرية بهذا الأسلوب البربري. ومن المحتمل، على أية حال، إن امبراطور القسطنطينية «ثيودوسيوس» هو الذي ارتكب

جريمة حرق مكتبة الإسكندرية أو حرق جزء منها، نقول ذلك لأن جزءاً من المكتبة كان قد اتلف من قبل أثناء حصار الإسكندرية في عهد يوليوس قيصر. «فثيودوسيوس» لم يستصوب كتب الإغريق القدماء الجاهليين التي تتحدث عن الأساطير والفلسفات الإغريقية القديمة. ولهذا يقال إنه استعمل هذه الكتب وقوداً لتسخين حماماته.

وقد استمر العرب في تقدمهم شرقاً وغرباً. ففي الشرق سقطت هرات وكابول وبلخ في أيديهم.

وقد وصلوا في هذا الاتجاه إلى بلاد السند ولكنهم لم يتقدموا في الهند وراء ذلك، وظلت صلاتهم لبضع مئات من السنين بالحكام الهنود على خير ما تكون الصلات مودة وصداقة.

وفي الغرب ظلوا يتقدمون ويتقدمون، ويقال إن قائدهم عقبة أتى إلى شمال إفريقية، وتقدم في هذا الاتجاه حتى وصل إلى المحيط الأطلسي على الشاطىء الغربي لما يعرف الآن بمراكش. ويقال أيضاً أنه شعر بخيبة أمل حينما وجد المحيط الأطلسي يقف حجر عثرة في طريق تقدمه، وأنه ركب البحر وأوغل فيه على قدر ما استطاع ثم شكا بثه وحزنه إلى الله لعدم وجود أرض أخرى في هذا الاتجاه فيفتحها باسم الله وفي سبيله!.

ومن مراكش وافريقية عبر العرب إلى اسبانيا وأوروبا، المضيق الذي كان يسميه الإغريق القدماء «أعمدة هرقل».

واسم القائد الذي عبر إلى أوروبا هو «طارق»، ولهذا أطلق على الجبل الذي نزل عنده باسبانيا «جبل طارق» ذكرى لهذا القائد العربي.

وقد تم فتح اسبانيا بسرعة عجيبة، ومنها تدفق العرب إلى جنوب فرنسا.

وهكذا لم يمض على وفاة النبي محمد (صلعم) مائة سنة، حتى كانت الامبراطورية العربية قد امتدت من جنوب فرنسا واسبانيا فشمال افريقية إلى مصر، وعبر بلاد العرب إلى الفرس وآسيا الوسطى حتى حدود منغوليا. ولم يدخل من الهند في هذه الامبراطورية غير السند.

وقد غزا العرب أوروبا من جهتين: غزوها في القسطنطينية مباشرة، وفي فرنسا عن طريق



□ انديرا غاندي.

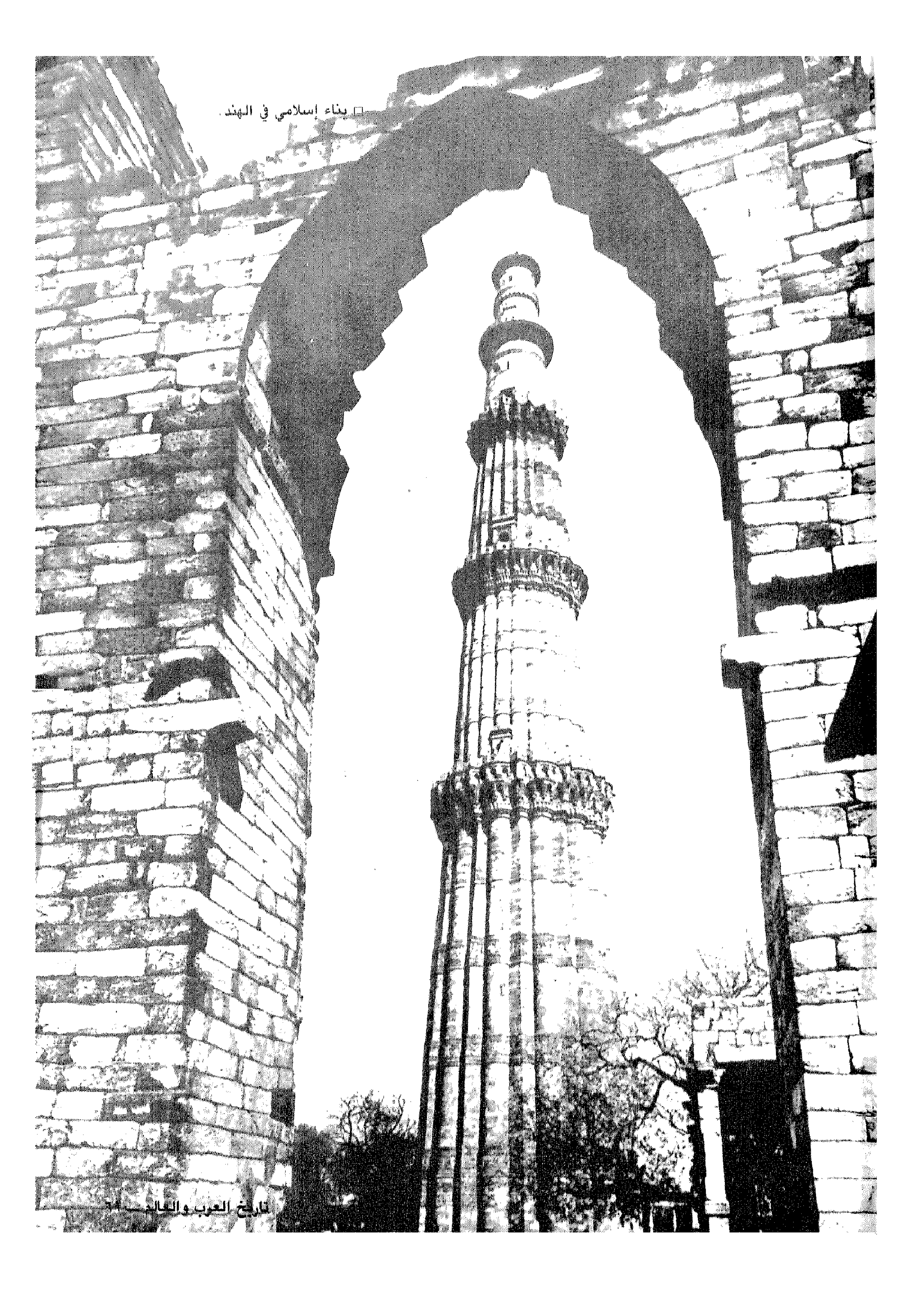
افريقية. وفي جنوب فرنسا كان العرب قليلي العدد، وكانوا بعيدين عن موطنهم الأصلي. ولهذا لم يستطيعوا الحصول على مساعدة تذكر من الجزيرة العربية لانشغالها وقتئذ بفتح آسيا الوسطى. ومع ذلك فقد استطاعت هذه القلة من العرب في فرنسا أن تخيف أهل أوروبا الغربية، ولهذا كونوا حلفاً كبيراً لمحاربتهم.

وكان شارل مارتل هو قائد هذا الحلف. وقد استطاع في سنة ٧٣٢ ميلادية أن ينتصر على العرب في موقعة «تور» في فرنسا.

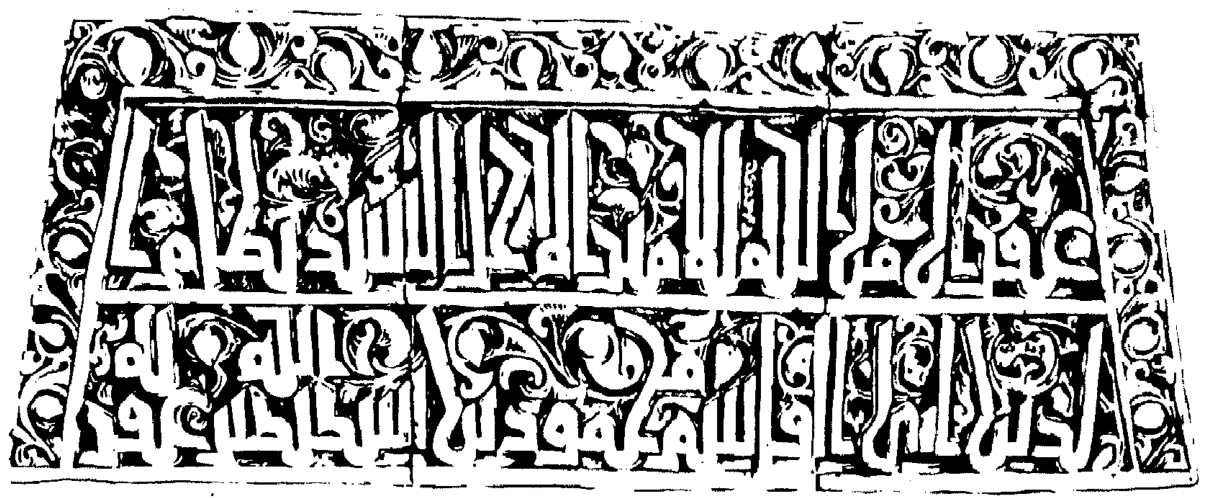
ويشير أحد المؤرخين إلى نتائج هذه المعركة فيقول: «لقد خسر العرب في سهول تور امبراطورية العالم، وقد كادت تكون في قبضة أيديهم».

ومما لا ريب فيه أن العرب لو أتيح لهم أن ينتصروا في تور لكان التاريخ الأوروبي قد تغير تغيراً كبيراً، ولما كانت هناك قوة أخرى في أوروبا تقف أمام تقدمهم، ولكان في استطاعتهم أن يواصلوا زحفهم حتى القسطنطينية، وأن يضعوا نهاية للامبراطورية الرومانية الشرقية وللدول الأخرى التي تأتي في طريقهم. وليس ذلك فحسب، بل كان الإسلام قد حل محل المسيحية، وأصبح دين أوروبا، وكانت قد حدثت أنواع أخرى من التغيرات.

ليس هذا إلا شطحة من شطحات الخيال، ولهذا أعود فأقول: لقد أوقف زحف العرب في



□ بناء إسلامي في الهند.



□ كتابة كوفية على الناووس الحجري للسلطان محمود الغزنوي، مؤسس السيادة الإسلامية في الهند.

فرنسا، ولكنهم بعد ذلك بقوا في اسبانيا وحكموها بضع مئات من السنين.

وقد انتصر العرب من اسبانيا إلى منغوليا، وأصبح هؤلاء البدو الذين أتوا من الصحراء حكام امبراطورية عظيمة. لقد كانوا يسمون سكان الصحارى، ولكن سرعان ما ألف سكان الصحارى هؤلاء حياة الترف والمدن، وسرعان ما انتشرت القصور في مدنهم.

وعلى الرغم من انتصاراتهم في أقطار بعيدة، فإنهم لم يستطيعوا التخلص فيما بينهم من عادة التشاحن والقتال القديمة عندهم. وبطبيعة الحال كان لديهم شيء يستحق التناحر عليه والقتال من أجله وهو رئاسة الجزيرة العربية التي كانت تعني التحكم في امبراطورية شاسعة الأطراف. ومن ثم كان هناك صراع وحروب للاستيلاء على منصب الخلافة.

وهذا الصراع وهذه الحروب التي قامت بين الأسر والقبائل أدت إلى انقسام المسلمين إلى طائفتين كبيرتين: طائفة السنيين، وطائفة الشيعيين واللتين لا تزالان موجودتين حتى اليوم.

وسرعان ما نشأ الخلاف بعد انتهاء عهد الخليفتين أبي بكر وعمر. فعلي بن أبي طالب زوج فاطمة بنت (النبي) محمد (صلعم) آلت إليه الخلافة لعهد قصير. ولكن الصراع ظل مستمراً، فقتل علي، ومن بعده بقليل قتل ابنه الحسين وأسرته في كربلاء.

ومأساة كربلاء هذه هي التي يبكيها المسلمون، ولا سيما الشيعيين منهم في شهر المحرم من كل عام. ثم نرى الخليفة بعد ذلك يصبح ملكاً مطلقاً بدون انتخاب أو طريقة ديمقراطية. والذي كان يحدث هو أنه كان يتبوأ الملك كما يتبوؤه أي ملك في عصره. ونظرياً استمر ينظر إليه أيضاً على أنه الرئيس الديني وأمير المؤمنين. ولكن بعض هؤلاء الحكام كانوا في الحقيقة سبة للإسلام الذي كان مفروضاً فيهم أن يكونوا حماته الأعلين.

ولقد صارت خلافة المسلمين لمدة قرن تقريباً للأمويين. وهؤلاء اتخذوا من دمشق عاصمة لهم، وبذلك أصبحت هذه المدينة القديمة جميلة جداً تزينها القصور والمساجد ونافورات المياه والجواسق الخشبية داخل الحدائق، كما اشتهرت بنظام تزويد منازلها بالماء.

وخلال هذه الفترة استحدث العرب ورقوا طرازاً خاصاً من العمارة عرف فيما بعد بفن العمارة العربية. وهذا الفن الذي استحدثه العرب في هندسة البناء ليس نوعاً من الحلية أو الزينة، وإنما هو فن بسيط جميل لا يملك المشاهد له إلا أن يعجب به. والفكرة من وراء فن البناء العربي هي النخلة الجميلة التي تنمو في الشام وجزيرة العرب. فالأقواس والأعمدة والمآذن والقباب، تذكر الإنسان بتقوس وتقبب جماعات النخيل، وقد أتى فن البناء العربي إلى الهند، ولكنه تأثر فيها بالأفكار الهندية، ونشأ عن ذلك طراز جديد مختلط. ولا يزال يوجد حتى اليوم في اسبانيا آثار لأجمل وأبدع نماذج فن البناء العربي.

ونتيجة للامبراطورية وثرائها شاع في المجتمع العربي فنون من الترف والرفاهية والمتعة. فسباق الخيل كان إحدى الرياضات المحببة لدى العرب. وكذلك الصيد ولعبة الكرة على الخيل Polo والشطرنج. وقد نما لديهم ولع بالموسيقى على طراز حديث، وبخاصة الغناء. ولهذا كانت عاصمة الخلافة تموج بالمغنين وتوابعهم والمتطفلين عليهم.

وقد حدث في محيط المجتمع العربي تغير آخر كبير، ولكنه لم يكن تغير إلى الأحسن. وكان هذا التغير خاصاً بالمرأة.

فالمرأة العربية لم تكن تعرف الحجاب في أية صورة من صوره، فلم تعش في عزلة أو مخبأة عن أعين الغير. لقد كانت تسير بين الناس وتذهب إلى المساجد وتتردد على مجالس العلم. ومن نساء العرب من كن يجلسن أحياناً مجالس العلماء ويلقين دروساً في العلم.

ولكن نجاح العرب جعلهم يقلدون بعض عادات الامبراطوريتين القديمتين المجاورتين لهم، وأعني بذلك الامبراطورية الرومانية الشرقية، والامبراطورية الفارسية. فالعرب قد هزموا الامبراطورية الأولى، وقضوا على الامبراطورية الثانية، ولكنهم أنفسهم استسلموا وخضعوا لبعض ما كان يشيع في هاتين الامبراطوريتين من العادات القبيحة. ويقال إن عزلة المرأة العربية واختفاءها من مجتمعها يرجع بوجه خاص إلى تأثير القسطنطينية والفرس في المحيط العربي.

ونتيجة لذلك بدأ نظام «الحريم» يظهر شيئاً فشيئاً، كما بدأ اجتماع الرجل بالمرأة، والتقاء أحدهما بالآخر في المجتمعات العامة يقل شيئاً فشيئاً.

ومما يؤسف له أن عزلة المرأة العربية هذه أصبحت مظهراً من مظاهر المجتمع الإسلامي.

وقد تعلمت المرأة الهندية هذه العزلة أيضاً من المسلمين عندما أتوا إلى الهند.

وإني لأعجب غاية العجب أن أرى أنه لا يزال هناك من يقاسون ويعانون من هذه البربرية في صمت، دون أن يتألموا أو يضجوا بالغضب والشكوى.

وكلما فكرت في النساء المحجبات، وقد قضى عليهن بالعزلة عن العالم الخارجي، خيل إليّ أني أفكر في سجن أو حديقة حيوان! وكيف يقدر لشعب أن ينطلق متقدماً إلى الأمام إذا كان نصفه يعيش في عزلة أشبه بالسجن؟

ولكن مما يدعو إلى الأمل والتفاؤل أن الهند قد بدأت بسرعة تمزق الحجاب وتقضي عليه، كما ظهرت بوادر في المجتمع الإسلامي تدل على التخلص من هذا العبء الفظيع على نطاق واسع. ففي تركيا وضع مصطفى كمال نهاية للحجاب. كذلك بدأ الحجاب في مصر يختفي بشكل سريع ويحل محله السفور.

ولا يفوتني قبل أن أختم رسالتي إليك أن أشير إلى نقطة بالغة الأهمية والدلالة. فالمأثور عن العرب أنهم كانوا في بدء نهضتهم متحمسين غاية التحمس للدين، ولكنهم مع تحمسهم هذا كانوا متسامحين مع مخالفيهم في العقيدة. وهناك أمثلة عديدة على تسامحهم الديني. وقد أكد الخليفة عمر بن الخطاب هذا التسامح وأوصى به مرة في بيت المقدس، وفي أيام حكم العرب في اسبانيا كان جزء كبير من سكانها مسيحيين، وكانوا يتمتعون كل التمتع بحرية العبادة والعقيدة. وفي الهند لم يمتد حكم العرب إلا على السند، ولكن نشأت اتصالات كثيرة بينهم وبين سكان الهند، وكانت هذه الاتصالات قائمة على أساس المودة والصداقة. وفي الحق أن أكثر ما يلاحظ على هذه الفترة من التاريخ هو المقابلة بين تسامح العرب المسلمين، وتعصب المسيحيين في أوروبا.

تصحيح

● وقع سهواً في العدد السابق (٩٩ ــ ١٠٠)، من حيث ذكر اسم د. رياض العالي للمقال: «بصمات مريرة في أيام مريرة ١٩١٤ ــ ١٩١٨» بدلاً من اسم الآنسة أمل نورالدين التي قامت هي بإعداد المقال. ولهذا وجب التصحيح.

حضارة العمرة

تعتبر المرحلة الأولى من حضارات ما قبل الأسرات في مصر

د. إبراهيم رزقانة



حضارة مصرية تمثل المرحلة الأولى من عصر ما قبل الأسرات حوالي سنة ٥٠٠٠ق.م، تنسب إلى بلدة العمرة بالصعيد جنوب أبيدوس (العرابة المدفونة) بقليل. وقد اشترك في الكشف عن آثار هذه المرحلة علماء كثيرون أهمهم بترى ودي مورجان وكوبيل. وهذه الحضارة تطور للحضارات المصرية السابقة لها في الزمن وقد أمكن معرفة الصفات الجنسية لأهلها، فقد كانوا نحاف الجسم أصحاب رأس ضيقة وتقاطيع دقيقة وقامة متوسطة، ويقترب شكلهم من شكل جماعات البيجا الحاليين في شرق السودان. وقد كانت الفؤوس الصوانية أهم أداة حجرية عند أهل العمرة مما يدل على سيادة حرفة الزراعة. كما تكثر في هذه الحضارة صناعة الآلات ذات الأسنان كالمنشار والمنجل، كما توجد بها النصال والسهام.

وقد لوحظ الشبه الواضح بين آلات الفيوم الحجرية وبين آلات العمرة وفسر ذلك بأن سكان وادي النيل في هذه المرحلة طمعوا بهجرة حامية من الليبيين، فمن الآلات الصوانية بحضارة العمرة ــ التي تسمى كذلك حضارة نقاده الأولى التي تشبه آلات الفيوم الفؤوس والسهام ذات الجناحين، والأسلحة التي على شكل ورق الشجر والآلات المسننة، وكلها مشطوفة من الوجهين على الطريقة الفيومية. وتدل دقة الآلات وتشابهها على انها نتاج عمال أخصائيين قاموا بصنعها بقصد التجارة. ولقد أدى هذا التخصص المهني إلى نتائج خطيرة في حياة المصريين، فالصناعة تحتاج إلى أسواق وتتطلب الانتشار خارج الحدود المحلية، كما أن الصناعة مصدر ثراء لطبقة خاصة ترفعهم فوق مستوى طبقة الزراع والرعاة، كما أن تعريف المصنوعات يتطلب نوعاً من التنظيم السياسي بتعدي الحدود المحلية لمنطقة المصانع، ولهذا يمكن القول أن بداية التنظيم السياسي المصري كانت في حضارة العمرة، وأن هذه البداية مرجعها إلى ظهور حرف التعدين والصناعة والتجارة.

وقد تعددت في العمرة أشكال الآنية الفخارية وألوانها، ولكن أكثرها انتشاراً كانت الآنية الحمراء ذات القمة السوداء، ويشبه هذا النوع أجود أنواع الآنية في الحضارة السابقة لها (البدارى) وقد أكسد الصناع قاعدة هذه الأواني بطلائها بمادة حديدية ثم حرقها في الهواء الطلق بينما كربنوا قمتها بحرقها مدفونة في التراب. ومن أواني العمرة كذلك الأواني السوداء ذات الخطوط المحفورة والأواني الحمراء ذات الخطوط المرسومة، وتعتبر هذه الآنية الأخيرة أبرز أنواع الآنية في العمرة بسبب الرسوم الموجودة عليها فبعض هذه الرسوم عبارة عن صور بشرية وصور حيوانات، وتظهر هذه الأواني بين الرقمين ٣١ و ٣٥ من تاريخ بنزي

التتابعي. وتعطينا صور الحيوانات التي على هذه الآنية فكرة عن الحياة الحيوانية بوادي النيل في هذه الفترة، فمن صورها الفيلة وأفراس الماء والزراف والأغنام والعقارب والغزلان، وهي رسوم مستمدة من البيئة المصرية وقد عرف من الرسوم أنه كان يستعان على صيد الغزلان والوعول بكلاب كانت تربى لهذا الغرض وقد أعطتنا هذه الرسوم كذلك فكرة عن الحياة الدينية والسياسية في هذا العصر، فمن الجائز أن أحد هذه الرسوم يمثل الإله ست إله الشر عند قدماء المصريين، ومن المؤكد أن بعض هذه الرسوم يمثل الإلهة حاتحور (البقرة) آلهة الإخصاب عند قدماء المصريين كما وجد رسم تاج الوجه البحري على قطعة من آنية تنتمي إلى هذه الحضارة مما يشير إلى معرفة أهل الجنوب بالنظام السياسي القائم في الشمال، ولعل هذا كان بداية للوحدة المصرية الأولى التي تمت على يد أهل الشمال (الدلتا) قبل أن تقوم الوحدة النهائية على يد أهل الجنوب (الصعيد). ويكثر في هذه الحضارة تمييز الأواني الفخارية بعلامة خاصة، ربما يشير إلى الصانع أو المالك، ومن غير شك كانت هذه من أولى المحاولات لاختراع الأبجدية المصرية، فقد كان من ضمن العلامات التي تميز بها الأواني صور الحيوانات، ويمكن أن يستنتج من صور الحيوانات المكروهة كالتماسيح والعقارب على أن أهل العمرة كانوا أصحاب معتقدات طوطمية، ولقد أصبح بعض هذه الحيوانات فيما بعد — أي لما ارتقى التنظيم السياسي — علامات للوحدات الإدارية وشارات للمعبودات، ولكن في مرحلة العمرة كان الناس ما زالوا يعيشون في مرحلة بطون طوطمية في قرى مستقلة. ولم يوجد دليل على وجود أمراء في هذه المرحلة لأن المقابر التي كشفت من هذا العصر كانت متساوية الثروة، ولم يلاحظ على إحداها التميز في الغنى بحيث يمكن القول أنها مقبرة أمير أو حاكم. على أن نظام الملكية الفردية كان موجوداً فقد لوحظ أن الأواني الموجودة في القبر الواحد تحمل علامة واحدة.

ويتضح تقدم معلومات المصريين الدينية في هذه الفترة من طقوسهم الجنائزية، فإن دفن الميت في رمال الصحراء الجافة بعيداً عن طمى النيل، يدعو إلى الظن بأنهم اعتقدوا في حياة أخرى يبعث فيها الميت. كما كان أهل العمرة يضعون مع الميت تماثيل صغيرة لنساء وخدم يحملون أواني الماء على رؤوسهم وذلك لخدمة الميت في سفره الطويل في العالم الآخر، وكان يوضع مع الميت كذلك ممتلكاته الثمينة. ويظهر أنهم كانوا يدفنون الكلب حياً مع صاحبه لكي يحرسه في حياته الأخرى. وكانت مقابرهم عبارة عن حفر بيضاوية قليلة العمق يوضع فيها الجسم في شكل مقرفص.

ولقد كان المعدن ما زال نادراً في هذه الحضارة فقد اقتصر استخدامه على صنع الدبابيس.

ومما يدل على علاقات أهل العمرة الخارجية في هذه المرحلة أنهم استوردوا النحاس والملاكيت من سينا والذهب من النوبة والابسيديان واللازورد من غرب آسيا والأشجار المخروطية من سوريا والسنباذج من جزر بحر إيجه. وقد صنع المصريون من أجل ذلك قوارب ذات ثمانية أزواج من المجازيف، ولا بد أنها كانت مزودة كذلك بشراع.

ولا يعرف شكل المساكن على وجه التحقيق، وأما مادتها فكانت ما زالت يغلب عليها فروع الأشجار التي تثبت في قواعد من الطين، ولم يكن البناء بالطوب قد عرف في هذه المرحلة.

ولقد كانت منطقة العمرة، مركز جذب للناس الراغبين في الاستقرار التام على شاطىء النيل فوفد إليها أقوام من الجنوب «النوبة» ومن الغرب «ليبيا» هذا فضلاً عن سكانها الأصليين وبذلك طعم أهلها بدماء جديدة وتيارات حضارية جديدة.

●

مُعَاهَدَة بَارْدُو
بَيْنَ فَرَنسَا وَتونُس ، ١٢ أيَار (مَايو) سَنة ١٨٨٢



إعداد شذا عدرة

«إن ثمة أمراً يبدو غريباً وخارقاً للعقل وغير قابل للتصديق، وهو أننا لا نكاد نرى أن هناك ما يسمونه بـ (الخمير)[1] فإن وزارة (جول فيري)[2] قد وضعت منحة قدرها ثلاثون ألفاً من الفرنكات لمن يستطيع أن يضبط له أحد أبناء هذه القبيلة. أية بلاهة هذه... أترى الوزير يود أن يدخل في روعنا أننا سنصرف ملايين ونرسل أولادنا إلى تونس في سبيل هدف واحد هو الحيلولة دون ثلاثة من قبيلة خمير الذين يقومون بين حين وآخر على سرقة بقرة لا يزيد ثمنها على ٩٠ فرنكاً من أحد المعمرين»[3].

هذا القول الذي جاء على لسان الصحفي الفرنسي «روشتونور» في ٢٥ نيسان / أبريل سنة ١٨٨١م في جريدة «لنترانسجيان»، يعكس لنا بوضوح ما آل إليه الرأي العام الفرنسي من سخط على حكومته من جرّاء تهورها في اختلاق أية ذريعة لتبرير استيلائها على تونس، فاختلقت عذر ما أسمته اعتداء قبائل خمير على الحدود الجزائرية[4]، واعتبرت هذا العمل اعتداءً واستفزازاً، فأرسلت أسطولاً إلى بنزرت وسيَّرت جيشاً اخترق الحدود التونسية حتى وصل إلى ضاحية باردو، التي تبعد أربعة كيلومترات عن العاصمة، وأحاط بقصر الصادق باي في ١٢ أيار / مايو ١٨٨١م، وأجبر الجنرال «بريبار»، قائد الحملة الصادق باي على التوقيع على كتاب تحت الضغط والتهديد، سمي بمعاهدة القصر السعيد أو معاهدة باردو.

وتجدر الإشارة، إلى أن هذه الحركة التوسعية التي قامت بها فرنسا ضد تونس، كان الغرض منها وضع العرش التونسي تحت وصايتها ومن ثمَّ قطع الطريق على إيطاليا التي كانت تسعى لنفس الغرض، خاصة وأن كل من إنكلترا وألمانيا كانتا قد أعلنتا في مؤتمر برلين المنعقد سنة ١٨٧٨ بأنهما لا تريان مانعاً من استيلاء فرنسا على تونس.

وفيما يلي نص المعاهدة:

□ محمد الصادق باي.

نص معاهدة باردو (١٨٨١)

«إن دولة الجمهورية الإفرنسية ودولة سمو باي تونس لما كان من غرضهما أن يمنعا إلى الأبد حدوث قلاقل كالتي حصلت أخيراً على حدود الدولتين بسواحل المملكة التونسية وأن يحكما علاقات ودادهما القديم وروابط حسن الجوار، قد اتفقا على عقد معاهدة من شأنها تحقيق مصالح كلا الجانبين الساميين المتعاقدين، وبناء على ذلك فإن فخامة رئيس الجمهورية الإفرنسية قد عين جناب الجنرال بريبار نائباً مفوضاً من طرفه، فاتفق جنابه مع سمو الباي المعظم على البنود الآتية:

البند الأول: أن معاهدة الصلح والمودة والتجارة وجميع المعاهدات الأخرى الآن بين الجمهورية الإفرنسية وسمو باي تونس قد وقع تأكيدها وتمديدها.

البند الثاني: لأجل تسهيل القيام بالإجراءات التي يتحتم على دولة الجمهورية الإفرنسية اتخاذها للوصول إلى الغرض الذي يقصده الجانبان العاليان المتعاقدان فقد رضي سمو باي تونس بأن تحتل القوات الإفرنسية العسكرية المراكز التي تراها صالحة لاستتباب النظام والأمن بالحدود والسواحل، ويزول هذا الاحتلال عندما تتفق السلطتان: الإفرنسية والتونسية وتقرران معاً بأن الإدارة المحلية قد أصبحت قادرة على المحافظة على استتباب الأمن.

البند الثالث: تتعهد دولة الجمهورية الإفرنسية ببذل مساعدتها المستمرة لسمو الباي وحمايته من كل خطر يمكن أن يهدد ذاته أو عائلته أو يعبث بأمن مملكته.

البند الرابع: تضمن الدولة الإفرنسية تنفيذ جميع المعاهدات المعقودة بين الدولة التونسية ومختلف الدول الأوروبية.

البند الخامس: يمثل الدولة الإفرنسية لدى سمو الباي وزير مقيم عام تكون وظيفته السهر على تنفيذ هذه المعاهدة ويكون هو الواسطة بين الدولة الإفرنسية وبين السلطات التونسية في جميع القضايا التي تهم الجانبين.

البند السادس: يكلف الممثلون الدبلوماسيون والقنصليون لفرانسة في البلاد الأجنبية بحماية رعايا المملكة التونسية ومصالحها وفي مقابل ذلك يلتزم سمو الباي بأن لا يعقد أي عقد ذي صبغة دولية من دون إعلام الدولة الإفرنسية والحصول على موافقتها مقدماً.

البند السابع: تحتفظ دولة الجمهورية الإفرنسية ودولة سمو الباي لنفسها بحق الاتفاق على وضع نظام مالي بالمملكة التونسية من شأنه الوفاء بواجبات الدين العام وضمان حقوق دائني المملكة.

البند الثامن: تفرض غرامة حربية على القبائل العاصية بالحدود والسواحل وتحدد قيمة هذه الغرامة وطرق جبايتها باتفاق يعقد فيما بعد وتكون حكومة الباي هي المسؤولة عن تنفيذ هذا الاتفاق.

البند التاسع: لأجل صيانة ممتلكات الجمهورية الإفرنسية بالقطر الجزائري من تهريب الأسلحة والذخائر، فإن دولة سمو الباي تتعهد بأن تمنع قطعاً إدخال السلاح والذخائر الحربية لجزيرة جربة ومرسى قابس والمراسي الأخرى بالمملكة التونسية.

البند العاشر: سيقع عرض هذه المعاهدة على دولة الجمهورية الإفرنسية للمصادقة عليها وتسلم الوثيقة المصدق عليها بعد ذلك لسمو باي تونس في أقرب وقت ممكن.

وكتب في باردو في ١٢ يونيو ١٨٨١

محمد الصادق باي الجنرال بريبار»[5]

(١) قبيلة تونسية كانت ترابط على الحدود التونسية الجزائرية.
(٢) رئيس الوزارة الفرنسية الذي أخذ على عاتقه اغتصاب تونس.
(٣) درمونة، يونس: **تونس بين الحماية والاحتلال**، ص ٢٤٠، (مطبعة الرسالة، القاهرة، دون تاريخ).
(٤) كانت فرنسا تحكم الجزائر منذ عام ١٨٣٠م.
(٥) حقي، إحسان: **تونس العربية**، ص ١٢٥ ــ ١٢٦ (دار الثقافة، بيروت، دون تاريخ).

الكنوز الإسلامية في مكتبة تشيستربيتي

بقلم ديفيد جيمس — ترجمة محمد علي حشيشو

مما لا شك فيه أن الزائر العربي الذي يدخل مكتبة تشستربيتي في دبلن سيصاب بدهشة شديدة لما سيجده هناك. فقد يجد نسخة من القرآن بخط أعظم خطاط عربي هو ابن البواب كتبها في بغداد عام ٣٩١هـ/١٠٠٠م. وقد يوجد إلى جانبها رسم منمنم رائع من ريشة «بهزاد»، أدق رسام فارسي على الإطلاق، وسيجد على بعد خطوات من ذلك فقط مؤلفاً عربياً فريداً عن البيزرة من مكتبة الخليفة الفاطمي «العزيز».

ومما لا شك فيه أن هذا الزائر العربي سيتساءل، وقد عقدت الدهشة لسانه: كيف وصلت نوادر الأدب العربي وروائع الفن الفارسي هذه إلى هذه البقعة البعيدة عن الشرق الأوسط؟ ومن هو هذا الشخص، الفريد تشيستر بيتي، الذي أحضر هذه الكنوز الشرقية إلى أقصى مكان في الغرب؟.

ولأحاول فيما يلي الجواب على هذه الأسئلة

أعوام التعدين والتمويل

نظراً لقضاء الفرد تشيستر بيتي قسطاً كبيراً من حياته في إنجلترا، فإن الكثيرين يعتقدون أنه كان إنجليزي المولد.

أما الحقيقة فهي أن بيتي ولد في مدينة نيويورك الأميركية عام ١٨٧٥ وترعرع وحصل على تعليمه فيها.

وفي عام ١٨٩٥ انتسب إلى كلية هندسة التعدين في كولومبيا حيث تخرج عام ١٨٩٨ حائزاً على درجة علمية من المرتبة الأولى. وفي شتاء العام نفسه غادر نيويورك متجهاً إلى الغرب، أو بتعبير أدق، إلى دنفر في ولاية كولورادو، التي كانت آنذاك مركز صناعة تعدين النحاس الأميركية.

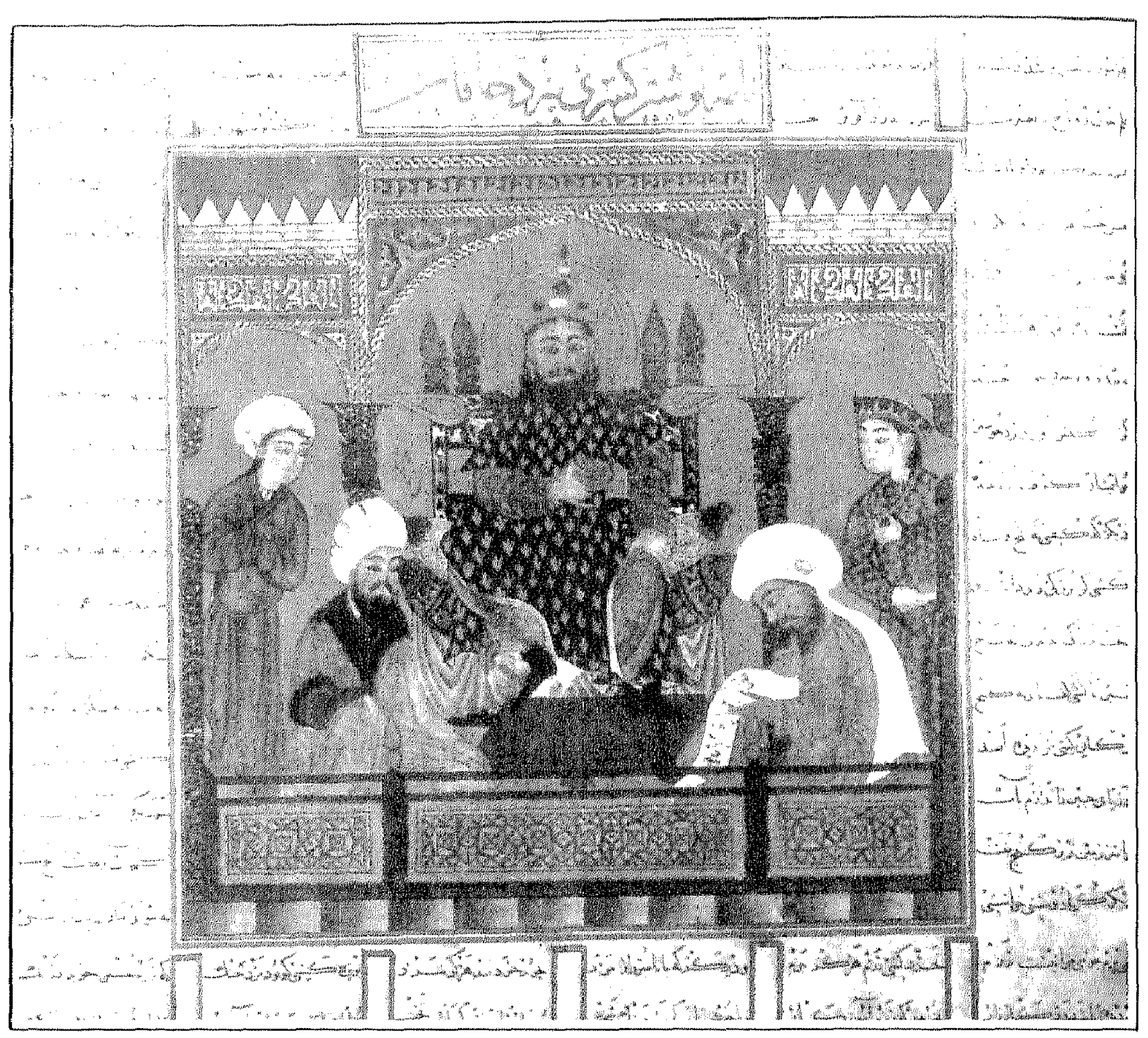
وكانت هذه فترة حياة «الغرب الأمريكي المقفر» الذي نعرفه جيداً من الأفلام الأميركية الحديثة. ولم يمض وقت طويل حتى اكتسب بيتي خبرة وتمرساً خاصين في هذا النمط العنيف من الحياة، التي لا أمن فيها لحياة الإنسان إذا لم يكن يحمل مسدساً في حزامه، وكان بيتي نفسه يحمل مسدساً يخفيه في حذائه الطويل من وقت لآخر.

وكان مجبراً على ذلك لأن حياته تعرضت أكثر من مرة إلى الخطر. ففي عام ١٩٠٢ مثلاً حاول بعض المضربين قتله بإلقائه في نفق المنجم!.

ومن الواضح أن إلمام بيتي الكبير بهندسة التعدين والمناجم ومقدرته الفائقة في ابتكار طرق جديدة لاستخراج الخامات جعلاه واحداً من ألمع مهندسي القرن العشرين. وفي عام ١٨٩٨ وصل إلى دنفر وهو يحمل شهادته في جيب ومبلغ سبعين دولاراً فقط في الجيب الآخر، ومع ذلك فقد بلغت ثروته في ثلاثة عشر عاماً وقبل أن يبلغ السادسة والثلاثين أكثر من مليون جنيه!.

وفي العام الذي بلغ فيه السادسة والثلاثين قرر بيتي اعتزال العمل والسفر للعيش في إنجلترا، حيث أراد أن يقضي «أعوامه الأخيرة». والشيء الغريب أن أطباء بيتي كانوا قد أخبروه في ذلك العام ـ في ١٩١١ ـ أنه لن يعيش أكثر من عام أو عامين على الأكثر!.

فما هو السبب الذي دفع الأطباء إلى إعطاء ذلك التقرير الغريب الذي كان يبعث تسلية خاصة في نفس بيتي في الأعوام التالية (وخاصة بعد أن بلغ التسعين من عمره)؟ كان بيتي قد



□ صحيفة عن مخطوطة «شاه نامة» للشاعر فردوس (وهي معروفة بـ «ده موت شاه نامه» (Demotte Schahname)، دونت في إيران حوالي عام ١٣٤٠.

أمضى عدة ساعات تحت الأرض في عمله المنجمي تحت أقسى الظروف، وهو يتنفس غبار المنجم الدقيق باستمرار مما أدى إلى إصابته بمرض ترب الرئة ودفع مرضه الأطباء إلى توقع وفاته بعد حين قصير جداً.

ونتيجةً لقرار الأطباء هذا فقد رأى بيتي أن يقضي ما تبقى له من أعوام قليلة في جو أفضل وأكثر ملاءمة لصحته. وهكذا فقد أمل أن يعيش في أوروبا في فصل الصيف وأن يقضي الشتاء كل عام في مصر. وبناء على ذلك فقد وصل عام ١٩١١ مع طفليه إلى لندن.

وكان عام ١٩١١ «عاماً مشئوماً أسود» بالنسبة لبيتي: وذلك ليس بسبب ما قاله الأطباء فحسب، بل لأن زوجته مادلين التي كان يحبها كثيراً كانت قد توفيت في الولايات المتحدة في نفس العام.

وقضى عامه الأول في وحدة في لندن. إلا أن وحدته كانت مؤقتة، إذ ما لبث أن بدأ نشاطه من جديد بعد ذلك بحين قصير، ومنذ ذلك الحين انتشرت اهتماماته من بلد إلى آخر، لا بل من قارة إلى أخرى. وبالاشتراك مع صديقه هربرت هوفر، الذي أصبح رئيس الولايات المتحدة في ما بعد، بدأ بيتي في تنفيذ مشروع ضخم لتطوير المخزونات المعدنية الواسعة لجبال الأورال. وكانت سياسة روسيا في ذلك الحين شبيهة بعض الشيء بسياسة الامبراطورية العثمانية في القرن

التاسع عشر ـــ إذ كانت الامتيازات تعطى للشركات الأجنبية للعمل داخل البلاد بشروط ملائمة جداً.

إلا أن اهتمامات بيتي لم تكن مقصورة على أوروبا وأميركا. ففي عام ١٩٢٤ وسع نشاطه بحيث بلغ إفريقيا حيث اشترك في تطوير الموارد المعدنية الهائلة في القارة وخاصة نحاس روديسيا وذهب إفريقيا الغربية.

وبالإضافة إلى مقدرته الهندسية الفائقة فقد أظهر بيتي موهبة كبيرة في الشؤون المالية. ففي عام ١٩١٤ أنشأ شركة مالية باسم «Selection Trust»، غير أن اندلاع الحرب العالمية الأولى في أغسطس من ذلك العام حالت دون ازدهار عملياتها. ولكن ما كادت الحرب تنتهي حتى أبدى بيتي اهتماماً كبيراً في توسيع الشركة، وسرعان ما أثبت أن مقدرته في ذلك الحقل لم تكن تقل عن براعته في الحقول الأخرى.

وإذا كان هناك سر وراء نجاح بيتي، فلعله يكمن في مقدرته على الجمع بين المعرفة العلمية في الهندسة والفهم العميق للنظريات المالية المعقدة. وبكلمات أخرى فقد استخدم شركته لتمويل مشاريعه الهندسية التعدينية في أجزاء مختلفة في العالم.

مصر عام ١٩١٣

في شتاء عام ١٩١٣ وصل بيتي وزوجته الجديدة إلى مصر للمرة الأولى. وقد أسرا تماماً بجمال وادي النيل وآثاره الأسطورية. ووجدا المناخ ملائماً جداً فقررا شراء بيت هناك بحيث يتمكنان من قضاء كل شتاء فيه. وفي بادىء الأمر اشترى بيتي فيلا معروفة باسم «البيت الأبيض» ولكنه بنى بيتاً بالقرب من الأهرام في ما بعد وأحاطه بالجنائن وبساتين البرتقال وأطلق عليه اسم «البيت الأزرق».

وكان من عادات بيتي أن يتمشى حول الأسواق وفي أحياء القاهرة القديمة، وكان يصادف أثناء هذه الجولات عدداً كبيراً من المخطوطات القديمة المتعددة الأنواع. وكان يجد في دكان صغير هنا على سبيل المثال نسخة من القرآن كتبت لأحد سلاطين المماليك، أو ربما رسالة في الجفر مزيناً بالرسوم الغريبة التي سبق أن أعدت لمكتبة اسطنبول الملكية. وقد يجد هنالك في زاوية مكتبة قديمة يغطيها الغبار نسخة قيمة من ديوان حافظ أو سجلاً مرقعاً من الرسوم من بلاط الامبراطور الهندي جهانكير.

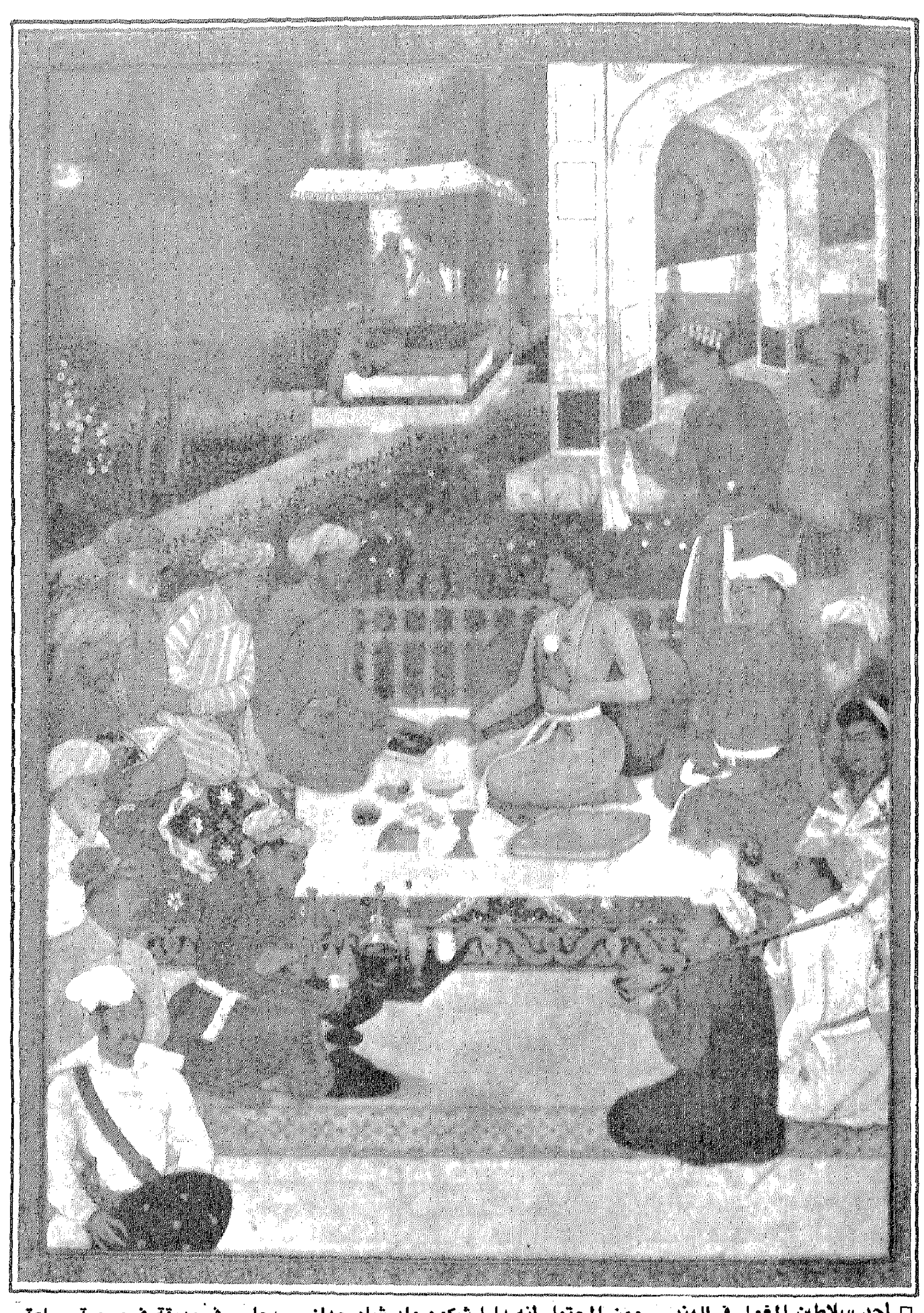
لقد وجد بيتي كل هذا وأكثر، إلا أن الشيء العجيب هو أن عدداً ضئيلاً جداً من الناس كان يبدي أي اهتمام بهذه النفائس الموجودة أمام أنوفهم. فقد كان أغلب الأوروبيين الذين يهتمون بجمع المخطوطات يفضلون في تلك الأيام المخطوطات الغربية الوسيطية على الأعمال الإسلامية. اما السبب في ذلك فبسيط بطبيعة الحال. إذ كانت الدراسات الإسلامية آنذاك لا تزال حقلاً علمياً جديداً، كما أنه بغض النظر عن المستشرقين الذين كانوا يعملون في المتاحف الكبيرة، فإن عدداً صغيراً من الجامعين كان يهتم اهتماماً خاصاً بالمخطوطات الإسلامية. وهكذا فقد كان من السهل على بيتي أن يشتري روائع المخطوطات والأعمال الفنية بأبخس الأثمان.

وبهذه الطريقة بدىء بتكوين إحدى أدق المجموعات الخاصة من المخطوطات الشرقية. ورغم أن بيتي لم يكن قادراً على قراءة سطر واحد من أي من المخطوطات التي كان يشتريها، إلا أنه استطاع أن يكوِّن مكتبة يندر أن تضاهيها مكتبات أخرى في أي مكان في العالم.

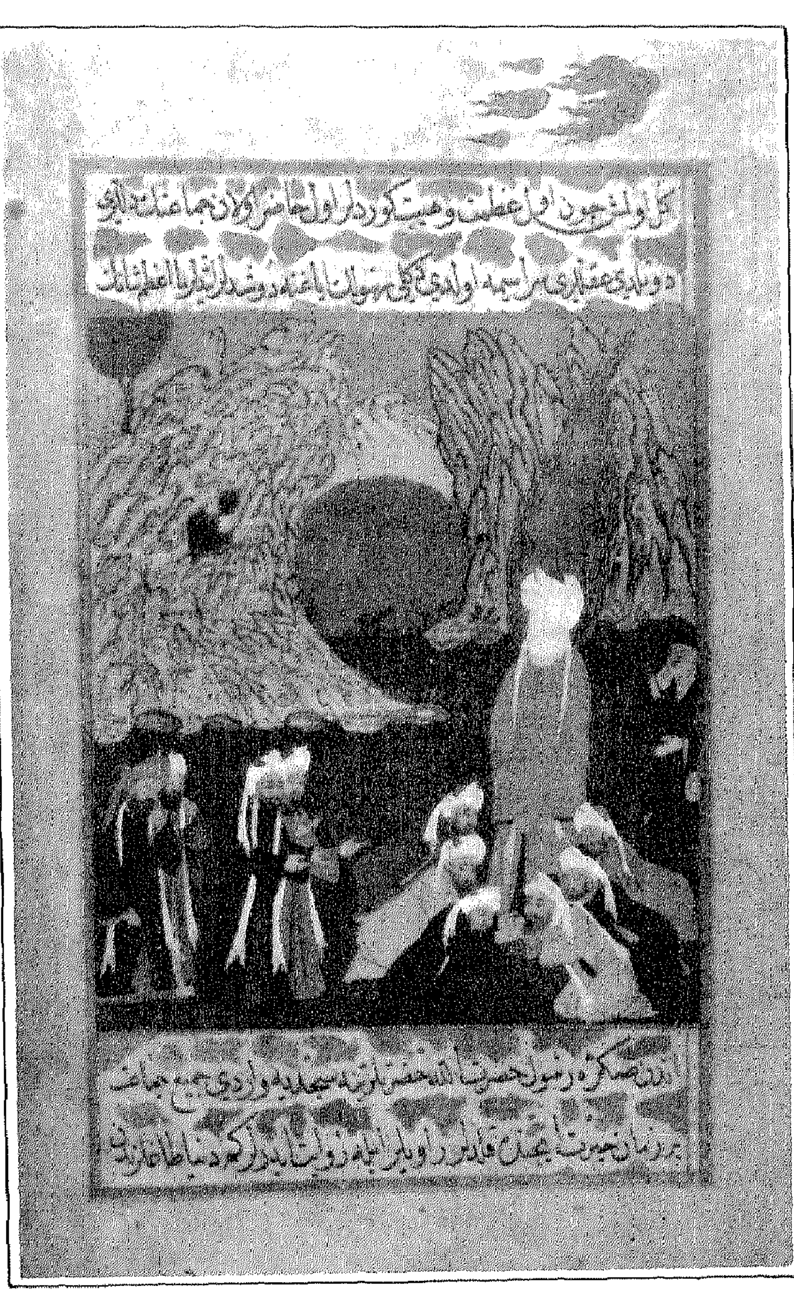
وكلاؤه في الشرق

ولم يقتصر بيتي على شراء المخطوطات من القاهرة، لأنه بعد عودته إلى أوروبا بدأ يبحث في أسواق الكتب في لندن وباريس للحصول على المؤلفات العربية والفارسية التي كانت تظهر من حين لآخر.

وقد نال مساعدة كبيرة بالمشورة التي كان يسديها إليه «إدوارد إدواردن» الذي كان يعمل آنذاك في قسم المخطوطات الشرقية في المتحف البريطاني. وكان لبيتي وإدواردز طريقة في الشراء مكنتهما من الحصول على أعمال نادرة كثيرة. فحين كان وكلاء بيتي ينصحونه بشراء كتاب ما، كان يدفع ربع الثمن أو ثلثه كوديعة، ثم يعطى الكتاب إلى إدواردز لفحصه، فإذا نصح إدواردز بيتي بشرائه كان يدفع بقية الثمن.



□ أحد سلاطين المغول في الهند ــ ومن المحتمل انه دارا شكوه ولد شاه جهان ــ يجلس في حديقة في صحبة جماعة من الشعراء وأساتذة الموسيقى. رسمه الرسام بجتر في الهند، في القرن السابع عشر.هذه اللوحة محفوظة في مكتبة تشيستربيتي في دبلن.



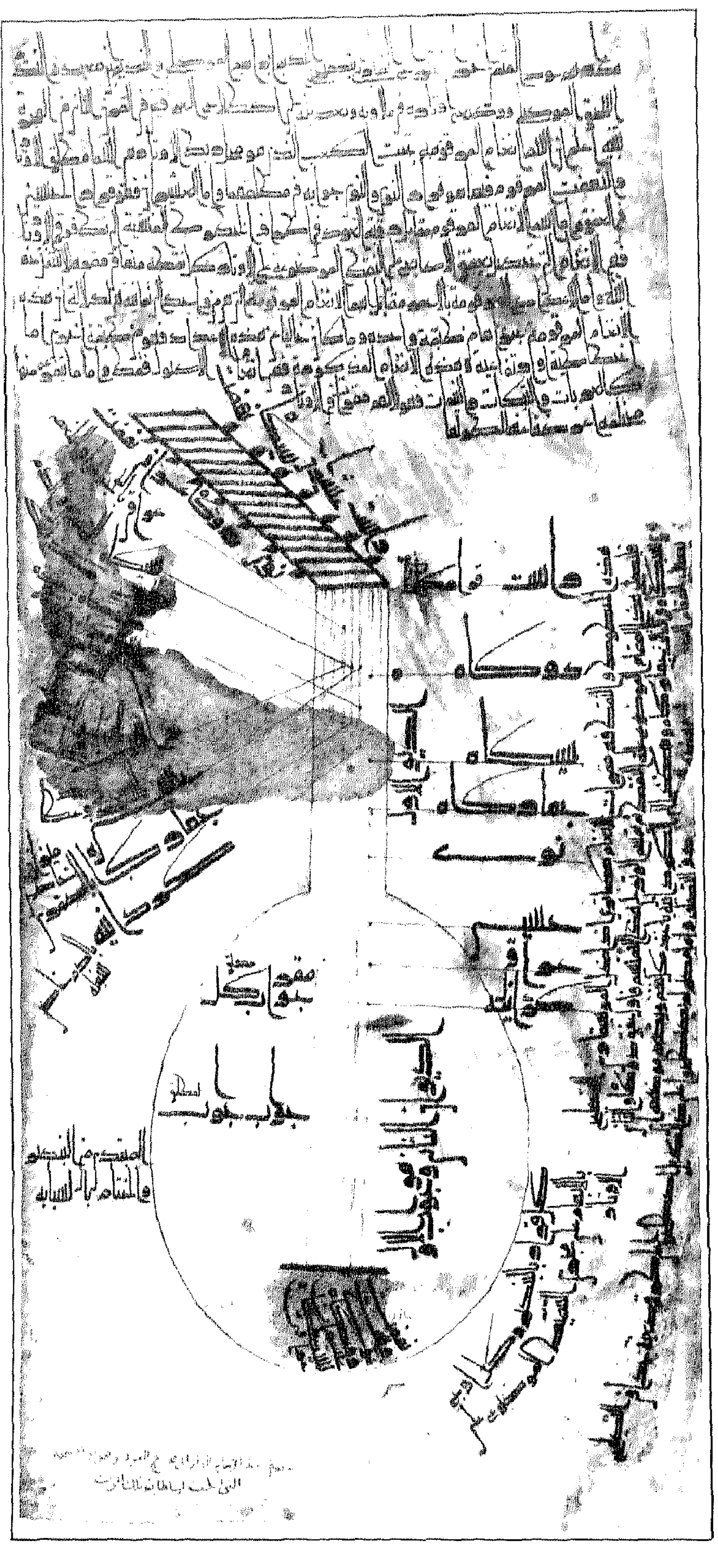
□ صحيفة عن مخطوطة «كتاب سيري نبى» المكتوبة في تركيا عام ١٥٩٤: ورقة ٦٤ب: يأمر رسول الله جبلين أن يتحركا عن مكانهما لكي يقتلا تنينا. وهي محفوظة في مكتبة تشيستربيتي في دبلن.

وكان لبيتي عدة وكلاء يعملون لحسابه في الشرق، وكثير منهم مـا زالوا مجهولين حتى اليوم. ولعل أشهر اثنين منهم كانا ساركيسيان، وهو تاجر كتب أرمني، و ا.س. يهودا، مستشرق يهودي من شمالي إفريقيا.

وكان لسركيسيـان المتوفي محـل في شارع سليمان باشا في القاهرة، وقد أصبح مخزنه أحد مراكز الشرق الأوسط لشراء وبيع المخطوطات الشرقية. وكان للأرمني هذا خبرة كبيرة في هذا الحقل وكان يشتري أحياناً مكتبات بكاملها ثم يعرض ما فيها من نفائس نادرة على بيتي.

أما ا.س يهودا، الذي توفي في أميركا عام ١٩٤٢، فقد اشترى لحساب بيتي ما يزيد على الألف مخطوطة، أي، بعبارة أخرى، ما يزيد على ثلث المجمـوعة الحـالية ومن الكتب والأعمـال العربية.

وقبل أن ينتقل بيتي إلى أيرلندة عام ١٩٤٩ أودعت المكتبة في منزله اللندني «بارودا هاوس». وفي خـلال الفترة الواقعـة بـين عـام ١٩١١ و ١٩٤٩ كان بيتي يسمح لمستشرقي العالم على اختلاف جنسياتهم بفحص ودراسة مخطوطاته بكل دقة وتفصيل. وأكثر من هذا، فقد شغل كبار علماء العصر على حسـابه الخـاص في تدوين وفهرسة ونشر وطباعة مجموعته.



□ قطعة من الرق تحتوي على صورة عود المثمن الذي يخبرنا الخط بانه: «آخر اختراع الإمام الفارابي» محفوظة في مكتبة تشيستربيتي.

وفي عام ١٩٤٩ انتقل إلى إيرلندة حيث اشترى بيتاً ثم أمر ببناء مكتبة تشستر بيتي الحالية على مقربة منه. أما سبب مغادرته لإنجلترا، كما هو معروف حتى الآن، فهو نزاعه مع الحكومة البريطانية حول قضايا مالية مما أدى به إلى مغادرة البلاد مشمئزاً.

لقد كان سخاء بيتي وحبه للخير طيلة حياته مضرباً للمثل؛ ولن ننسى الملايين التي قدمها للأبحاث الطبية مثلاً؛ إلا أن كرمه بلغ الذروة قبل وفاته عام ١٩٦٨ بأعوام قليلة، عندما وهب مكتبته بكاملها التي تضم مجموعة من اثني عشر ألف مخطوط وعمل فني نفيس ملكاً للشعب الإيرلندي بصفة رسمية.

الكنوز الإسلامية في المكتبة

- **المخطوطات العربية ــ ٣٦٥٠ مجلداً**

وتتألف المخطوطات العربية التي نسقها وفهرسها المستشرقان المرحومان ا.ج. آربري من كامبردج، والألماني باول كاله، من ثلاثة أنواع: نسخ قديمة جداً، ومؤلفات فريدة، ومخطوطات نسخت بيد المؤلف نفسه. ولنقدم مثلاً عليها، رغم انه يستحيل تماماً أن نعطي وصفاً كاملاً للمجموعة بكاملها.

هناك مثلاً نسخة تعود إلى أوائل القرن الثالث عشر من «صور الأقاليم» (مخطوطة رقم ٣٠٠٧) من تأليف الأصطخري (٣٤٠هـ/٩٥١م) وقد زينت بخرائط ممتازة، ومؤلف غير معنون للكاتب الأندلسي المعافري المالقي (المتوفي ٦٠٥هـ/١٢٠٩م) يحتوي على مقالات لنساء شهيرات كعائشة بنت طلحة وأم الدرداء من دمشق الشام المشهورة بعلمها في الفقه وعلم الكلام، والشاعرة ليلى الأخيلية مع بعض أشعارها (مخطوطة رقم ٣٠١٦). وهناك أيضاً مخطوطة نفيسة لفهرست ابن النديم (٣٧٧هـ/٩٨٧م) تحت رقم (٣٣١٥) ونسخة عامة من «أدب الكاتب» لابن قتيبة (المتوفي ٢٧٦هـ/٨٨٩م) (رقم ٣٣٧٠) مخطوطة بيد ابن الجوزي (المتوفي ٥٩٧هـ/١٢٠٠م). وهناك عمل فريد عن مشاهير رجال مدينة إربل «تاريخ إربل» (رقم ٤٠٩٨) للمستوفي الأربلي (المتوفي ٦٢٧هـ/١٢٢٩م).

وتحتوي المكتبة أيضاً على نسخة من المقامات الحريرية (مخطوطة رقم ٤٢٣٣) تحتوي على حاشية كتبت بيد أبي محمد القاسم الحريري المؤلف (المتوفي في ٥١٦هـ/١١٢٢م) ومؤلف نادر لكاتب مجهول عن البيزرة بعنوان «كتاب البيزرة» الذي كتب على ما يبدو للخليفة الفاطمي العزيز (المتوفي في ٣٨٣هـ/٩٩٣م) (تحت رقم ٣٨٣١). وهناك كتاب عن النحو نسخة الجغرافي العظيم ياقوت (المتوفي في ٦٢٦هـ/١٢٢٩م) وقد كتبه في مرو، كما نرى من الخاتمة (رقم ٣٩٩٩): «وفرغ من انتساخه بمرو الشاهجان في عشية الأحد لثماني عشرة ليلة خلت من شهر رمضان (سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م) ياقوت بن عبدالله الحموي المولي الرومي الأصل...» وهناك أيضاً مخطوطة عن السيمياء والعلوم الصوفية (رقم ٤٨٩٠) وتشير خاتمتها إلى انها نسخت في قلعة الحشاشين مصياف في سوريا (٦١٥هـ/١٢١٨م) بيد قائد الحشاشين نفسه أبي فراس بن القاضي نُصْر.

وخلافاً للمخطوطات المكتوبة في العالم العربي نفسه، هناك مخطوطات عربية أخرى من عدة بقاع أوروبية وأفريقية. فهناك مثلاً كتاب نادر في العقائد بعنوان «عقيدة ابن إصبع الغرناطي» (رقم ٣٠١٢) وكان صاحبه الأندلسي قد وهبه إلى مسجد سويقة الدوح في غرناطة قبل القرن الثاني عشر الميلادي. وتضم المكتبة أيضاً عملاً رائع التجليد مزيناً بالرسوم من إفريقيا الغربية بعنوان «كنوز الأسرار في الصلاة على المختار» للشيخ عبدالله الخياط بن محمد الهاروشي المغربي الفاشي. ومن المحتمل أن يكون هذا الكتاب قد نسخ لأحد الأمراء المسلمين في إفريقيا الغربية في بداية القرن التاسع عشر.

- **المخطوطات الفارسية ــ ٣٠٠ مجلد**

إن الميزة الفنية لمجموعة تشستر بيتي لا تقل أهمية بدون شك عن الميزة الأدبية. وفي الواقع فإن تاريخ الفن الإسلامي بكامله يمكن دراسته من المخطوطات الموجودة في المكتبة ــ من القرن الثالث عشر حتى التاسع عشر.

ورغم الاعتقاد السائد حول تحريم الإسلام للرسم والتصوير الشكلي إلا أن فن تزيين المخطوطات بالرسوم ازدهر في العالم الإسلامي

□ صحيفة عن مخطوطة «مجمع الغرائب» التي ألفها السلطان محمد البلخي عام ١٥٥٥ الورقة ٧٢ . وتحتوي الصورة على حيوانين غريبين. محفوظة في مكتبة تشيستربيتي.

طيلة العصر الوسيط، وخاصة في بغداد العباسية، والقاهرة المملوكية، وإيران الصفوية والقسطنطينية العثمانية.

ومن بين البلدان الكثيرة التي كانت تهتم بفن الرسم يمكن اعتبار إيران أهمها قاطبة. ومن المعروف أن المخطوطات كانت تزين بالرسوم التوضيحية في عهد السلاجقة، وحتى قبل ذلك، كما نرى مثلاً من مخطوطة «ورقة وكلشاه» في متحف طوبقابو في استانبول، رغم أنه ليس من المحقق فيما إذا كان أصل هذه المخطوطة من إيران أو الأناضول. ومع ذلك فإن معرفتنا بالرسم الفارسي لا تبدأ إلا بعد الغزوات المغولية في القرن الثالث عشر.

ورغم أن إيلخانيين المغول الذين حكموا إيران كانوا أجانب، إلا أنهم بذلوا ما في طاقتهم لتشجيع ازدهار الرسم في تلك البلاد. وكانوا يكلفون الفنانين بتزيين كتاب الفردوسي العظيم الشاهنامه بالرسوم، وهو مؤلف ظل بعد ذلك مصدر الإلهام الرئيسي للرسامين الفارسيين.

وأشهر نسخة من كتاب الشاهنامة تدعى بـ «ديموت شاه نامه» كانت قد نسخت حوالي عام ١٣٤٠ وربما في تبريز التي تعتبر رسومها من روائع الفن العالمي. ويوجد حوالي ستين صفحة من هذه المخطوطة النادرة. منها تسع صفحات في مكتبة تشستر بيتي (رقم ١١١). وقد يكون من الجدير أن نذكر في هذا المجال أن صفحة واحدة من هذه المخطوطة بيعت عام ١٩٦٩ في لندن بثلاثين ألف جنيه.

وفي نهاية القرن الخامس عشر بدأ عهد جديد في الرسم الإسلامي تحت رعاية حسين ميرزا حاكم هرات في شرق إيران. وكان أحسن رسام في ذلك العهد كمال الدين بهزاد الذي كتب عنه المؤرخ الفارسي الوسيطي خواندمير: «وضع بهزاد أمامنا من روائع صوره وفنه العجيب النادر ما يحاكي ما أبدعته ريشة المصور الكبير «ماني» (بنى المانوية) وطمست أعماله الفنية ذكرى غيره من مصوري العالم. وفاقت صوره صور غيره من سائر الفنانين، بفضل ما وهبته يده من مقدرة سحرية وانبعثت الحياة في الجمادات بما كمن بين شعرات فراشاته من عبقرية وتنوع».

ويوجد في مكتبة تشستر بيتي نسخة من بستان سعدى (مخطوطة رقم ١٥٦) مزينة برسوم يفترض أنها من عمل بهزاد في شبابه. والمخطوطة على أسلوب بهزاد وتنم عن دقة متناهية في التنفيذ وحيوية في الحركة وتوازن في الألوان كما أنها تظهر الملامح الشخصية الفردية للوجوه.

وقد ازدهرت خارج البلاط الملكي عدة مدارس محلية للرسم ولعل أطرفها وأهمها المدرسة التركمانية التي وجدت في القرن الخامس عشر. ويوجد في مكتبة تشستر بيتي عدة مخطوطات من هذه المدرسة، أبدعها وأدقها جزء من كتاب يدعى «خاورنامه» (مخطوطة ٢٩٣) وقد نسخ عام ١٤٨٠. ويحتوي هذا على قصص أبطال الإسلام الأولين وخاصة أولئك الذين يتصلون بالإمام علي. والصور في حجم كبير غير اعتيادي وقد رسمت بألوان زاهية جداً. وهي ليست مثقلة بالتفاصيل الدقيقة كما تميل بعض المنمنمات الفارسية إلى ذلك.

وبالإضافة إلى المخطوطات الفارسية التي جمعت لمزاياها الفنية، فقد تم الحصول على عدد كبير من المخطوطات الأخرى من أجل نصوصها. فهناك مثلاً نسخة قديمة جداً من رباعيات عمر الخيام (رقم ٣٠٣) مؤرخة عام ١٢٥٩م. وهي تعتبر من أقدم النسخ المعروفة للرباعيات وقد قام ا.ج. آربري بنشرها عام ١٩٤٩. وهناك قاموس طبي فريد بعنوان «المجموعة المبارزة» تم نسخه عام ١٣٨٩م (رقم ٣١٧) وكذلك توجد ترجمة فارسية مشهورة جداً لكتاب يحتوي على أقوال منسوبة إلى الإمام علي تم نسخه عام ١٣٢٩م.

● **المخطوطات التركية ــ ١٧٠ مجلداً**

إننا نعلم من المصادر التاريخية أن السلاطين الأتراك كانوا يشجعون التصوير وأن بعضهم كان يستحضر الأوروبيين والإيرانيين ليعملوا عندهم في استنبول. فقد استدعى محمد الثاني (١٤٥١ ــ ١٤٨١م) الرسام الإيطالي جنتيلي بيلليني إلى القسطنطينية حيث رسم صورة السلطان التي تشاهد اليوم في المتحف الوطني في لندن. وهناك رسام إيراني وهو شاه قولي كان يعمل في بلاط سليمان القانوني (١٥٢٠ ــ



□ الصحيفة الافتتاحية لكتاب عقيدة ابن أصبغ، مكتوب في الأندلس في القرن الثالث عشر، وهو محفوظ الآن في مكتبة تشيستربيتي في دبلن.

١٥٦٦) ثم أصبح وزيراً أعلى لدى السلطان.

ورغم عمل الفنانين الإيرانيين والأوروبيين المهاجرين فقد نشأت مدرسة وطنية للتصوير بعد حين سريع في تركيا وكان يطلق عليها اسم «المدرسة العثمانية». وكان مركزها القصر الملكي. لأن الأغلبية الساحقة من المخطوطات التي زينت بالرسوم في تركيا كانت تنتج للمكتبة الامبراطورية. ويوجد في مكتبة تشستر بيتي عدة مخطوطات من المحتمل أنها أنجزت للسلاطين ولعل أشهرها «سليمان نامه» (مخطوطة ٤١٣) و «كتاب سيري نبي» (٤١٩) و «زبدة التواريخ» (٤١٤).

أما كتاب «سليمان نامه» فتأريخ فتوحات السلطان سليمان القانوني وقد كتبه لقمان عشوري عندما كان شاهنامه‌جي السلطان، أي «مؤرخه الرسمي». ويحتوي الكتاب على ٢٥ صورة رائعة تظهر جميع تفاصيل عمليات سليمان العسكرية. وفي الحقيقة فقد تخصص المصورون الأتراك في هذا النوع من المخطوطات، ويبدو كتاب سليمان نامه في كثير من الوجوه كسجل فوتوغرافي للعصر. وقد كتب مؤلف يدعى الضرير عام ١٣٨٨م كتاب «سيري نبي»، أي حياة الرسول. وهو كتاب هام لأن المؤلف استعمل لغة تركية غريبة قديمة. ولا يوجد من الكتاب إلا ستة مجلدات من القرن السادس عشر، والكتاب الموجود في مكتبة تشستر بيتي هو المجلد الرابع.

ويحتوي هذا المجلد على ١٣٦ رسماً ممتازاً يظهر الرسول مرسوماً في أغلبها. ورغم تحريم تصوير محمد تحريماً جلياً قاطعاً، إلا أن مصوري هذا المجلد تجنبوا المشكلة بتغطية وجه الرسول بنقاب. ولرسوم كتاب سيرى نبي طابع «روحي» غريب قلما يعثر عليه في المخطوطات الإسلامية.

أما الكتاب الثالث «زبدة التواريخ» فقد ألفه لقمان عشوري أيضاً وهو يشتمل على تأريخ العالم من آدم حتى العهد الإسلامي. وقد قام بتزيين هذه المخطوطة المؤرخة في ١٥٨١م بالرسوم المصور الشهير صنعي الذي يحتمل أنه رسم كذلك خريطة العالم الرائعة التي تظهر في المخطوطة أيضاً. ومن الأمور الطريفة حول هذه الخريطة هو أنها تضم جزيرة في المحيط الأطلسي تدعى «يكي دنيا»، أي «أميركا».

● المخطوطات المغولية الهندية ــ ٧٤ مجلداً وسجلاً مصوراً

كان من نتائج غزو بابر لهندوستان تغلغل الحضارة الإسلامية في الهند. وكان بابر، حفيد تيمور، وأخلافه رعاة كبار للفن والأدب وقد شجع كثير منهم فن الرسم بوجه خاص. ولعل اهمهم في هذا الحقل الامبراطوران أكبر (١٥٥٦ ــ ١٦٠٥م) وجهانكير (١٦٠٥ ــ ١٦٢٨م). وكان أحد أهداف أكبر احياء مدرسة للرسم، ولتحقيق هذه الغاية فقد أنشأ معهداً كان يضم أكثر من مائة فنان هندي يعملون تحت إشراف فنانين من إيران. وكان المعهد يحتوي كذلك على عدة مخطوطات فارسية مزينة برسوم كبار الرسامين أمثال بهزاد.

وفي نهاية القرن السادس عشر نشأت مدرسة وطنية حقيقية للرسم في الهند المغولية كنتيجة للتأثير الذي مارسه فنانو كشمير وكجرات والبنجاب.

ومن المخطوطات التي زينها بالرسوم فنانو بلاط الملك أكبر كتاب «أكبر نامه» أي سيرة أكبر، وتوجد نسخة منه في مكتبة تشستر بيتي (مخطوطة رقم ٣). وهناك احتمال كبير أن النسخة الرائعة الموجودة في المكتبة تم إنجازها للامبراطور نفسه.

وخلال حكم جهانكير، ابن أكبر، ازدهر فن تصوير الشخصيات، وهناك عدة رسوم شخصية لجهانكير، إما لوحده أو محاطاً برجال بلاطه. وكان الكثير من رجال الحاشية يقلد الامبراطور بحيث كانوا يكلفون الرسامين بوضع صور شخصية لهم أيضاً. ويوجد في مكتبة تشستر بيتي البوم يحتوي على عدة رسوم رائعة وصور من بلاط جهانكير (رقم ٧) أتمها كبار رسامي العصر أمثال: بدارث وبجتر وفرخ بيكك وكوردهان وأبو الحسن. ويوجد في الألبوم صورة رمزية بديعة رسمها أبو الحسن الذي منحه جهانكير لقب «نادر الزمان». وتظهر هذه الصورة (رقم ١٥) الامبراطور واقفاً على كرة موضوعة على ظهر ثور. ويرتكز الثور على سمكة كبيرة.

ويوجد فوق رأس الامبراطور ملاكان أحدهما يحمل سيفاً، والآخر يحمل ثلاثة سهام. وفي هذه الصورة يمكننا أن نرى براعة الفنانين الهنود المتازة في حقل رسم الصور الشخصية، وهو حقل كانوا أسياده بدون منازع.

● **القرآن ــ ٧٠ نسخة**

وتحتوي المكتبة على نخبة بديعة من المصاحف جمعت من كل جزء من أجزاء العالم الإسلامي ابتداء من الأندلس حتى الصين، ومن أغلب العصور التاريخية.

ومما لا شك فيه أن أشهر المصاحف الموجودة في المكتبة، النسخة التي نسخها الخطاط العظيم ابن البواب في بغداد عام ٣٩١هـ/١٠٠٠م، كما يتضح من الخاتمة: «كتب هذا الجامع علي بن هلال بمدينة السلام سنة إحدى وتسعين وثلثمائة حامداً لله تعالى على نعمه ومصلياً على نبيه محمد وآله ومستغفراً من ذنبه». وقد قال منظم فهرس مجموعة المصاحف، المستشرق ا.ج. آربري، ما يلي: إن مجموعة المصاحف في مكتبة تشستر بيتي، الفائقة في الحجم والجودة والتنويع، تضم نماذج مدهشة من كل قرن وكل أسلوب بحيث توضح بكمال يثير الدهشة تاريخ النسخ الفني للقرآن الكريم.

مستقبل المكتبة

ستظل المكتبة دوماً بطبيعة الحال كنزاً عظيماً للحضارة الإسلامية وسترحب المكتبة دوماً بالباحثين من جميع أنحاء العالم ــ وخاصة من الشرق الأوسط ــ ليقوموا بدراسة ثروة الآداب العربية المحفوظة بين جدرانها.

ولكن ماذا سيكون مستقبل المكتبة في إيرلندة؟ بالرغم من وجود قسم ناجح للدراسات الشرقية في ترينيتي كولدج في دبلن في القرن التاسع عشر، إلا أن هذا القسم تحول في الآونة الأخيرة إلى مجرد دائرة لدراسة اللاهوت والكتاب المقدس بحيث لا تحتل اللغة العربية إلا جزءاً صغيراً جداً من منهج التدريس.

وعلى أي حال، فبعد أن أصبحت المكتبة ملكاً للأمة الإيرلندية منذ عام ١٩٦٨، بدأت دائرة اللغات السامية في جامعة إيرلندة الوطنية في تطوير وتحسين مستوى تدريس اللغة العربية والدراسات الإسلامية. فقد تبين أنه إذا أريد لشعب إيرلندة أن ينتفع من مجموعة مكتبة تشستر بيتي فإنه لا بد من بذل مجهود جدي لتمكين الطلاب الإيرلنديين من تذوق محتويات هذه المكتبة والاستمتاع بدراسة كنوزها. وهكذا فقد أصبحت دراسة اللغة العربية ممكنة الآن للخريجين من حملة الباكلوريوس، وستوسع هذه الإمكانية بحيث تصبح متيسرة لغير الخريجين من الطلاب. ومن المرجو أيضاً أن تضيف دائرة تاريخ الفن موضوعاً عن التصوير الإسلامي في منهاجها الدراسي، وبذلك ستبدأ المكتبة في القيام بدور هام في التربية والتعليم في إيرلنده، كما أنها ستمكن الشعب الإيرلندي فوق ذلك من تفهم شعوب العالم الإسلامي وحضارته.



رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١ ــ ١٨٧٣)

● **شيخ المترجمين المصريين في مطلع النهضة الحديثة. ولد في طنطا، ونشأ فقيراً، وقدم إلى القاهرة صغيراً، وتخرج في الجامع الأزهر. انتهز فرصة تعيينه إماماً لأول بعثة تعليمية أرسلت إلى فرنسا، فتعلم الفرنسية، وبعد عودته عمل مترجماً في المدارس الفنية التي أنشأها محمد علي، ثم مديراً لمدرسة الترجمة (الألسن فيما بعد)، قام بدور هام في نشأة الصحيفة الرسمية «الوقائع الرسمية». تخرج عليه كثير من المترجمين والأساتذة، وترجم بنفسه كتباً عدة في الجغرافيا والقانون والهندسة وغيرها، وكتب وصفاً لرحلته إلى فرنسا: «تخليص الابريز في تلخيص باريز»، وشرحا للنظم السياسية والاجتماعية الحديثة، و «مباهج الألباب المصرية في مناهج الآداب العصرية».**



قسم التوثيق والأبحاث



أقام الصهيونيون هذه المدينة في موقع أم رشرش العربي على الرأس الشمالي الغربي لخليج العقبة. وأنشىء ميناؤها الذي ساهم في تطوّر ونمو المدينة عام ١٩٥١. وإيلات اسم المدينة الإيدومية القديمة التي كانت تقع على الخليج قرب مدينة العقبة الحالية. وقد ذكرتها التوراة في حديثها عن تيه بني إسرائيل فقالت إنهم مرّوا بها عند خروجهم من مصر (القرن الرابع عشر أو الثالث عشر قبل الميلاد). وفي ذلك الوقت كان الإيدوميون أصحاب السيادة على هذه المنطقة التي تمتد من البحر الميت حتى خليج العقبة. وقد اشتهرت بلاد الإيدوميين هذه بثروتها المعدنية وبموقعها التجاري مما جعلها ملتقى طرق التجارة بين الجزيرة العربية ومصر والشام والبحر المتوسط. ودلّت النقوش على أن المصريين القدماء قاموا باستغلال مناجم النحاس والحديد والمنغنيز التي كانت تمتد من شمال وادي عربة إلى خليج العقبة في أوائل الألف الثاني قبل الميلاد.

كانت ثروة إيدوم وازدهارها السبب الرئيس للحرب التي شنّها عليها الملك داود في القرن العاشر قبل الميلاد، وهي الحرب التي أدّت إلى انتصاره وتحكّمه في رأس الخليج. وفي أواسط القرن العاشر قبل الميلاد أنشأ ابنه الملك سليمان مدينة عصيون جابر واستخدمها ميناء له على البحر الأحمر للإتجار مع جنوب جزيرة العرب وشرق إفريقيا. ودلّت الحفريات التي قام بها نلسون غلوك وفريتز فرانك في تلّ الخليفة الذي يقع على مسافة ثلاثة أميال إلى الشمال الغربي من مدينة العقبة الحالية على أن هذا التل هو موقع عصيون جابر وإيلات القديمة، وأن الموقع كانت تشغله مستوطنة حصينة تحيط بها أسوار قوية بين القرن العاشر والقرن الرابع قبل الميلاد. ويعتقد بعض العلماء أن عصيون جابر وإيلات لم تشغلا الموقع نفسه وإنما كانتا مدينتين متجاورتين. ودلّت الحفريات كذلك على أنه كانت لعصيون جابر تجارة نشيطة مع المعنيين في جنوب جزيرة العرب. ويبدو أن حروب الإسرائيليين مع الإيدوميين استمرت عشرات السنين. ويروي العهد القديم (سفر الملوك: ٢/ ٤، ٢/ ٧) أن الملك أمصيا احتل سلع حاضرة الإيدوميين وقتل عشرة آلاف منهم وألقى بعشرة آلاف آخرين من قمة أحد الجبال، ثم أخذ آلهتهم إلى القدس. وفقدت إيدوم أيضاً ميناءها على البحر قرب العقبة الحالية، واضطر الإيدوميون إلى قبول إقامة مستعمرة تجارية يهودية. لكن الحرب ظلّت بعد ذلك سجالاً بين الطرفين حتى اضطر اليهود إلى الانسحاب نهائياً من عصيون جابر ومنطقة خليج العقبة كلها في عهد الملك آحاز (٧٣٥ ــ ٧١٥ق. م.).

وظلّ الإيدوميون في إيلات بعد ذلك قرابة ثلاثة قرون إلى أن احتلها الأنباط ربما في القرن الرابع قبل الميلاد.

وفي هذا القرن حلّ الأنباط محل الإيدوميين في



□ خليج «إيلات» ـــ النطق الصهيوني لكلمة آيلة العربية الكنعانية السحيقة.

المنطقة وأصبحت أيلة ميناء الأنباط على البحر الأحمر. وكان الأنباط هم أول من استعمل اسم «أيلة» المشتق من اسم إيلات الاسم الإيدومي القديم. وقد نقل الأنباط أيلة من موقعها القديم قرابة ٣ أميال باتجاه الجنوب الشرقي إلى حيث تقع مدينة العقبة الحالية الآن.

ازدهرت أيلة ازدهاراً كبيراً مع ازدهار دولة الأنباط الاقتصادي لأنها كانت هي والبتراء عاصمتهم تقعان على خطين هامين من خطوط التجارة العالمية آنذاك بين الشام وجنوب الجزيرة العربية وآسيا من جهة، وبين الشام ومصر من جهة أخرى. وكانت هناك طريق تجارية هامة تصل بين أيلة وغزة.

وفي أثناء حكم البطالمة أصبح اسمها بيرينكة (Berenike)، وظلّت تتمتع بمركز تجاري هام مع شرق إفريقيا وجنوب جزيرة العرب. وفي سنة ١٠٦ق. م. تمكّن الامبراطور الروماني تراجان من قهر الأنباط، واحتل البتراء وأيلة، وبنى طريقاً تبدأ من أيلة وتنتهي بدمشق. وأصبحت بلاد الأنباط ولاية رومانية أطلق عليها اسم بروفنسيا أرابيا (الولاية العربية)، وأصبحت أيلة مقراً للفرقة الرومانية العاشرة وغدت حصناً عسكرياً جنوبي فلسطين.

وفي عهد البيزنطيين احتفظت أيلة بمكانتها التجارية فكان ينقل عبرها الحرير والتوابل إما إلى بلاد اليونان عن طريق غزة وإما إلى مدن الشمال في سورية. وفي سنة ٣٢٥م أصبحت أيلة مركزاً لأسقفية كان بعض أساقفتها من العرب.

وفي الفترة التي سبقت ظهور الإسلام حكمها ملوك الغساسنة باسم الدولة البيزنطية.

ظهر اسم أيلة لأول مرة في التاريخ الإسلامي سنة ٩هـ / ٦٣٠م؛ فعندما وصل الرسول عليه السلام إلى تبوك في تلك السنة قدم يوحنا بن رؤبة مطران أيلة على النبي فصالحه على جزية قدرها ٣٠٠ دينار في السنة، وعلى قِرى من يمر بأيلة من المسلمين. وكتب الرسول لهم كتاباً أن يُحفظوا وأن يُمنعوا «وأن لا يحل أن يُمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر». وأهدى يوحنا إلى النبي بغلة بيضاء، وأهدى النبي إليه بردة من بروده.

وعندما زار الخليفة عمر بن الخطاب الشام بعد طاعون عمواس خرج للقائه بأيلة جمهور كبير من الناس. وقضى ليلة في ضيافة مطران البلدة.

ومنذ بداية العهد الإسلامي أصبحت أيلة ملتقى الحجيج المصري والشامي وانتعشت التجارة فيها. وكان بها في العهد الإسلامي وبعده قوم يذكرون أنهم من موالي عثمان بن عفان، وكانوا سقاة الحج. وفي عام ١٩١هـ في خلافة هارون الرشيد امتنع أهل أيلة بقيادة أبي النّداء عن دفع الضرائب، وتمردوا على الحكومة العباسية، فبعث إليهم الرشيد بجنوده فظفروا بهم وأرسل أبو النّداء إلى بغداد حيث قتل.

أصبحت أيلة في القرن الثالث الهجري تحت حكم الطولونيين. وذكر أن خمارويه (توفي ٢٨٢هـ / ٨٩٦م) عبّد طريقها ورمّم الجبل العالي «ذا العقبة» الواقع إزاءها ليسهل وصول القادمين إلى المدينة.

وعلى الرغم من وقوع أيلة عند ملتقى أقطار ثلاثة هي الشام ومصر والحجاز فقد كانت في الغالب «تعد في بلاد الشام». وشهدت المدينة قمة ازدهارها في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي. ووصفها المقدسي ٣٧٥ ــ ٣٧٦هـ / ٩٨٥ ــ ٩٨٦م في «أحسن التقاسيم» فقال: «مدينة عامرة جليلة ذات نخيل وأسماك، فُرضة فلسطين وخزانة الحجاز. وفي أيلة تنازع حصل بين الشاميين والحجازيين والمصريين وإضافتها إلى الشام أصوب لأن رسومهم وأرطالهم شامية، وهي فُرضة فلسطين».

أصيبت أيلة في القرن الخامس الهجري بنكبتين، ففي سنة ٤١٥هـ / ١٠٢٤ ــ ١٠٢٥م نهبها عبدالله بن أدريس الجعفري مع جماعة من بني الجرّاح. وفي سنة ٤٦٥هـ / ١٠٧٢ ــ ١٠٧٣م حدثت في البلاد زلزلة هائلة أهلكت أيلة ومن فيها.

وقد جلبت فترة حكم الصليبيين إلى أيلة كثيراً من المصائب التي أدّت إلى تدمير قسم كبير من المدينة. ففي سنة ٥٠٩هـ / ١١١٦م احتل بغدوين الأول ملك القدس مدينة أيلة وضمّها إلى بارونية الكرك التابعة لمملكة القدس. وحاول الصليبيون استغلال موقعها العسكري ليمنعوا الاتصال بين الشام ومصر والحجاز. فأنشأوا حصناً على جزيرة فرعون المجاورة للشاطىء وبنوا أسطولاً في العقبة أبحر في عام ٥٥٥هـ / ١١٦٠م.

وفي سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م تمكّن صلاح الدين الأيوبي من استرداد أيلة بعد معركة برية وبحرية، فطرد الفرنجة وترك حامية في المدينة. لكن رينو دي شاتيون أمير الكرك الصليبي تمكّن من احتلال أيلة فترة قصيرة عام ٥٧٨ ــ ٥٧٩هـ / ١١٨٢ ــ ١١٨٣م في سياق حملته ضد الأماكن المقدسة في الحجاز. وكان قد بنى السفن في عسقلان ونقلها إلى أيلة وشرع يهاجم سفن المسلمين في البحر الأحمر. بيد أن حسام الدين لؤلؤ قائد صلاح الدين دمّر أسطول رينو سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م، وعادت أيلة إلى أصحابها.

عاد الصليبيون إلى أيلة مرّة أخرى، ثم استرجعها منهم نهائياً السلطان الظاهر بيبرس عام ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م، لكن المدينة كانت في حالة من الخراب. وبزوال الخطر الصليبي عادت أيلة ملتقى للحجاج القادمين من مصر والشام. وفي أوائل القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي بنى السلطان قانصو الغوري ٩٠٦ ــ ٩٢٢هـ / ١٥٠١ ــ ١٥٢٢م قلعة على شاطىء أيلة رممها السلطان العثماني مراد الثالث سنة ٩٩٦هـ / ١٢٩٦م. وكان هنالك قبل هذه القلعة قلعة أخرى قديمة تحمي أيلة في جزيرة فرعون القريبة وقلعة أخرى بناها الصليبيون على

الأرجح سنة ٥٧٨ أو سنة ٥٧٩ / ١٨٨٢ — ١١٨٣م. ولم يعد لهذه الأخيرة من أثر اليوم.

اصبحت أيلة ابتداء من القرن السادس عشر الميلادي تدعى باسمها الجديد «العقبة». وهذا الاسم اختصار لعقبة أيلة. وكان هذا الاسم، أي عقبة أيلة، قد أطلق على المدينة من القرن الرابع عشر الميلادي حتى القرن السادس عشر الميلادي. وابتداء من القرن السادس عشر الميلادي أسقطت كلمة أيلة واقتصر الاسم على العقبة. وتشير عقبة أيلة إلى الممر الوعر الذي مهدّه ملوك مصر ابتداء من خمارويه الطولوني حتى الناصر محمد بن قلاوون (٧١٩هـ / ١٣٣٠م) في جبل أمّ نصيلة المجاور للمدينة ليسهل الوصول إليها.

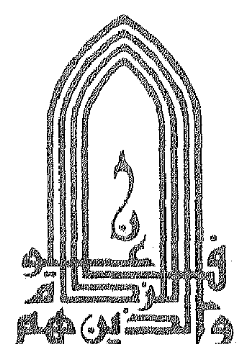
ظلّ خليج العقبة تحت السيادة العربية الكاملة إلى أن قام الاحتلال الصهيوني بتأسيس ميناء إيلات عام ١٩٥١. وظلّت القوات المسلحة المصرية المتمركزة في شرم الشيخ تحاصره حتى عام ١٩٥٦ عندما شنّت دول العدوان الثلاثي هجوماً على مصر، ونتج عن ذلك العدوان تمركز قوات الطوارىء الدولية في شرم الشيخ، والسماح للسفن الإسرائيلية وسفن الدول الأخرى بالمرور في خليج العقبة. لذلك أخذ ميناء إيلات سكاناً وعمراناً.

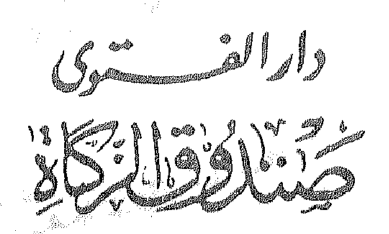
بدأ ميناء إيلات يقوم بدور حيوي في تجارة الكيان الصهيوني الخارجية منذ عام ١٩٥٦، وبخاصة مع دول شرقي إفريقيا وجنوب شرق آسيا وأوستراليا. وتمّ ربط إيلات بمدينة بير السبع وميناءي أسدود وعسقلان على البحر المتوسط بطريق رئيسة معبدة تخترق إقليم النقب. وتنتقل البضائع على هذه الطريق بالشاحنات الضخمة، وتمّ أيضاً ربط إيلات بمنشآت البوتاس في أسدوم وبمركز المفاعل النووي في ديمونة بطريق رئيسة معبدة أخرى تخترق وادي عربة. وترتبط إيلات أيضاً بمناجم الفوسفات في النقب بطريق متفرعة من طريق إيلات — بير السبع. وهنالك خطّان من انابيب النفط يصلان بين إيلات وكل من حيفا وعسقلان. ويبلغ طول الخط الأول قرابة ٤٠٠ كم، وقطره نحو ٤٠ سم، وتجاوزت طاقته ٦ ملايين طنّ سنوياً. أما الخط الثاني فيبلغ طوله ٢٥٦ كم، وقطره نحو ١٠٥ سم، ووصلت طاقته إلى ٢٠ مليون طنّ سنوياً، وقد تصل طاقته في المستقبل إلى ٥٠ مليون طنّ سنوياً.

ولشركة زيم الصهيونية للملاحة خطوط منتظمة عبر البحر الأحمر إلى أثيوبيا وكينيا وتانزانيا ومالاغاشي وموزامبيق وجنوب إفريقيا. وتدير الشركة خطوطاً منتظمة إلى الموانىء اليابانية وهونغ كونغ وماليزية وسنغافورة وأوستراليا. وأهم الصادرات الإسرائيلية إلى أفريقيا والشرق الأقصى، عبر إيلات، البوتاس والفوسفات والإسمنت والنحاس والإطارات والمنسوجات ومسحوق الصابون والمبيدات والحمضيات. وأهم الواردات النفط والمنتجات الصناعية والحديد والمطاط الصناعي وزيت جوز الهند والأرز والذرة والعلف. وقد ساهم ميناء إيلات في أكثر من ٧ ٪ من مجموع النقل البحري للكيان الصهيوني في عام ١٩٨١. ويقدّر مجموع كمية الصادرات والواردات عبر ميناء إيلات (باستثناء النفط) بنحو ثلاثة أرباع مليون طن من البضائع.

بلغ عدد سكان إيلات في عام ١٩٥٢ نحو ٢٧٥ نسمة، وازداد عددهم إلى ٢,٦٠٠ نسمة عام ١٩٥٦، وإلى ١١,٠٠٠ نسمة في عام ١٩٦٦، وإلى ١٤,٠٠٠ نسمة في عام ١٩٧٣. ويقدّر عددهم بنحو ٢٠,٠٠٠ نسمة في عام ١٩٨١. يعود غالبية سكانها في أصولهم إلى صهيونيين مهاجرين من شمال إفريقيا والمجر ورومانيا وبولونيا وهولندة. وفيها مطار هو الثاني في فلسطين المحتلة بعد مطار اللد، ويبعد نحو كيلومترين عن الساحل على الجانب الغربي من الطريق العامة. ولإيلات مرفأ مدني وآخر عسكري. وفيها عدد من المصانع كمصنع قطع الأحجار وصقلها، ومصنع صقل الماس، ومصنع الجص، ومصانع لتعليب الأسماك، ومصنع للنحاس، ومعمل لحياكة الملبوسات، ومعمل لتعقيم الحليب. وفيها أيضاً مصفاة للنفط، ومحطة لتقطير المياه تنتج أكثر من مليون غالون ماء يومياً لسد حاجة المدينة من المياه، ومحطة للقوة الكهربائية. •

المراجع: **الموسوعة الفلسطينية، المجلد الرابع، الطبعة ١٩٨٤.**





ساهموا معنا في إحياء فريضة الزكاة

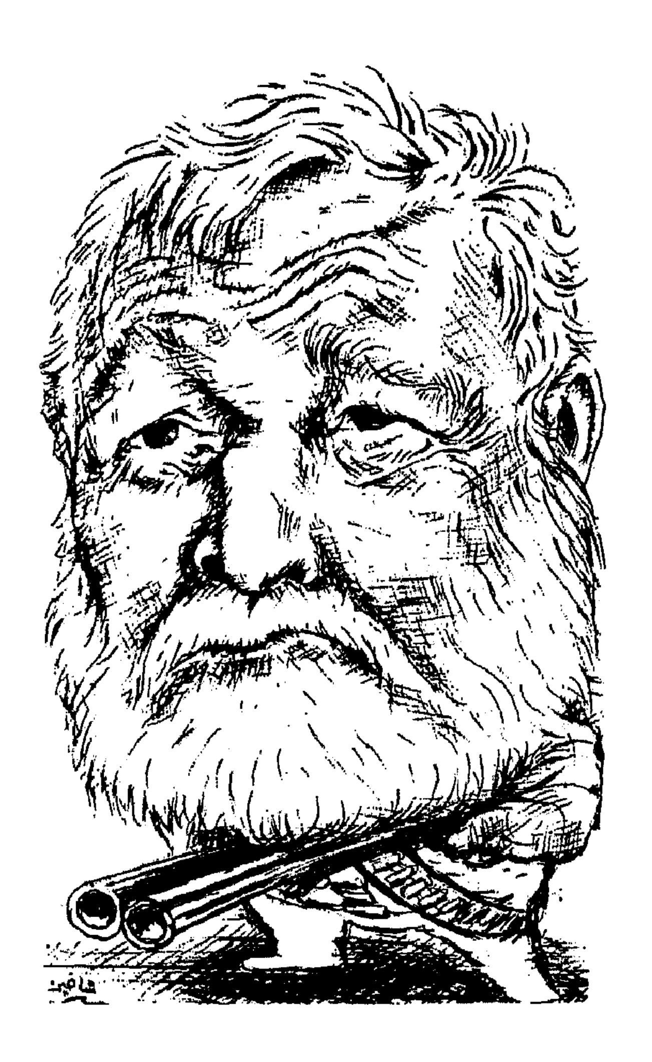
مكاتب الصندوق:

- المكتب الرئيسي: الصنوبرة شارع اللبان - هاتف - ٨٦١٦٠٤
- دار الفتوى: الزيدانية شارع ابن رشد - هاتف - ٣٠٨٩٠٠
- الأوقاف الإسلامية طريق الجديدة هاتف ٣٠٣٠٦٠/١
- مقر الدائرة النسائية (سنتر طبش، كورنيش التلفزيون) هاتف - ٣١٠١٣٢



أرنست همنغواي

الكاتبُ الإنساني الذي هَزأ بالحَياة، وغَزا العالم بِسلاح العقل والقلبْ



الطريقة التي مات بها أرنست همنغواي، من حوالي عشرة أعوام، ميتة روائية «دراماتيكية» مؤسفة: لقد مات هذا الرجل الإنساني الذي غزا العالم بسلاحي العقل والقلب، بينما كان يجرب سلاحاً عادياً بسيطاً ــ بندقية صيد ــ انطلق فجأةفقضى عليه وأخمد في دقيقة واحدة عقله وقلبه.

إنها أغرب نهاية لكاتب.. ولكنها ليست غريبة على مغامر عظيم كهمنغواي صمد بوجه أخطر المغامرات وجابهبجرأة أقسى المعارك وخاض غمار عدة حروب، وعاش حياته يهزأ بالحياة ويعيش في صراع دائم من أجل لذة العيش، فقد كان في رحيل دائم وفيغمار غربة مستمرة لا يقر له قرار في وطنه، ما أن يزوره حتى يغادره وهو غير أسف، في سفرة جديدة أو بحثاً عن عالم جديد، حتى لكأنه ملّ العالم الجديد (بلاده) منذ نعومة أظفاره فأقام في العالم القديم يتنقل بين عواصم أوروبا أو يتجول في قفار أفريقيا، أو يطوف في الجزر النائية وهمه الأول دراسة الإنسان في صراعه مع الحياة من أجل الحياة.

ويمكن القول أن المدرسة التي تخرج منها ارنست همنغواي ونال إجازته إلى دنيا الأدب والفن فيها، هي القارة الأوروبية. وكانت الموضوعات التي درسها في تلك المدرسة إلى جانب الأدب والفن، اللغات والناس والسياسة ومؤتمرات السلام والحرب. ففي عام ١٩١٨ مرّ همنغواي بمحنة اصابته بما يشبه إنفجار الألغام، إذ كان في ليلة من ليالي تموز في شمالي إيطاليا قبل عيد ميلاده التاسع‌عشر بأسبوعين حين انفجر لغم نمساوي فأصابه بجرح بليغ حتى كادت دراسته في كتاب الكون تنتهي قبل أن تبدأ.

وفي العشرين من عمره عاد الفتى إلى بلده «أوك بارك» من أعمال شيكاغو وهو يعرج متوكئاً على عصاه، وقد ارتدى زياً غريباً. غير أن مكوثه في وطنه لم يطل إذ كان عليه أن يعود إلى باريس، بعد الحرب الأولى ليتم مرحلة دراسية بدأها يافعاً، وفيها علم نفسه كيف يكتب حين كان يعمل مراسلاً لبعض الصحف رغبة في التعيش. وقد جاب القارة الأوروبية، وانضم لأسباب اقتصادية إلى عصبة من الفنانين الأنكليز والأميركيين المقيمين على الشاطيء الأيسر من نهر السين (حي الفنانين والشعراء والكتاب).

حياته الصحفية

أما حياته كمراسل صحفي فقد أحبها وعمل فيها جاهداً ونجح في ذلك. ولقد قال عن الصحافة بعد سنتين: «إن أكبر حافز للعمل في الصحافة أن يجد المرء مرتبا جيداً. وحين تحطم الأمور القيمة التي لديك، لكي تكتب عنها، فأنك تريد أن تحصل على مبلغ ضخم».

وقد عقد في هذا العهد أحاديث مع كلمنصو العجوز الداهية وكان قد اعتزل الناس والشهرة ولكنه اصبح من المقربين إلى همنغواي وأحد أبطاله كما حضر عدة مؤمرات، أما موسوليني فكان ارنست همنغواي يمقته منذ أن كان صحفياً صغيراً في صحيفة «البوبولوديطاليا» وقال عنه منذ البداية. بصراحة مؤلمة «إنه شخصية رديئة» ولم يغب عن بال همنغواي لحظة أن غايته الأولى ان يصبح أديباً، ومع ذلك أنفق معظم عام ١٩٢٢ في تلقي دروس خاصة في العلم السياسي وفي أواخر آذار من ذلك العام شهد في جنوه العراك بين العصابات الثورية في الحارات والأزقة وقد استنزفت هذه الفوضى حيوية الشعب الإيطالي وجعلت مؤتمر لوزان في أواخر عام ١٩٢٢ وهناك تعرف إلى تجارب هائلة في دنيا السياسة حملته على نظم قصيدة حرة ينتقد فيها المؤتمر وكان عنوانه «كلهم يريدون السلم، فما هو السلم؟».

أول أشعاره وقصصه

وهكذا بدأ همنغواي في مطلع حياته الأدبية يكتب القصص وينظم القصائد السياسية النقدية الطليقة من الوزن وقد كان عمله الصحفي يعلمه دروساً في الإيجاز اللفظي، ومن أشهر قصائده في هذه المرحلة ست قصائد على اسلوب كبلنغ نشرت في مجلة «شعر»، ومنها ايضاً قصتان قصيرتان على طريقة اندرسون أحداهما: «هنالك في ميتشفن» التي تصور حادث إغراء جنسي. اما الثانية فعنوانها «شيخي».

ثم بدأ في نشر القصص والصور في كتيب صغير أسماه، (في عصرنا) وقد صدر في عام ١٩٥٢ وهو يتضمن مجموعة من الصور التي لم تزد فيه اية صورة عن صفحتين. وبلغت فيه إحدى الصور ثمانية أسطر. كتابه «ثلاث قصص وعشر قصائد». فكان أكبر حجماً من الأول غير أن قصتين من الثلاث كانتا تمثلان محاولتين في القصص القصيرة. وبدأت الولايات المتحدة تولي نتاجه شيئاً من الأهتمام كأنما كانت تريد أن تشجع فيه التوجه إليها. فطبعت قصيدته «عنوان الفصل» بين خير القصائد التي ظهرت عام ١٩٢٣ وأدرجت اقصوصته «شيخي» بين خير الأقاصيص التي كتبت في العام نفسه.

ثم أهمله الناشرون واحتاج همنغواي إلى جهد كثير من أصدقائه لتوجيه أنظار الناشرين إليه، وقد طال عليه العهد الذي لم تعبأ به اميركا، ولكنه في الأثناء عكف على نشر بعض قصصه وقصائده في مجلات انكليزية والمانية ضعيفة.

وظهرت له سنة ١٩٢٦ قصة «سيول الربيع». وهي قصة ظاهرها السخرية وباطنها الجد الخالص، وقد استمد عنوانها من ترغيف. وهو أول كتاب عرف الناس بأن همنغواي يشق العصا على من يتهم بمحاكاتهم وأنه كاتب مستقل

وقد برز استقلال همنغواي الأدبي في كتابه التالي «إفساد الأميركيين» الذي لقي القبول عند المراجعين الأميركيين وقد انتقد فيه فساد الشبان الأميركيين الذين يقبلون على اللهو في مقاهي باريس.

استقلاله الأدبي

وهكذا حتى ربيع ١٩٢٦ لم يكن قد تم تكوين همنغواي وقد صدع ما كتبه همنغواي باب السوق الأميركية ولكنه عجز عن فتحها. وقد ثار همنغواي في ما بعد على أساليب عصره فاندفع في ثورة عاطفية حطم فيها التقاليد، وقد حققت الثورة كتبه الثلاثة التالية:

«الشمس تشرق أيضاً» و «الرجال دون نساء» و «وداعاً أيتها الحرب » ثم بدأت تظهر ثورة على الثورة. وإذا كانت «سيول الربيع» إيذاناً بالاستقلال الأدبي لهمنغواي فإن «والشمس تشرق ايضاً»، كانت إعلاناً بأن همنغواي لا ينتمي إلى الجيل الضائع الذي عايشه وشهد استبحاره على الأوهام في باريس. وقد نفض من أعماقه كراهيته لظلم بيئته وللذين يجعلون منها بيئة ظالمة.

وبهاتين القصتين عرف همنغواي الناس قصيصاً جاداً، ولكن للقصتين قيمة أخرى غير القيمة التاريخية وهي قيمة جمالية أخلاقية فإنهما لدى التحليل الدقيق تكشفان جانباً كبيراً من فن همنغواي يمكن أن ندعوه جديداً لو لم يكن ذلك الجانب جديداً منذ البداية. واعني بذلك تياراً من المعاني الرمزية الكامنة فيما يكتبه، تياراً لم يتحدث عنه أحد ولم يفطن إليه أكثر الذين كتبوا عن همنغواي.

نكسة فنية

وطغا انتاج همنغواي القصصي من عام ١٩٣٢ حتى عام ١٩٣٨ على ما عداه من الإنتاج فنشر سنة ١٩٢٩ «خمس وأربعين قصة» وأول تسع وأربعين قصة وهي أقاصيص تتباين في نوعها ومحتواها. وقد أفتتح هذه الفترة بكتابه «موت بعد الظهيرة»، وهو مؤلف استطرادي غير قصصي عن مصارعة الثيران، ولقد أصبح من معاد القول في نقد همنغواي أن يقال أنه مني بنكسة فنية خلال هذه السنوات الخمس واختتمت هذه الفترة بكتابه «الطابور الخامس» وهي رواية مسرحية وبين هذين الكتابين (أي وداعاً أيتها الحرب والطابور الخامس) كتب «تلال افريقيا الخضر». وهي المحاولة الثانية في غير القصص وكتب ايضاً «من يملك ولا يملك» وهو ما يعده همنغواي نفسه في شيء من التحفظ، غلطة في حق السياق القصصي، إذ حاول فيه أن يخلق قصة طويلة مما كان يجب أن يظل قصة متوسطة الطول يدور موضوعها حول مرتزق اسمه هاري مورغان. ولم يسبق لهمنغواي أن ارتكب مثل هذه الخطيئة إذ شق القصة من وسطها، وترك مواضع الالتحام فيها مهلهلة. فأفقرها مما أغنى به قصتيه «والشمس تشرق ايضاً» و «وداعاً أيتها الحرب». بل قصر من مدى «تلال افريقيا الخضر». حين حرمها الأساس الدقيق المسموح بالعاطفة وكتبها ــ بخلاف قصصه الأربع الأخرى، على فترات متقطعة متباعدة امتدت ثلاث أو أربع سنوات.

وفي عام ١٩٣٩ ــ ١٩٤٠ كتب همنغواي قصته الرائعة «لمن تقرع الأجراس». التي تناولت الحرب الإسبانية وقد سجل فيها انطلاقاً جديداً مدوياً بعد ركود قصير وإذا لم تكن هي قصة موسومة بالكمال إلا أنها في صياغاتها ومبناها وأصالتها موسومة بالعظمة واعتبرت أثراً خالداً رفعت مؤلفها إلى الذروة.

وفي منتصف القرن الحالي كتب همنغواي «عبر النهر وفي الغابات». وقد بدأها قصة قصيرة فاستطالت تدريجياً وإذا بها تصبح قصة متوسطة الطول، وهي تذكر القارىء بدانتي ولكنها اعتبرت ضعيفة لأنها جاءت في أعقاب قصته الخالدة «لمن تقرع الأجراس».

اما في قصته «الشيخ والبحر» التي صدرت عام ١٩٥٣ فقد نجح همنغواي فيها بإبراز المقارنة بين الشيخوخة والشباب نجاحاً لم يحرز مثله في «عبر النهر». وقد أضاف عناصر من القوة إلى صورة الصبر والجلد والكفاح حتى أنه جعل من بطلها سنتياغو قديساً من القديسين. وقد جلت هذه القصة مقدرة همنغواي على الربط بين الطبيعة والفن وبين حقائق الأشياء وصورها وهي مقدرة رائعة لم يبرز فيها اي كاتب آخر، وقد فاز

على أثر صدور هذا الكتاب بجائزة «بوبوليتزر» الأدبية الأميركية، كما فاز أيضاً بجائزة نوبل للاداب عام ١٩٥٤.

غير أن همنغواي قد تعرض في حياته لكثير من الانتقاد، وقد أعتبره البعض من بين الكتاب غير المسؤولين، وهم يعنون بذلك أنه غير مسؤول إجتماعياً لأنه لم يكن ملتزماً منهجاً إجتماعياً معيناً، بينما قال أخرون أن مسؤولية الفنان الإجتماعية هي تقديم الحقيقة من التجربة الإنسانية ومن هذه الناحية فليس من هو أكثر اضطلاعاً بالمسؤولية من همنغواي لفنه وللأساس القوي من المعتقد الأخلاقي والجمالي الذي يقوم عليه فنه.

لقد كانت حياة همنغواي سلسلة لا تنقطع من المغامرات التي بلغت بصاحبها حد الهوس والجنون، وكان رياضياً بارعاً أجاد الملاكمة والبيزبول، واحب رياضة صيد الأسماك، واقتناص الوحوش ومصارعة الثيران كما شارك مشاركة فعالة في الحربين العالميتين الأخيرتين حيث عمل في الأولى مع فرقة الصليب الأحمر الأميركي في أوروبا وفي الثانية مراسلاً حربياً لمجلة (كوليرز) كما عمل في صفوف الأنصار في بريطانيا بفرنسا ودخل مع فرقة الجنرال لوكلير إلى باريس بعد تحرير فرنسا وشارك في ما بينهما في الحرب الإسبانية حيث قاتل في صفوف الجمهورين ضد فرانكو على أبواب مدريد.

وقد عاش مدة في كوبا حيث مارس هواية صيد الاسماك واشترك في تحضير الثورة ضد باتيستا كما يقال، غير أنه ظل يتنقل في المدة الأخيرة بين اميركا وايطاليا وإسبانيا التي أحبها وعاش فيها اجمل سني حياته.

وقد تجلى حب المغامرة في حياة همنغواي حتى في حياته العاطفية حيث تقلب في أحضان عدة نساء وتزوج أربع مرات. وقد صورهو نفسه حياته الخاصة في كتابه «ثلوج كليمنجارو». الذي أخرج ايضاً على الشاشة.

وبموته، مات أكبر اديب عرفه العالم في هذا العصر بعد أن ملأ العالم صخباً وضجيجاً ولعله اراد أن يكون موته أيضاً صاخباً فكان القدر اختار هذه الطريقة التي مات بها ميتة صاخبة على ازيز رصاصة طائشة. •



● «الحياة مكان للصلاة. وفي هذه الصلاة يتحمل الانسان أكثر مما يطيق، وغالباً ما يكتسب خبرة ومتعة، ويمكن أن تكون هذه المتعة حقيقية إذا نظر الناس إلى حياتهم كصلاة، ووضعوا أمام أعينهم هدفاً محدداً خارج انفسهم أو سعادتهم الذاتية».

(تولستوي)

● «إن الذي لا يعرف شيئاً ويعرف أنه لا يعرف شيئاً، هو طفل — فعلمه. أما من يعرف ولا يعرف أنه يعرف فهو نائم — فأيقظه. أما الذي لا يعرف شيئاً ولا يعرف أنه لا يعرف شيئاً فهو غبي — فابتعد عنه. أما الذي يعرف ويعرف أنه يعرف فهو زعيم — فاتبعه».

(مثل صيني)

● «ثم ولي أمر المسلمين أبو بكر، فكان من لا تنكرون دعته وكرمه، ولينه، فكنت خادمه وعونه، أخلط شدتي بلينه فأكون سيفاً مسلولاً حتى يغمدني فأمضي.. فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل وهو عني راض، والحمد لله على ذلك كثيراً. وأنا به أسعد...».

(الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه)

● «إن العمل والعلم قريبان، فكن عالماً بالله عاملاً له، فإن أقواماً علموا ولم يعملوا فكان علمهم عليهم وبالاً».

(الخليفة عمر بن عبدالعزيز)

كتب جديدة

□ **الجغرافية التاريخية لبلاد الشام في العصر الأموي:**

صدر للدكتور حسين عطوان كتاب جديد عنوانه: «الجغرافية التاريخية لبلاد الشام في العصر الأموي» صدر حديثاً عن دار الجيل في بيروت.

يضم الكتاب فصلان: الأول عن بلاد الشام وأجنادها. والثاني، عن عرب الشام قبل الإسلام حتى العصر الأموي بالإضافة إلى سكان آخرون بالشام.

□ **مصر في عهد محمد علي:**

صدر مؤخراً كتاب «مصر في عهد محمد علي» تأليف: «الدكتورة عفاف لطفي السيد» باللغة الإنكليزية. وتحاول لطفي كتابة تاريخ مصر من ١٨٠٥ إلى ١٨٤٨ حين كان محمد علي يحكم مصر، وتقول المؤلفة إنه بالرغم من أن عدداً كبيراً من الكتب عن هذه الفترة قد صدر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين إلا أنه لم يظهر عمل كبير منذ العام ١٩٦١، وهذا ما حدا بها إلى أن تفتح باب البحث مجدداً ليس في تاريخ مصر وحسب وإنما في تاريخ المنطقة أيضاً.

□ **المقاومة الداخلية لحركة المهدية في السودان:**

صدر عن دار الجيل في بيروت كتاب: «المقاومة الداخلية لحركة المهدية ١٨٨١ ــ ١٨٩٨» لمؤلفه محمد محجوب مالك.

يعنى الكتاب بالتشكيلات الداخلية التي عارضت تبلور حركة المهدية السودانية في دولة السودان ويتضمن الكتاب الفصول التالية: فكرة المهدية، تاريخ المهدية (فترة المهدي ــ فترة الخليفة عبدالله). معارضة الرأي: (معارضة بعض العلماء الدينيين والشخصيات ــ معارضة رجال الطرق الصوفية ــ المعارضة في الداخل ــ معارضة الأشراف وأولاد البلد) الموقف القبلي. وفي الكتاب ملاحق عن المرحلة.

□ **وحدة المغرب العربي:**

صدر مؤخراً عن مركز دراسات الوحدة العربية، ومركز الدراسات العربية المتوسطية كتاب جديد بعنوان: «وحدة المغرب العربي». وقد تضمن الكتاب أربعة أقسام في ثلاثة عشر فصلاً، تناول القسم الأول فكرة المغرب العربي، القسم الثاني تركز على البعد القومي لوحدة المغرب العربي، القسم الثالث ركز على «واقع ومستقبل وحدة المغرب العربي»، أما القسم الرابع فقد كرّس للبحث في «تصورات اقتصادية واجتماعية وثقافية للوحدة».

□ **قمم فكرية:**

سير مختصرة لأعلام في الفكر العربي والإسلامي كتبها الدكتور نقولا زيادة وجمعها في كتاب عنوانه: «قمم من الفكر العربي والإسلامي» صدر حديثاً عن الأهلية للنشر والتوزيع في بيروت.

الأعلام هم: ابن إسحاق، ابن هشام، الإمام الشافعي، صاحب الصحيحين، الكندي، الفارابي، الرازي، ابن سينا، الطبري، مسكويه، المسعودي، المقدسي، ابن هيثم، الموردي، البيروني، الأوريسي ياقوت الحموي، الإمام الغزالي، ابن أبي أصيبعة، ابن الطفيل، ابن رشد، العمري، ابن تيمية، القلقشندي، ابن خلكان، المقريزي.

□ **القضايا الجديدة في الصراع العربي الإسرائيلي:**

صدر عن دار «الكتبي للمطبوعات» في بيروت، كتاب: «القضايا الجديدة في الصراع العربي الإسرائيلي» لعبدالحسين شعبان.

مهمة الكتاب وهدفه تسليط الأضواء على «جوانب مهمة في قضايا الصراع العربي ــ الإسرائيلي. وهي الجوانب الأكثر التهاباً في الوقت الحاضر. ورغم أن الصراع العربي ــ الإسرائيلي لا يمكن تجزئته أو بحث أية قضية من قضاياه بمعزل عن مجمل الصراع، لكن لكل قضية في قضاياه خصوصيتها».

يقع الكتاب في ٣٧٨ صفحة من الحجم الكبير ضمن ستة فصول:

«الصهيونية وحق تقرير المصير» «القضايا الدولية الجديدة في الصراع العربي ــ الإسرائيلي». «المعاهدات العربية الإسرائيلية»، حقوق الإنسان الفلسطيني»، قصف المفاعل النووي العراقي وموقعه في الصراع العربي الإسرائيلي» و «مسؤولية إسرائيل الدولية».



صلاح الدين الأيوبي، يوسف: (١١٣٧ ؟ ــ ١١٩٣)

● مقاتل وبطل مسلم، ومؤسس الأسرة الأيوبية بمصر، والخصم الأكبر للصليبيين، ولد في تكريت من أصل كردي. عاش ١٠ سنوات في دمشق في بلاط نورالدين سلطان السلاجقة حيث عني بدراسة المذهب السني. رافق عمه الأمير شيركوه في حملات ارسلها نورالدين ضد الفاطميين بمصر (١١٦٤ و ١١٦٧ و ١١٦٨) وجعل شيركوه نفسه وزيراً، وعند موته ١١٦٩ خلفه صلاح الدين.

وعندما وطد صلاح الدين سلطته حذف اسم السلطان العاضد في صلاة الجمعة، وبذلك انهى حكم الفاطميين، وأعد نورالدين حملة ضد واليه القوي الذي اتهم بأنه ينوي الخروج عليه، ولكن نورالدين توفي، فأعلن صلاح الدين استقلاله، ونصب نفسه سلطاناً على مصر، وبذلك اسس الأسرة الأيوبية ١١٧١ وبدأ أعماله الحربية بفتح اليمن وفلسطين، واستولى على دمشق والموصل وحلب ١١٧٤ في حربه ضد الحشاشين، ثم أصلى الصليبيين حرباً حامية، وهزمهم في معركة حطين الفاصلة ١١٨٧، فسقطت بيت المقدس في يده، ثم واجه ريتشارد الأول (قلب الأسد) ملك انجلترا في الحرب الصليبية الثالثة ١١٨٩، ودار القتال سجالاً دون ان يظفر الصليبيون باسترجاع بيت المقدس، وانتهى القتال بين الفريقين بصلح الرملة ١١٩٢ الذي بمقتضاه لم يبق في أيدي الصليبيين سوى شريط ساحلي يمتد بين صور ويافا. ذاع صيت صلاح الدين بين المسيحيين كمحارب شهم كريم الخلق أبي النفس، ولم يكن مقاتلاً مغواراً فحسب، بل كان رجلاً مثقفاً يحب العلم ويشجع العلماء، عمَّر المساجد وأصلح الري وبنى القلعة وبعض أسوار القاهرة. مات بدمشق ودفن بها.

● [illegible]

صدر عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم كتاب «الآثار الإسلامية في الوطن العربي». ويتضمن الدراسات والوثائق والنصوص التي قدمت خلال المؤتمر التاسع للآثار الذي نظمته في فبراير ١٩٨٠ بصنعاء.

وقد تعرضت البحوث التي تضمنها للتطور التاريخي للمدينة العربية، والصراع الذي تعيشه في العصر الحاضر بين الأصالة والمعاصرة، والتحديات الكبيرة المفروضة عليها، كما تعرضت لأشكال وطرق صيانة المدينة العربية الإسلامية، ونماذج من المعمار العربي، وأثر الفنون العربية قبل الإسلام في الفن الإسلامي، وأثر الفن العربي الإسلامي في الفن العربي، ومصادر الآثار الإسلامية.

وابرز الجزء الخاص بالوثائق والنصوص جهود المنظمة في مجال المحافظة على المدن والمواقع التاريخية ومدى تطور الحملة العربية الإسلامية لصيانة مدينة القيروان. كما تضمن تعريفاً بمشروع قانون الآثار الموحد، وعرضاً لتقارير الدول العربية عن أوضاع الآثار.

● استحداث جائزة لبحوث الحضارة الإسلامية

أنشأ المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) في الأردن جائزة أطلق عليها «جائزة عبدالله بن الحسين لبحوث الحضارة الإسلامية»، وقرر المجمع أن يكون موضوع الجائزة الأولى: إمارة شرقي الأردن: نشأتها وتطورها في ربع قرن (١٩٢١ ــ ١٩٤٦). وسوف يمنح الفائز مبلغ ٣ آلاف دينار أردني ورصيعة ذهبية عليها شعار المجمع واسم الجائزة، وشهادة باسمه وعنوان البحث.

ويذكر أن الجائزة سوف تمنح كل سنتين، وآخرموعد لقبول بحوث الجائزة الأولى هو آخر نوفمبر ٨٧.

● الأمانة العامة للمؤرخين العرب تحذر من تشويه الكيان الصهيوني لتراثنا وتاريخنا

دعت الأمانة العامة لإتحاد المؤرخين العرب في بغداد أقسام التاريخ في الجامعات العربية ومراكز البحث العلمي وكل المثقفين العرب إلى الانتباه إلى ما يصدر عن الكيان الصهيوني في فلسطين من منشورات ومطبوعات تخص القضية العربية عموماً، والتاريخ خصوصاً، وذلك بدراسته دراسة واعية عميقة، واكتشاف ما فيه من سموم حاقدة وأفكار مريضة، وطالبت بإحالته إلى الاتحاد لدراسته، والوقوف على ما فيه من افكار تزيف الحقائق، وتشوه الوقائع.

وأكدت في بيان أصدرته لفضح أساليب الكيان الصهيوني في تشويه تاريخ الأمة العربية، أن الأعمال الصوفية وتلك التي تعتمد على بحث الفضائل تستهوي الباحثين اليهود للبحث في ثناياها عن أمور لا تتفق وروح الإسلام، وأشارت إلى أن الجامعة العبرية في القدس أصدرت في بداية عام ٨٦ عدداً من الكتب المحققة، منها:

ــ انساب الأشراف، للبلاذري. وقد نشر النص بالعربية والهوامش بالانجليزية، وما تم نشره يمثل الجزء الرابع من الكتاب. وقد حققه ماكس شوسلنجر. وهناك مجلدات أخرى نشرتها سابقاً الجامعة نفسها.

ــ ذم الدنيا، لابن أبي الدنيا. حققه المجور، ونشر النص بالعربية.

ــ الأحاديث الحسان في فضل الطيلسان. للسيوطي، وحققه أرازي.

ــ فضائل بيت المقدس، لأبي بكر بن أحمد الواسطي.

ــ جوامع آداب الصوفية، للسلمي.

ــ آداب المريدين، للسهروردي.

واستطردت الأمانة في بيانها إن هناك نوعية أخرى من الأعمال حظيت باهتمام اليهود، تتمثل في الدراسات التي تقوم حول الأدب والتاريخ العربي والإسلامي.

وأشارت إلى أن من الأعمال الهامة التي نشرتها الجامعة العبرية سلسلة بعنوان «دراسات القدس عن العربية والإسلام»، وهي سلسلةسنوية، صدرمنها حتى الآن خمسة مجلدات، وتشمل أعمالاً قدمت إلى معهد الدراسات الآسيوية والإفريقية في الجامعة، وتغطي موضوعات عديدة، منها الإسلامي والحضارة والفكر في العصور الوسطى، وكذلك اللغة والآداب العربية، كما أشارت إلى دراسة مطولة عن الغزالي في ٥٨٤ صفحة قام بوضعها لزريوس يافع في خمسة عشر عاماً، وكتاب بعنوان «دراسات حول اليهودية والإسلام» ضم مجموعة من البحوث

حول آداب وتقاليد المجتمع اليمني والمجتمع اليهودي في المغرب، والتاريخ الإسلامي ووثائق الجنيزا أشرف على تحريرها ابن آمي، وجاءت في مجلدين، وكتاب ثالث بعنوان «دراسات حول بدايات الإسماعيلية» لكاتب اسمه سترن. وقالت إن اهتمامات الدارسين اليهود بقضايا الإسلام وصلت إلى ماليزيا، فوضع أحدهم كتاباً بعنوان: «الإسلام والمؤسسات الإسلامية في الملايو البريطانية ١٨٧٥ — ١٩٤١م».

ولفتت الأمانة الانتباه إلى الاهتمام الشديد لليهود بتاريخ فلسطين، حيث يعمدون عادة إلى إبرازه في صورة سيئة تعبيراً عن الوضع المتردي للمنطقة قبل حلولهم فيها، وفي هذا الإطار جاءت مجموعة دراسات نشرتها الجامعة العبرية بعنوان «دراسات حول فلسطين خلا العصر العثماني»، وسلسلة بعنوان «أوراق القدس» اهتمت بترسيخ فكرة الحق اليهودي في القدس، ونشر ضمنها: «الحق اليهودي في القدس» ليهودا بلوم، «الكيان الصهيوني في الشرق الأوسط — مدخل» لياكوف هرزوج، «المفهوم الإسرائيلي للحدود الآمنة» لستيفن روسن.

● جمعية جديدة باسم: «الجمعية المغربية للتراث»

أسس مجموعة من أساتذة الجامعات المغربية جمعية علمية أطلقوا عليها اسم «الجمعية المغربية للتراث»، وذلك بهدف إحياء تراث الأمة في مختلف ميادين العلم والمعرفة. وقد اعتمدت الجمعية عدة وسائل لتحقيق أهدافها، منها: التصوير، التحقيق، الطبع والنشر والتوزيع، التأليف والدراسة، الترجمة، إصدار النشرات والمجلات المتخصصة، تنظيم الندوات والمحاضرات، عقد المؤتمرات واللقاءات الثقافية والمشاركة فيها داخل المغرب وخارجه.

وتعقد الجمعية آمالاً كبيرة على المعاهد والمؤسسات والجمعيات المعنية بالتراث.. وعلى الأفراد من الباحثين والعلماء، في مساعدتها ومد يد العون لها لوضع أهدافها موضع التنفيذ، كما تضع بالمقابل كل إمكاناتها المتواضعة في خدمتهم.

● مخطوطة نادرة للقرآن

ذكرت صحيفة «هندونيوز» أنه عثر على مخطوطة نادرة للقرآن ترجع إلى القرن السابع عشر لدى بائع فاكهة في مدينة بنغالور جنوبي الهند.

كتبت هذه النسخة التي لا تقدر بثمن العام ١٦٨٨ بيد الخطاط حفيظ حبيب الله الذي كان يعمل في خدمة الامبراطور المغولي أورانجزيب، وعثرت السلطات الهندية على المخطوطة النادرة بعد أن انتقلت وعادت سراً من دبي، حيث كان صاحبه يعتزم بيعه ولما لم يجد له مشتر عاد به إلى بنغالور.

تمت مصادرة المصحف برغم أن صاحبه أكد أنه ورثه عن أسرته التي تنتمي إلى نبلاء يتحدرون من بلاط الملك الهندي تيبو سلطان الذي كان قد اقتناه بعد مرور عامين من صدوره.

● اقتداء بابن بطوطة

غادر شابان قطريان يرتديان الجلباب الطويل التقليدي مسقط على ظهر جمل في رحلة طويلة غريبة... إنهما صالح محمد واياد بن عامر اللذان ينتميان إلى قبيلة شمارى، وهي قبيلة ذات بأس شديد، على أمل أن يصلا إلى المغرب بعد ستة أشهر يجتازان خلالها ثلاث عشرة دولة عربية.

ثم بعد مرور ثلاثة أشهر من انتهاء هذه الرحلة سيسافر المغامران من تركيا في رحلة أطول يعبران خلالها آسيا بأكملها إلى أن يصلا إلى سيول التي يأملان في الوصول إليها العام ١٩٨٨ عند افتتاح الدورة الأولمبية.

والرجل الذي يقف وراء هذه المغامرة هو ولي عهد قطر الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني وقد قدم للمغامرين أحد جماله «دبيان» وهو من جمال السباق.

وصرح صالح محمد وهو غير متزوج وفي الثلاثين من عمره لمراسل صحيفة «خليج تايمز» بمسقط بقوله: «يجب أن يعرف الجميع أن العرب قادرون على العودة إلى استخدام سفن الصحراء إذا حدث يوماً وافتقروا إلى النفط لتشغيل طائراتهم».

ويأمل صالح في العثور على امرأة قبل أن يصل إلى طنجة، حيث ينوي الاحتفال بذكرى الرحالة الشهير وعالم الجغرافية

المغربي ابن بطوطة (وهو من مواليد هذه المدينة المغربية) الذي عبر افريقيا وآسيا في القرن الرابع عشر.

● **التحول عن العطارين:**

يقول عطارون يعملون في أزقة ضيقة متعرجة في الأسواق العربية التقليدية إنهم يواجهون اوقاتاً صعبة لأن زبائنهم أخذوا يتحولون إلى الأدوية الحديثة. فبدلاً من الأدوية المؤلفة من جذور مغلية وحشائش وبهارات وأجزاء من حيوانات بات الزبائن يريدون مواد مضادة للجراثيم وأدوية أخرى من الصيدليات، سواء وصفها لهم الطبيب أو لم يصفها.

ويعود هذا التغير في الموقف إلى أن لدى دول الخليج أفضل خدمات طبية في الشرق الأوسط.

وقال جاسم بن إبراهيم وهو يتحسر على الماضي: «كان دكان الحواج (العطار) في الماضي اشبه بصيدلية يكثر فيها الزبائن اما الآن فإننا لا نرى غير القليل منهم».

وفي أبو ظبي قال محمد عبدالله الذي يبلغ السبعين، وهو واحد من قلة من العطارين في الامارة، إن تجارته آخذة في الكساد ولذلك فإنه بات يمارس تجارة عامة بالإضافة إلى كونه عطاراً.

وقال في تصريح لـ «رويتر»: «إنني لا أستطيع العيش من بيع الأعشاب فقط، فالناس الذي يستعملون الأعشاب الآن قليلون».

● **اتحاد المؤرخين العرب يبدأ التحرك لإعادة كتابة التاريخ العربي:**

أعلن الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب عبدالقادر النجار، عزم الاتحاد على التحرك لمواجهة «معتقدات خاطئة وأكاذيب تميزت بها الطريقة التي كتب فيها التاريخ العربي في الغرب».

وقال في حديث لوكالة «رويتر»: إن الاتحاد ــ الذي يضم ١٢ الف عضو، «بدأ محاولة لإعادة كتابة بعض نواحي التاريخ العربي، بهدف لفت النظر إلى ما يعتبره تحيزاً ضد العرب في الكتب الغربية».

اضاف النجار في حديث أدلى به في أبو ظبي: «إن مهمتنا الرئيسية هي إعادة كتابة تاريخ الأمة العربية وتطهيره من الشوائب السالبة وإظهار النواحي الإيجابية فيه».

وتقوم لجنة شكلت سنة ١٩٨٥ الآن بالبحث في كيفية مواجهة هذه المهمة الشاقة. ومن بين الخيارات المطروحة أبحاث جماعية يقوم بها عدد من أعضاء اللجنة أو تعيين مؤرخين يقوم كل منهم على حدة بدراسة أكثر المواضيع إلحاحاً.

وقد وافقت الجمعية على رعاية سلسلة من الندوات للبحث في التاريخ العربي كما يظهر في الكتب الغربية، وستعقد الندوة الأولى في الولايات المتحدة العام المقبل ١٩٨٨، ثم تعقد ندوات أخرى في فرنسا وبريطانيا وألمانيا الغربية.

وقال عضو الاتحاد محمد مرسي عبدالله إن ثمة أمثلة عديدة على اعتقادات خاطئة، بينها أن الإسلام انتشر بالسيف بين القرن السابع والتاسع للميلاد على أيدي بدو رحل. واضاف أن إظهار الحروب الإسلامية كعمليات سلب مسلحة قام بها رجال قبائل غير صحيح من الناحية التاريخية وأدّى إلى اقتران الرسالة الإسلامية بمواقف سالبة.

وتابع يقول إن «الواقع هو أن الإسلام ابدى تسامحاً كبيراً إزاء الديانات الأخرى مما ساعده على الانتشار بسرعة».

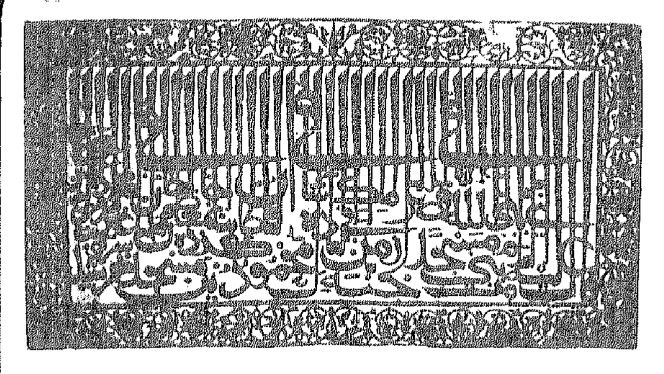
وقال: «إن بعض كتب الغرب ذهبت إلى اتهام العرب بحرق مكتبة الإسكندرية مع العلم بأن الرومان هم الذين أحرقوها في القرن الأول... وتصور بعض الكتب التي وضعت خلال استعمار الخليج، العرب كقراصنة أشرار، غير أنه يؤخذ من دراسة قام بها الشيخ سلطان بن محمد القاسمي حاكم إمارة الشارقة وعضو اتحاد المؤرخين العرب أن كثيرين ممن يسمون بالقراصنة كانوا يتولون الدفاع عن مصالحهم التجارية ضد اعتداءات البريطانيين».

وقال: «إن من الطبيعي أن نعمد خلال النصف الثاني من القرن العشرين إلى إعادة النظر في

هذه الكتابات وتقويمها وتصحيح ما ورد فيها من خطأ. وهذه هي مهمتنا كاتحاد».

اضـاف: إن الاتحـاد اتخـذ موقفاً قوياً في نشاطات تنظمهـا جـامعـة تـل أبيب للاحتفـال في ١٠ تموز بالذكرى الثمانمئة لمعركة حطين التي كانت نصراً حاسماً على الفرنجة.

وأشار عبدالله إلى أن الاتحاد قرر مقاطعـة كل مـؤرخ عربـي يشارك في تلك النشاطات، وقال إن الاتحاد سينظم نشاطات خاصة بالمناسبة، تقام إمّا في عمان او في دمشق.



■ لوحة رائعة من الخط العربي منقولة عن مسجد النبيل خورشيد خان بمدينة بها غالبور بولايـة بيهار، تـرجع الى ٣ اغسطس/آب ١٤٤٦ م

الخط العربـي على آثار هندية

● اكثر من ٣٠ لوحة من الخط العربـي منقولة عن «أهم العناصر الزخرفية في فن العمارة الإسلامية الهندية» عرضت في قاعة شارب بمتحف الآثار والانثروبولوجيا بجامعة بنسلفانيا. وعلق الدكتور ديساي، المدير السابق لإدارة التنقيب عن الآثار بالهند، في دليل المعرض الذي أطلق عليه «الخط العربـي المنقوش على الآثار الإسلامية» قائلاً: إلى جانب مغزاها الواضح بالنسبة للتاريخ المعماري الإسلامي في الهند، تقدم هذه النقوش معلومات مفيدة في تقييم المساهمات الأدبية التي قدمتها الهند للغة والأدب الفارسي في الحقبتين السلطانية والمغولية (١١٥٠ ــ ١٧٥٠م).

وتعرض اللوحات المعروفة بالفارسية إلى جانب العربية أربعـة أساليب رئيسيـة للخط العربـي، لم يثبت حتى الآن سوى هويات ٥٠ خطاطاً هندياً مهروا النقوش بتوقيعاتهم. وعلق الخطاط الأميركي محمد زكريا على المعرض بقوله إن بعض النقوش في حدود «فن الخط الشعبـي»، في حين أن أخرى مثال على «الفن الرفيع»، وأن المعرض اظهر أن فن الخط يمكن أن يأخذ أشكالاً مختلفة وأن بوسع الفنان أن «يستمد قدراً كبيراً من الرضى من مهنته».

وقد عرضت هذه النماذج في الولايات المتحدة لأول مرة نتيجة لجهود واين بيغلي، استاذ الفنون الهندية والإسلامية بجامعة ايوا، كجزء من مهرجان الهند.

ومما يذكر أن فيلادلفيا كانت آخر مدينة أقيم المعرض فيها، بعد عرضه في جامعة رايس في هيوستن، وجامعة هارفارد في بوسطن، وجامعة ولاية أوهايو في كولومبوس، وجامعة ايوا في مدينة ايوا.

هشام بن عبدالرحمن الداخل وأحد صنائعه (*)

كان هشام[1] بن عبدالرحمن الداخل قاعداً لراحته في عُلِّيَّة[2] على النهر في حياة والده، فنظر إلى رجل كنانيّ من قدماء صنائعه من أهل جَيَّان[3]، قد أقبل يُوضِعُ[4] السير في الهاجرة؛ فأنكر ذلك، وقدَّر شرًّا وقع به من قبل أخيه سليمان ــ وكان والياً على جَيَّان ــ فأمر بإدخاله عليه، فقال: مَهْيَمْ[5] يا كناني! فلأمر ما قدمت! وما أحسبك إلا مزعَجاً لشيء دَهَمَك.

فقال: نعم يا سيدي، قَتَلَ رجلٌ من قومي رجلاً خطأ، فقصدني أخوك بالاعتداء؛ إذ عرف مكاني منك.

فمدَّ هشام يده إلى جارية كانت وراء الستر، وقطع قِلَادةً كانت في نحرها، وقال له: دونك هذا العقد يا كنانيّ، وشراؤه عليّ ثلاث آلاف دينار، فلا تُخْدَعَنّ عنه، وبعْه وأدِّ عن نفسك وعن قومك، ولا تُمَكِّن الرجل من اهتضامك[6].

فقال: يا سيّدي؛ لم آتِكَ مُسْتَجْدِياً، ولا لضيق المال عما حُمِّلْتُه، ولكني قُصِدْتُ بظلم صُرَاح أحببت أن يظهر عليّ عِزُّ نصرك؛ وأثَرُ ذَبِّكَ وامتعاضك فأتَماجَدُ[7] بذلك عند من يحسدني على الانتماء إليك.

فقال هشام: فما وجْهُ ذلك؟ فقال: أن تكتبَ إلى أخيك في الامساك عني والقيام بذمَّتك لي. فقال: أمْسِك العِقْد، وركب من حينه إلى والده الداخل، واستأذن عليه في وقت أنْكره، فانزعج، وقال: ما أتى بأبي الوليد في هذا الوقت إلا أمر مُقْلِق، ائذنوا له.

فلما دخل سلّم عليه، ومَثَلَ قائماً بين يديه، فقال له: اجلس يا هشام، فقال: أصلح الله سيدي الأمير! وكيف جلوسي بهمٍّ وذُلٍّ مُزْعِج! وحَقٌّ لمن قام مقامي ألّا يجلس إلا مطمئناً، ولن يُقْعِدَني إلا طيبُ نفسي بإسعاف الأمير لحاجتي، وإلا رجعتُ على عَقِبي. فقال له: حَاشَ لك من انقلابك خائباً، فاقعد مُجاباً مشَفَّعاً؛ فجلس، فقال له أبوه: فما الحَدَثُ المُقْلِق؟ فأعلمه؛ فأمر بحَمْلِ الدية عنه، وعن عشيرته من بيت المال؛ فسُرَّ هشام وأطنب في الشكر، وكتب الأميرُ إلى ولده سليمان في ترك التعرّض لهذا الكنانيّ.

ولما دخل الكنانيّ لوداع هشام قال له: يا سيدي، قد تجاوزتُ بك حد الأمنية، وبلغتُ غايةَ النصر، وقد أغنى الله عن العِقْد المبذول، فتعيده إلى صاحبته؛ فأبى ذلك وقال: لا سبيل إلى رجوعه إلينا.

(*) نفح الطيب: ١ ــ ١٥٧.

(١) ولد هشام سنة ١٣٩هـ وتوفي سنة ١٨٠هـ، وكان من أشرف الناس نفساً، وأكرمهم طبعاً، وأكملهم مروءة، لم يعرف عنه هفوة في حداثته، ولا زلة في أيام صباه، وأهل الأندلس يشبهونه بعمر بن عبدالعزيز.

(٢) العلية: بالضم والكسر: الغرفة.

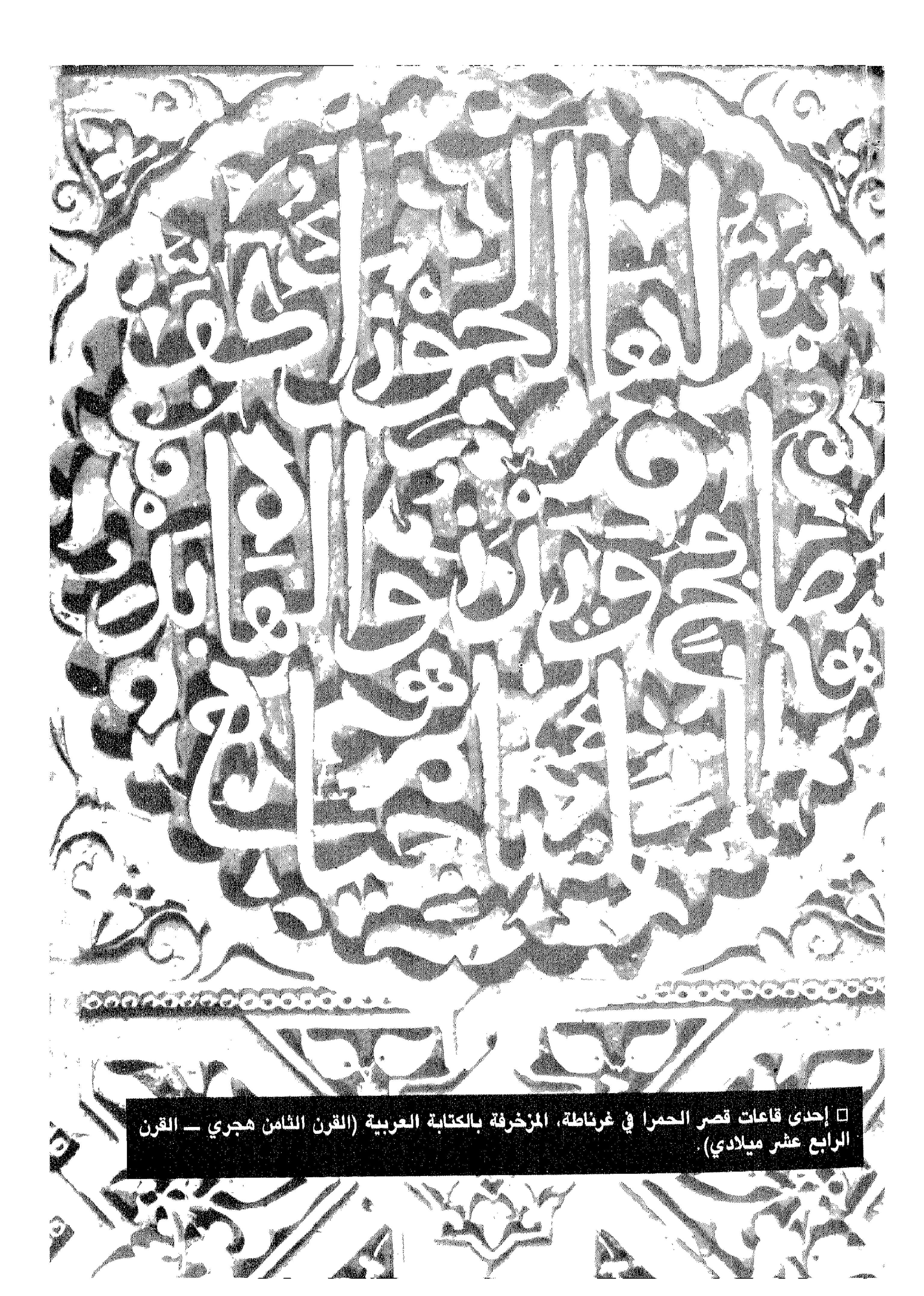
(٣) جيان: بلد بالأندلس.

(٤) أوضع: أسرع.

(٥) مهيم: كلمة استفهام: أي ما حالك وما شأنك أو ما وراءك؟.

(٦) هضم فلاناً واهتضمه: ظلمه وغصبه.

(٧) تماجد: تفاخر، وأظهر المجد.



□ إحدى قاعات قصر الحمرا في غرناطة، المزخرفة بالكتابة العربية (القرن الثامن هجري ـــ القرن الرابع عشر ميلادي).